اعمال خالدة ٨

فولتير

قصص وحكايات

ترجمة:
سلمان حرفوش

١٥٢٤٥

قصص وحكايات

أعمال خالدة ٨

Author : Voltaire	اسم المؤلف : فولتير
Title: Romans Et Contes	عنوان الكتاب : قصص وحكايات
Translator: Salman Harfouch	المترجم : سلمان حرفوش
Al- Mada P.C.	الناشر : المدى
First Edition : 2006	الطبعة الأولى : سنة ٢٠٠٦
Copyright © Al- Mada	الحقوق محفوظة

دار المدى للثقافة والنشر

سورية - دمشق ص. ب.: ٨٢٧٢ او٧٣٦٦ -تلفون: ٢٣٢٢٢٧٥ -٢٣٢٢٢٧٦-فاكس: ٢٣٢٢٢٨٩

Al Mada Publishing Company F.K.A. - Damascus - Syria

P.O.Box . : 8272 or 7366 .-Tel: 2322275 - 2322276 , Fax: 2322289

www.almadahouse.com E-mail:al-madahouse@net.sy

لبنان -بيروت-الحمراء-شارع ليون -بناية منصور-الطابق الأول - تلفاكس: ٧٥٢٦١٦-٧٥٢٦١٧

E-mail:al-madahouse@idm.net.lb

العراق - بغداد- أبو نواس- محلة ١٠٢- زقاق ١٢-بناء ١٤١

مؤسسة المدى للإعلام والثقافة والفنون

تلفون: ٧١٧٠٣٩٥-٧١٧٠٥١٣ فاكس: ٧١٧٥٩٤٣

www.almadapaper.com

almada112@yahoo.com almada119@hotmail.com

All rights reserved. No parts of this publication may be reproduced, stored in a retrieval system , or transmitted in any form or by any means ; electronic, mechanical, photocopying, recording or otherwise, without the prior permission, in writing, of the publisher.

فولتير

قصص وحكايات

ترجمة: سلمان حرفوش

توطئة وتوضيح

هذه القصص المتفرّقة لفولتير (١٦٩٤-١٧٧٨) مأخوذة، دون تسلسل، من الجزء الأول، المجموعة الكاملة لأعمال فولتير القصصية، مطبوعات كتاب الجيب، لعام ١٩٧٢. ورُبّ قائل: هذا كتاب غطّاه غبار التاريخ على رفوف دور الكتب الوطنية! ولا ردّ على هذا المعترض إلا القول: لكن الفكر الإنساني خالد عبر العصور ورموزه باقية لا تموت! وما فولتير إلا أحد أهم رموز الفكر الفرنسي - والإنساني- في أوج عصر التنوير. وما أحوجنا في عالمنا العربي، قبل الخوض في البنيوية أو غيرها، إلى الوقوف الدقيق والمعمّق على أفكار ومفاهيم عصر النهضة في أوروبا: إنها بوّابتنا الحقّة والضرورية لولوج العصر الحديث، ودون العبور منها سنظلّ إلى ما لا نهاية نراوح في دهاليز العصر الوسيط.

ولو سمحنا لأنفسنا بوضع عنوان خاص لهذه المجموعة، فقلنا عنها إنها: "ألف ليلة وليلة الفرنسية". ولعمري، ما كان فولتير ليعترض على مثل هذا العنوان، وهو الذي جعل من "ألف ليلة وليلة" كتابه الأثير، ونسج أسلوبه على غرارها من بعد "فَرْنسة" ساخرة لا غنى عنها لمثل هذا الكاتب اللاذع الفكاهة. فليغفر لنا القارئ هذه الجرأة، علماً بأنها لم تكن إلا وفاءً لروح الكاتب وأسلوبه.

كلمات قليلة في توضيح عابر، ولن نستوقف قارئنا أكثر، بل نتركه دون تأخير مع هذه القصص الطريفة الساخرة، الغنية بالفكر والعواطف.

المترجم

حكاية البراهماني الصالح

قابلت في سفراتي براهمانياً طاعناً في السن، رجلاً في غاية التعقّل، بعيد الذكاء ومن المتبحرين في العلوم. وكان، علاوةً على هذا، ميسور الحال، فكانت حكمته أوسع مدى: إذ لم يكن بحاجة لخداع أيٍّ كان نظراً لعدم افتقاره إلى أي شيء. وكانت مقاليد الأمور في أسرته بأيدي ثلاث نساء جميلات يتبارين في نيل رضاه وإعجابه، فعندما لا يكون منصرفاً إلى اللهو مع نسائه، ينشغل بالاستغراق في التأمل الفلسفي.

كانت داره جميلة تزينها حدائق ساحرة ملحقة بها، وكانت تقيم قرب تلك الدار امرأة هندية طاعنة في السن، متطرّفة في تقواها، غبيّة الذهن، وعلى درجة من الفقر.

قال لي البراهماني ذات يوم: "ليتني لم أولد قطّ!"وسألته لماذا، فأجابني: "ها أنا منصرف إلى الدرس منذ أربعين عاماً، وإنها لعمري أربعون سنة ضاعت هباءً، فأنا أعلّم الآخرين، لكني أجهل كل شيء: وهذه الحالة تبعث في نفسي المزيد من المذلّة والاشمئزاز، حتى إني أصبحت غير قادر على تحمّل حياتي. لقد ولدتُ وأعيشُ في الزمن، ولا أدري ما هو الزمن؛ وأجد نفسي في نقطة بين أبدين، كما يقول حكماؤنا، دون أن تكون لديّ أدنى فكرة عن الأبد. أمّا تفكيري فمن مادّة؛ وأفكّر، ولم أتمكّن أبداً من الإلمام بما يولّد التفكير؛ وأجهل إن كان الإدراك في داخلي مجرّد ملكة بسيطة، تماماً كملكة السير، والهضم، وأجهل إن كنتُ أفكر برأسي تماماً مثلما أمسك بيدي. إن منطلق الفكر لديّ مجهول لا أعرف كنهه، بل يصدق هذا على منطلق حركاتي الذي يظلّ مخفيّاً عني: وتراني لا أعلم لماذا أنا موجود. مع ذلك، يطرحون عليّ يومياً أسئلة حول هذه المواضيع مجتمعة: ويجب تقديم جواب، وليس لديّ ما يصحّ قوله؛ فأتكلم كثيراً ولكني أظلّ مضطرباً وخجلاً من نفسي بعد أن أنهي كلامي.

"وتسوء الأمور أكثر عندما أسأل إن كان براهما من نتاج فيتسنو، أو إن كان

علي مولا

الاثنان على حدٍّ سواء خالدَيْن. ويشهد الحقُّ عليَّ أني لا أعلم كلمة واحدة حول هذا الأمر، وهذا ما ينكشف في إجاباتي. فتراهم يقولون لي: "آه، أيها الأب المبجّل، أخبرنا كيف يغمر الشرّ الأرض". علماً بأني أعاني حيال هذا الأمر مثلما يعاني منه أولئك الذين يطرحون السؤال عليّ؛ فأقول لهم أحياناً إن كل أمْرٍ على خير ما يرام؛ غير أن الذين لحق بهم الدمار أو بُترت أطرافهم في الحرب لا يصدّقون أبداً ما أقول، ولا أنا أصدّق هذا؛ فأنسحبُ إلى داري وقد ناء كاهلي بفضولي وجهلي. وأطالع في كتبنا العتيقة، فيزداد اشتداد الظلمات من حولي. وأتبادل الحديث مع أصحابي: فبعضهم يجيبني أن من الواجب أن يستمتع المرء بالحياة وأن يسخر من البشر؛ بينما يظنّ آخرون أن في حوزتهم بعض العلم، فيضلّون ضلالاً بعيداً مع أفكارهم المجنّحة؛ وهذا في مجموعه يضاعف من شعوري بالألم. وتراني جاهزاً في بعض الأحيان للوقوع في اليأس، عندما أفكّر أني بعد جميع مساعيّ لا أعلم من أين جئتُ، ولا ماذا أكون، ولا إلى أين أمضي، ولا ما أصير إليه".

لقد سببتْ لي حالة هذا الرجل الصالح ألماً حقيقياً: فما من أحدٍ أكثر عقلانية ولا أوفر إيماناً منه. واستوعبت أنه كلمّا ازدادت أنوار المعرفة في إدراكه، والحساسيّة في قلبه، ازداد شقاؤه.

وفي ذلك اليوم بالذات، رأيتُ العجوز القاطنة غير بعيد عنه. فسألتها إن شعرت في يوم من الأيام بالفجيعة لأنها لا تعلم كيف صُنعت روحها. ولم تفهم حتى معنى سؤالي: إذ لم تفكّر للحظةٍ واحدة في حياتها بأيّ موضوع من تلك المواضيع التي كانت تعذّب وجدان البراهماني. كانت تؤمن من أعماق قلبها بتحوّلات فيتسنو، وكانت تظنّ نفسها أسعد النساء قاطبةً، اللهم شرط أن يتيسّر لها أحياناً قليلٌ من ماء نهر الغانج لتغتسل به.

وإذ صدمتني سعادة تلك المخلوقة المسكينة، عدتُ إلى فيلسوفي، وقلت له: "ألا تخجل من أن تكون شقيّاً، وعلى بعد خطوات من بابك عجوز لا تعلم من دنياها شيئاً، ولا تفكر بشيء، وتعيش مسرورة؟" فكان جوابه: "الحق معك. وكم قلتُ لنفسي إنني سأكون سعيداً لو كان لي غباء جارتي. ولكنّي لا أريد مثل تلك السعادة".

ترك جواب البراهماني في نفسي انطباعاً أعظم بكثير من كلّ ما عداه. وتأمّلتُ في نفسي بالذات، فتأكّد لي بالفعل أني ما كنت لأرضى بالحصول على سعادة ثمنها تبلّد الذهن.

وطرحتُ القضية على نفرٍ من الفلاسفة فكانوا من وجهة نظري. فرحت أقول: "لكن في هذا تناقضاً يثير الغيظ. فما تكون غايتنا المثلى؟ طبعاً، أن نكون سعداء. فما همّ إذن إن كنا من ذوي العقول الراجحة أو من الأغبياء؟ وهناك أيضاً ما هو أدهى: فالمسرورون من حياتهم، على يقينٍ كامل من أنهم مسرورون، بينما الذين يفكرون ليسوا على يقينٍ كامل من صحة تفكيرهم. وتابعتُ أقول إن من الواضح بالتالي أن التخلّي عن الإدراك العام أفضل، لأنه لا يؤدي سوى إلى نكد العيش". وقد وافقني الجميع على رأيي، ولكن أحداً لم يقبل معي بتلك المقايضة، بالحصول على السعادة مقابل التحوّل إلى الغباء. وكان أن استخلصتُ بأننا نهتمّ بالعقل كاهتمامنا بالسعادة، بل وأكثر بكثير.

غير أني من بعد إمعان في التفكير في هذا الموضوع، تبدّى لي أن تفضيل العقل على الغبطة فيه ما فيه من الخروج على العقل السليم. فما السبيل إلى تفسير هذا التناقض؟ مثلما نفسّر جميع التناقضات الأخرى. ويمكننا في هذا المجال أن نخوض مطوّلاً.

حوار
الديك المخصيّ والدجاجة المسمّنة

الديك المخصيّ

هِيْ، يا إلهي! أنتِ يا دجاجتي حزينة جداً، فماذا عندك؟

الدجاجة المسمّنة

أيْ صديقي العزيز، الأحرى أن تسألني عمّا لم يعد عندي! إذ أن خادمة ملعونة قد أمسكت بي على ركبتيها، وأدخلت إبرة طويلة في قفاي، فالتقطت بالإبرة رحمي ولفّته حولها ثم اقتلعته ورمته إلى قطها كي يأكله. وها أنا غير قادرة بعد اليوم على استقبال هِبات مطرب الصباح، وغير قادرة على أن أبيض.

الديك المخصيّ

يا حسرتي! وأنا يا عزيزتي خسرتُ أكثر مما خسرتِ. فقد أجروا لي عملية فظّة ألحقت بي أذىً مضاعفاً: ولذا ما عاد لنا، أنتِ وأنا، من سلوان في هذا العالم. لقد جعلوا منكِ دجاجة مسمّنة، وجعلوني ديكاً مخصياً. ولا يخفف عني ما أعاني في حالتي المحزنة سوى أنني سمعتُ منذ أيام، قرب الخُمّ الذي أعيش فيه، حديث رجلين من رجال الدين الطليان، هما أيضاً تعرّضا للإهانة نفسها، كي يمكنهما الغناء أمام البابا بصوتٍ أصفى. وكان مما قالاه إن البشر شرعوا في البداية بختان أبناء جنسهم، ثم تحوّلوا من بعد ذلك إلى خصيهم: وسمعتهما يلعنان القدر والجنس البشري بأكمله.

الدجاجة المسمّنة

ماذا؟ هُمْ إذن حرمونا من أجمل جزء في جسمنا كي يكون صوتنا أكثر صفاء؟

الديك المخصيّ

يا حسرة! أيْ دجاجتي المسمَّنة المسكينة، بل من أجل تسمينِنا وكي يصبح لحمنا أطيب مذاقاً.

الدجاجة المسمَّنة

حسناً! فهل إذا أصبحنا أسمن، زادت سمنتهم؟

الديك المخصيّ

نعم، لأنهم إنما يريدون أكلنا.

الدجاجة المسمَّنة

يريدون أكلنا! آه، يا للوحوش!

الديك المخصيّ

تلك عادتهم. فهم يضعوننا في الحبس لأيام، ويطعموننا خليطة لا يعرف سرّ تحضيرها سواهم، ويفقؤون أعيننا كي لا نتلهّى بأي شيء. أخيراً، مع مجيء يوم العيد، ينتفون ريشنا، ويقطعون أعناقنا، ويحمّرون لحمنا، ويضعوننا أمامهم في أوانٍ كبيرة من الفضة، ويروح كلٌّ منهم يقول رأيه بنا: فذاك هو تأبيننا! فهذا يقول إن لنا رائحة البندق؛ وذاك يمتدح لحمنا الزكي، ويُطري على أفخاذنا وسواعدنا وأعجازنا. تلك حكايتنا في هذه الدنيا وقد انتهت آنذاك إلى الأبد.

الدجاجة المسمَّنة

يا للأنذال المقيتين! أنا على وشك أن يُغمى عليَّ. ماذا! سوف يقتلعون عينيّ! ويقطعون عنقي! ويحمّرونني ويأكلونني! هؤلاء الكفرة، ألا يعذّبهم ضمير؟

الديك المخصيّ

كلا، يا صديقة؛ رجلا الدين اللذان حدثتك عنهما قالا إن البشر لا يردعهم أي رادع عن الأمور التي اعتادوا على القيام بها.

الدجاجة المسمَّنة

يا للجنس الكريه! وأراهن أنهم حين التهامنا يأخذون بالضحك ويسردون القصص المسلّية، وكأنّ شيئاً لم يكُنْ.

الديك المخصيّ

لقد حزرتِ الحقيقة؛ لكن اعلمي لسلواكِ (إنْ كان في هذا سلوى) أنّ هذه الحيوانات التي تسير على ساقين مثلنا، والتي هي أدنى بكثير من مستوانا، حيث إنها ليس عليها ريش، غالباً ما كان ذلك سلوكهم مع أبناء جنسهم. فقد سمعتُ الإيطاليَّيْن يقولان إن جميع الأباطرة المسيحيين واليونان ما كانوا يقصّرون في فقء عيون أبناء عمومتهم وإخوتهم، بل إنه وُجد في بلدنا هذا بالذات شخص يقال له "ديبونير" وإنه طلب اقتلاع عيني ابن أخيه "برنار". وأما عن تحمير البشر فذلك كان من أكثر الأمور انتشاراً في هذا الجنس. فكان مما قاله رجلا الدين إن عدد الذين جرى تحميرهم بلغ في بعض الآراء ما يزيد على عشرين ألفاً، وهذا ما يصعب على ديك مخصيّ فهمه وتفسيره. على أي حال، فليس لهذا كبير أهمية.

الدجاجة المسمّنة

ولا بدّ أنهم حمّروا كل تلك الأعداد من أجل أكلها.

الديك المخصيّ

لا أتجاسر على تأكيد هذا الأمر؛ لكن أذكر جيداً أنني سمعتُ عن وجود بلدان عديدة، من بينها بلدٌ لليهود، وأن البشر فيها كانوا أحياناً يلتهم بعضهم بعضاً.

الدجاجة المسمّنة

لا بأس بهذا. فمن العدل لجنس على هذه الدرجة من الفساد أن يلتهم بعضه بعضاً، وأن تتطهّر الأرض من هذا النسل. لكن ماذا عني، أنا المسالمة الوديعة، أنا التي لم أرتكب في حياتي أية إساءة، أنا التي أطعمتُ حتى هؤلاء الوحوش من بيضي، ما ذنبي كي أُخصى وتُفقأ عيناي، ويقطع عنقي، وأُحمّر! هل يعاملوننا هكذا في باقي المعمورة؟

الديك المخصيّ

يقول رجلا الدين كلاّ. ويؤكدان أنه في بلد يقال لها الهند، هي أكبر بكثير، وأجمل، وأخصب من بلدنا، يحافظ البشر على قانون مقدّس منذ آلاف القرون يردعهم عن أكلنا؛ بل وإن مدعواً اسمه فيثاغورث كان قد سافر إلى بلاد أولئك الأقوام الصالحين، واستقدم معه من هناك إلى أوروبا هذا القانون الإنساني الذي سار على هديه

تلامذته وأتباعه. وكان رجلا الدين الطيبان يقرأان بورفير، الفيثاغورثي المذهب، وهو الذي وضع كتاباً جميلاً في التنديد بتناول اللحم المشوي.

فيا له من رجل عظيم الشأن! يا له من رجل مقدّس ذلك البورفير! ما أحكمه، وأقوى حجته، وأشدّ توقيره للآلهة حين برهن أننا أنصار وأقارب بني البشر، وأن الله منحنا الأعضاء نفسها، والمشاعر نفسها، والذاكرة نفسها، والبذرة نفسها، تلك البذرة المجهولة، بذرة الإدراك التي تنمو فينا إلى الحد الذي رسمته لها القوانين الخالدة، فلا البشر ولا نحن لنا القدرة على تجاوز ذلك الحدّ! وبالفعل يا دجاجتي المسمّنة: أليست إهانة موجهة إلى الآلهة قولهم إن لدينا حواساً لا نحس بها، ودماغاً لا نفكر به؟ هذا الخيال الفذّ على زعمهم، والذي جاء به مجنون يقال له ديكارت، أليس أوج السخافة والحجج العقيمة لدى أولئك البرابرة؟

ولا تنسَيْ أن كبار الفلاسفة القدامى ما وضعونا يوماً في أسياخ الشيّ. وإنما انصبّ اهتمامهم على محاولة تعلّم لغتنا، واكتشاف مزايانا التي تفوق كثيراً مزايا الجنس البشري. لقد كنّا في أمانٍ وطمأنينة معهم فكأنه كان العصر الذهبي لنا. ويقول بورفير إن الحكماء لا يقتلون الحيوان؛ وليس إلا البرابرة والكهنة من يقتل الحيوان ويأكله. لقد وضع كتابه الرائع ذاك لهداية أحد تلامذته، وكان قد تحوّل إلى المسيحية شراهةً ونهماً.

الدجاجة المسمّنة

حسناً! فهل أقاموا الهياكل لهذا الرجل العظيم الذي راح يعلّم الجنس البشري الفضيلة، وجعل همّه إنقاذ حياة الجنس الحيواني؟

الديك المخصيّ

كلا، بل أثار هلع المسيحيين الذين يلتهموننا، والذين يمقتون حتى يومنا هذا سيرته؛ ويقولون إنه كان ملحداً، وإن فضائله مزيّفة، لأنه كان وثنياً.

الدجاجة المسمّنة

ألا ما أرهب أعذار الشراهة! فمنذ أيام سمعتُ في ذلك المكان الشبيه بالمستودع قرب خمّنا رجلاً كان يتحدث بمفرده أمام جمع من الناس لا ينطقون بكلمة. ارتفع صوته

هاتفاً بأن الله "كان قد عقد ميثاقاً معنا ومع تلك الحيوانات الأخرى المسماة بني البشر؛ وأن الله قد حرّم عليهم أكل دمنا ولحمنا". فكيف يمكنهم تجاهل هذا التحريم وإباحة التهام أطرافنا مسلوقة أو محمّرة؟ فمن المستحيل بعد قطع أعناقنا ألا يبقى الكثير من الدم في عروقنا؛ وهذا الدم سوف يختلط بالضرورة مع لحمنا؛ هم بالتالي يخرجون دون مواربة على طاعة الله عندما يأكلوننا. أضِف إلى هذا، أليس في قتل والتهام كائنات ارتبطت مع الله بميثاق خرقٌ للمقدسات؟ ألا ما أغرب المعاهدة التي بندُها الوحيد تسليمنا للموت! فإمّا أن خالقنا لم يعقد معنا أي ميثاق، وإما أن قتلنا وطهينا جريمة: لا مجال لأي حلٍّ وسط.

الديك المخصيّ

ليته كان التناقض الوحيد السائد لدى هؤلاء الوحوش، أعدائنا الخالدين! فلطالما وُجّه إليهم اللوم لأنهم لا يتفقون على أمر. ولا يضعون القوانين إلا لخرقها؛ والأدهى، أنهم يخرقونها عن وعي. وقد ابتكروا مئات الحيل والسفسطات لتسويغ تجاوزاتهم. وانظري إليهم كيف لا يستخدمون الفكر إلا بغية إطلاق عنان مظالمهم، ولا يستعملون الكلام إلا بغية إخفاء أفكارهم. وتصوّري، فهنا في هذا البلد الصغير الذي نعيش فيه، من المحرّم أكلنا يومين في الأسبوع: إنهم يحسنون التملّص من القانون؛ على أي حال، هذا القانون الذي قد يبدو لك مناسباً هو في غاية البربرية؛ إذ يأمر في هذين اليومين بأكل سكان المياه: فيذهبون بحثاً عن الضحايا في أعماق البحار والأنهار. ويلتهمون مخلوقات الواحد منها في أغلب الأحيان يعادل مائة ديك مخصيّ: ويسمّون عملهم هذا صوماً وتقشفاً! خلاصة الكلام، لا أظن أن بالإمكان تخيّل وجود جنس أسخف وأمقت، أو أشدّ غلواً ودمويّة.

الدجاجة المسمّنة

أوه، يا إلهي! ماذا أرى؟ أليس ذلك النذل، مساعد الطباخ ومعه سكّينه الكبيرة؟

الديك المخصيّ

قُضي الأمر، يا صديقة، وجاءت ساعتنا الأخيرة. فلنسلّم روحنا إلى الله.

الدجاجة المسمّنة

ليتني أستطيع أن أسبّب للزنديق الذي سوف يأكلني عسر هضم وليتني أجعله

ينفجر! على أن الضعفاء ينتقمون من الأقوياء بالأماني العقيمة، والأقوياء يسخرون من هذا.

الديك المخصيّ

آي! أمسكوني من عنقي. فلنصفح عن أعدائنا.

الدجاجة المسمّنة

لا أستيطع، إنهم يشدّون عليّ ويأخذونني. الوداع، يا عزيزي يا ديكي المخصيّ.

الديك المخصيّ

الوداع إلى أبد الآبدين يا عزيزتي، يا دجاجتي المسمّنة.

ممنون أو الحكمة البشرية

عقد ممنون ذات يوم العزم على ذلك المشروع الخارج عن جادّة العقل، حين قرّر أن يكون حكيماً حكمةً لا تشوبها شائبة. ولا يوجد إنسانٌ لم يراوده ذلك الجنون أحياناً. قال ممنون لنفسه: "كي أكون حكيماً كل الحكمة، أي في غاية السعادة، ليس إلا أن أكون بلا أهواء؛ ولا أسهل من هذا، كما هو معلوم للجميع. فأولاً، لن أحب أية امرأة على الإطلاق؛ فعندما أرى جمالها الباهر، سوف أخاطب نفسي قائلاً: هذه الخدود مصيرها إلى تجعّد ذات يوم؛ هاتان العينان سوف يحيط بهما الاحمرار؛ أما هذا النهد المدوّر فسيصبح متدلياً أو مسطحاً؛ وأما هذا الرأس الجميل فهو صائر إلى الصلع. وهكذا، فليس عليّ إلا أن أراها في الحاضر بالعينين اللتين سوف أراها بهما في المستقبل، وبالتالي فلن يستطيع ذلك الرأس أن يفقد رأسي اتزانه.

"وثانياً، سوف ألتزم دائماً بالتقشّف؛ ولن أستجيب لمن يغريني بلذيذ الطعام، وبالخمور السائغة، وبمتعة الاجتماع مع الآخرين؛ لأنني سوف أتخيّل ببساطة عواقب ذلك الإفراط، من رأس ثقيل، إلى معدة مضطربة، إلى فقدان الصواب، والصحة، والوقت؛ إذ ذاك لن آكل إلاّ حاجتي؛ فتكون صحتي مستقرّة دائماً، وتظلّ أفكاري نقية مشرقة. وجميع هذا من السهولة بحيث لا فضلَ لي إطلاقاً في التوصّل إليه.

"واستمرّ ممنون يقول: ويجب التفكير قليلاً في ثروتي؛ فرغباتي معتدلة، ورزقي لا خطرَ عليه إذا وظّفته لدى المشرف العام على الشؤون المالية في نينوى؛ وسوف يكون بين يديّ ما أعيش عليه باستقلال: فهذا هو الخير الذي ما بعده خير. إذ لن أكون أبداً خاضعاً لتلك الضرورة الموجعة في التزلّف إلى البلاط؛ كما لن أحسد أحداً ولا أحد سوف يحسدني. وهذا أيضاً أمرٌ في غاية السهولة.

وتابع يقول: لديّ أصدقاء سوف أحافظ على مودتهم لأنهم لن ينافسوني في أي

علي مولا

شيء. لن أكون أبداً سيّئاً حيالهم، وبالمقابل فلن يكونوا سيّئين معي؛ وهذا أمرٌ لا صعوبة فيه".

بعد أن رسم ممنون هذا المخطط الحكيم وهو في غرفة نومه، مدّ رأسه من النافذة. فشاهد امرأتين تتنزّهان تحت أشجار الدلب قرب داره. كانت إحداهما متقدمة في السن، ويبدو عليها عدم الانشغال بأي شيء؛ أما الثانية فكانت في مقتبل العمر، وهي جميلة وتبدو غارقة في الهموم. كانت تتنهّد، وتبكي، وهذا ما زادها لطفاً وجمالاً. وقد تأثر حكيمنا لا بجمال السيدة (إذ كان على يقين بألاّ يعاني من مثل هذا الضعف) ولكن بالحالة المفجعة التي تسيطر عليها. وكان أن نزل وتوجّه إليها مستفهماً، ولا غاية تدفعه سوى مواساتها بالحكمة. روت له تلك السيدة الجميلة، وملامحها تفيض بالبراءة والبساطة، الأذى الكبير الذي ألحقه بها عمّ مزعوم؛ وحكت عن أحابيله لتخليصها من أملاك وهمية، ثم عبّرت عن خشيتها الكبيرة من بطشه وقسوته. وقالت له: "أنت تبدو لي من أهل الرأي السديد، فحبّذا لو تتكرّم بمرافقتي إلى البيت لتدقق في قضيّتي، وأنا على يقين بأنك سوف تخرجني من ورطتي". ولم يتردّد ممنون في مرافقتها، ليدقّق جميع أمورها، ويقدّم إليها النصيحة الحكيمة.

قادته المرأة المفجوعة إلى غرفة نوم معطّرة، وأجلسته بمنتهى الأدب على صوفا، ثم جلست أمامه، فكانا متقابلين وجهاً لوجه وقد وضع كل منهما ساقاً فوق ساق. وراحت المرأة تتكلم خافضة بصرها، غير أن بعض الدموع تطفر أحياناً من عينيها اللتين تلتقيان، كلّما رفعتهما، بنظرات الحكيم ممنون. وكانت كلماتها عامرة باستعطاف يتضاعف كلّما التقت النظرات. لقد تأثر ممنون تأثراً كبيراً بسبب وضعها المؤلم، وراح يشعر من لحظة لأخرى بتزايد رغبته في تقديم العون إلى تلك الإنسانة الشريفة جداً، والتعيسة جداً. ومع ارتفاع حرارة الحديث، لم يعودا وجهاً لوجه، الواحد منهما تجاه الآخر. ولم تعد الساق على الساق. هنا راح ممنون يسدي إليها النصائح وهو قريب جداً منها، فقدّم إليها آراء لا أرقّ ولا ألطف، حتى لم يعد بإمكانها متابعة الكلام عن أمورها الملحّة، وطاش صوابهما فلم يدركا ما صارا إليه.

وإذ وصلا إلى ما وصلا إليه، أطلّ العم، كما يمكننا أن نتصوّر: مدجّجاً بالسلاح من رأسه حتى قدميه. وكان أوّل ما قاله إنه سوف يقتل، ولا لوم عليه، الحكيم ممنون

وابنة أخيه. لكنّ آخر ما قاله إنه قد يصفح ويغفر مقابل مبلغ كبير من المال. وكان أن اضطر ممنون لتقديم كل المال الذي كان بحوزته. وكان الناس سعداء في ذلك الزمن الغابر لأن بإمكانهم تسوية الأمور مقابل التفاهم على ثمن معقول. لم تكن القارة الأميركية قد اكتشفت، والنساء المفجوعات لم يكنّ بخطورة نساء عصرنا الحالي.

عاد ممنون خجلاً ويائساً إلى بيته: فوجد بانتظاره بطاقة دعوة للعشاء مع نخبة من أخلص أصحابه. قال لنفسه: "إذا بقيتُ وحيداً في الدار، سوف أظلُّ مهموماً بقصّتي، ولن آكل؛ وسوف أُصاب بالمرض: فالأفضل أن أذهب وأتناول مع أصحابي الخلّص وجبة معتدلة. وسوف تنسيني رقة صحبتهم الحماقة التي ارتكبتها هذا الصباح". وكان أن ذهب إلى الموعد. وإذ وجدوه مهموماً، ألزموه بالشراب كي يبدّد حزنه. فالقليل من الخمر مع الاعتدال فيه شفاءٌ للنفس والجسد. هذا ما جال في خاطر ممنون الحكيم؛ ولكنه شرب حتى السكر. حينذاك اقترحوا عليه اللعب بالورق من بعد العشاء. نعم، واللعب المنظّم مع الأصدقاء تسلية شريفة لا غبار عليها. لعب إذن، فربحوا جميع ما في كيسه، وفوقه أربعة أضعاف تعهّد بدفعها. وثار نزاع إبّان ذلك القمار، وتفاقمت الحميّة والانفعالات: فرماه أحد الأصحاب ببوق سدّده نحو رأسه، وكان أن فقأ له عينه. وحملوا الحكيم ممنون إلى بيته مخموراً، خاوي الجيب، وقد نقصت منه عين.

استراح قليلاً حتى زالت السكرة، وحالما أصبح رأسه أصفى، أرسل خادمه ليجلب له بعض المال من المشرف العام على الشؤون المالية في نينوى كي يدفع ما ترتّب عليه لأصدقائه الخلّص، فقالوا له إن المشرف قد أشهر في الصباح إفلاساً احتيالياً أوقع الاضطراب في مائة أسرة. وإذ شعر ممنون بالإهانة، ذهب إلى البلاط وعلى عينه لزقة، وفي يده طلب استرحام، يطلب فيه من الملك إنصافه من ذاك الذي أشهر إفلاسه مكراً واحتيالاً. وفي قاعة من القاعات، قابل عدداً من السيدات يلبسن جميعهن ثياباً فضفاضة، المحيط الدائري لكل ثوب أربعة وعشرون قدماً. كانت إحداهن تعرفه معرفة بسيطة فقالت وهي تراقبه بنظرة جانبية: "آه، يا للفظاعة!" وقالت أخرى تعرفه معرفة أكبر: "مساء الخير يا سيد ممنون، صدقاً يا سيد ممنون أنا مرتاحة جداً لرؤيتك، لكن، بالمناسبة، ما الذي أفقدك عينك يا سيّد ممنون؟" ومضت في طريقها دون أن تنتظر جوابه. فاختبأ ممنون في ركنٍ منزوٍ بانتظار الفرصة السانحة للارتماء عند قدمي جلالته.

وحضرت أخيراً الفرصة المرجوّة، فقبّل الأرض ثلاثاً وقدّم معروضه. وقد استقبل جلالته بكل ترحيب ذلك المعروض، وقدّمه إلى أحد وزرائه لدراسته. فأخذ الوزير السيد ممنون جانباً، متنحياً عن الجميع، وبادره بلهجة متعالية، ساخراً منه بقسوة: "أرى أنك أحد العوران المضحكين بتوجّهك إلى الملك بدلاً من الرجوع إليّ، وتضحكني أكثر جرأتك على طلب الانتصاف من رجلٍ شريف أشهر إفلاسه وهو تحت حمايتي، مثلما هو ابن أخ وصيفة عشيقتي. يا صديقي، دع هذه القضيّة إذا كنت تودّ المحافظة على عينك الباقية".

وهكذا فإن ممنون، الذي تخلّى في الصباح عن النساء، وعن الإفراط في الطعام، والقمار، والذي قرّر تجنّب كل مشاحنة، وخصوصاً الذهاب إلى البلاط، كان قبل حلول الليل قد خدعته وسرقت ماله سيدة جميلة، كما شرب حتى السكر، ولعب القمار، ودخل في مشاحنة تسبّبت في قلع إحدى عينيه، وذهب إلى البلاط حيث أصبح مادة للسخرية.

لقد جمّدته الدهشة، وفاض به الوجع والأسى، فعاد أدراجه وفي أعماق نفسه حزنٌ لا يوصف. وإذ توجّه إلى داره، وجد فيها بعض الجنود يأخذون المفروشات بطلبٍ من دائنيه. فتوقف على وشك الإغماء تحت شجرة دلب؛ وهناك التقى بسيدة الصباح الجميلة وبرفقتها عمّها الغالي، وقد انفجرت ضاحكة عندما رأته واللزقة على عينه. وحلّ الظلام. فرقد ممنون على القش قرب جدران داره. وأصيب بحمّى، أغرقته في سبات عميق لدى اشتدادها، وكان أن تجلّى له في المنام روحٌ سماوي.

كان الروح يشع ضياءً. وهو بستة أجنحة جميلة، لكنه دون قدمين، أو رأس، أو ذيل، بحيث لم يكن يشبه أي شيء. سأله ممنون: "من أنت؟" فأجابه الروح: "حاميك الأمين". أسرع ممنون حينذاك يقول له: "أرجع لي إذن عيني، وصحتي، ومالي، وحكمتي". ثم حكى له كيف فقد كل هذا في يوم واحد. فقال الروح: "مثل هذه القصص لا تحصل معنا أبداً في العالم الذي نسكن فيه". فقال الرجل المنكوب: "وأيّ عالم تسكنون؟" فأجابه الروح: "وطني أنا على مسافة خمسمائة مليون ميل من الشمس، في نجمة صغيرة قرب الشعرى، وأنت يمكنك أن تراها من موضعك هذا". قال ممنون: "يا للبلد الجميل! ماذا! ليس عندكم محتالات يخدعن رجلاً مسكيناً، ولا

أصدقاء يربحون ماله ويفقؤون عينه، ولا من يشهر الإفلاس احتيالاً، ولا وزراء يتهكمون رافضين إنصافكم؟" فقال ساكن النجمة: "كلا، لا شيء عندما من كل ماذكرت. فلا تخدعنا النساء أبداً، ولا نفرط أبداً في طعام، والسبب أننا لا نأكل؛ وليس عندنا من يُشهر إفلاسه، إذ لا ذهب عندنا ولا فضة. ولا يمكن فقء عيوننا، لأن أجسامنا ليست كأجسامكم، والوزراء لا يوقعون بنا المظالم، لأن الجميع في نجمتنا الصغيرة سواسية".

قال له ممنون حينذاك: "يا سيدي، دون نساء ودون طعام، كيف تمضون إذن وقتكم؟" قال الملاك: "بالسهر على باقي العوالم المكلّفين بها؛ وها أنا جئت لمواساتك" فتابع ممنون: "يا للأسف! ليتك إذن جئت في الليلة الماضية لتمنعني من ارتكاب مجموعة حماقات". قال المخلوق السماوي: "ما منعني عن الحضور هو أني كنت أمد يد العون لشقيقك البكر حسن، لأنه أجدر منك بالعطف والشفقة. إذ أن صاحب العظمة، جلالة ملك بلاد الهند، والذي يتشرّف شقيقك بأنه من أهل بلاطه، قد أمرهم ففقؤوا عينيه الاثنتين لإذاعته بعض الأسرار البسيطة وهو حالياً في زنزانة، مقيَّد القدمين واليدين بالسلاسل". قال ممنون: "ألا ما أصعب أن يرعى ملاك عائلة ويحميها، فيصاب منها شقيقان، الأول يصبح أعور، والثاني أعمى؛ أحدهما ينام على القش، والآخر في الحبس". فتابع ساكن النجمة: "سوف يتحسّن قدرك. نعم، سوف تظل أعور على الدوام. لكنك سوف تعرف السعادة تقريباً، شرط ألاّ تعود إلى ذلك المشروع الأخرق الذي يوهمك بالقدرة على التحوّل إلى الحكمة الكاملة". هتف ممنون حينذاك وهو يطلق تنهيدة: "هذا إذن أمرٌ يستحيل تحقيقه؟" فأجابه الملاك: "مستحيل تماماً كاستحالة الوصول إلى المهارة الكاملة، أو القوة الكاملة، أو القدرة الكاملة، أو السعادة الكاملة. وحتى نحن أنفسنا، نحن بعيدون كل البعد عن هذا. هناك كوكب فيه مثل هذا؛ لكن، في المائة ألف مليون عالم، المبعثرة في المدى المترامي، كلّ شيءٍ متراتب على درجات. فالعالم الثاني، الحكمة فيه والمتعة أقلّ من العالم الأول، وتتناقص في العالم الثالث، وهكذا تدريجياً حتى آخر العوالم حيث الناس قاطبة في جنون مطبق". فقال ممنون: "يا خوفي من أن يكون كوكبنا الطيني هو في آخر السلسلة التي تكرّمت وحدثتني عنها". قال الروح: "ليس الأمر كذلك تماماً، وإن كان قريباً جداً

من أن يكون كذلك! إذ كل شيء له موقعه ودرجته". قال ممنون: "حسناً! فهذا يعني أن بعض الشعراء والفلاسفة يرتكبون خطأ فادحاً عندما يقولون إن كل شيء على خير مايرام ولن يكون أبدع مما كان؟" فقال الفيلسوف القادم من أعالي السماء: "بل معهم الحق كل الحق، إذا ما نظرنا إلى نظام الكون في مجمله". وكان ردّ ممنون التعس على هذا: "آه! أنا لن أؤمن بذلك إلا عندما ترجع لي عيني فلا أبقى أعور".

استطراد قصير

في بدايات إنشاء مأوى "الكانزفان"(*) للعميان، نعلم أنهم كانوا جميعاً على قدم المساواة فيما بينهم، وأن شؤونهم الصغيرة كانت تتقرّر بالتصويت الجماعي. كانوا يميّزون تماماً باللمس بين النقود النحاسية والفضيّة، ولا يخلط أحدٌ منهم بين خمر "بري" وخمر "بورغونيا". إذ أن حاسة الشمّ لديهم ألطف مما هي لدى جيرانهم من أصحاب العيون المبصرة. وكانوا يتناظرون دون أي نقص حول الحواس الأربع، أي أنهم عرفوا عنها كل ما يمكن أن يُعرف. وعاشوا مطمئنّين وموفّقين، بمقدار ما يمكن لجماعة "الكانزفان" أن يكونوا عليه من طمأنينة وتوفيق. لكن أحد أساتذتهم زعم، لسوء الحظ، أن لديه تصوّرات واضحة عن حاسة النظر؛ ووجد من يُصغي إليه فشغل الأفكار، وألّف جمعاً من المناصرين المتحمّسين له. ثم إنهم بايعوه في النهاية رئيساً لهم. فراح يعطي أحكامه بفوقيّة مسيطرة حول مايخصّ الألوان، حتى وقع الاضطراب في جميع الأمور.

بادئ ذي بدء، ألّف هذا الديكتاتور الأول لجماعة "الكانزفان" مجلساً مصغّراً، جعله الوسيلة بين يديه للتحكّم بجميع التبرّعات الخيرية. وبهذا لم يعد أحدٌ يتجاسر على مقاومته. فكان أن قرّر وأفتى بأن ملابس جماعة الكانزفان بيضاء اللون: وقد صدّقه العميان. ولم يعد لهم من حديث إلا عن ملابسهم البيضاء الجميلة، مع أن أيّاً منهم لم تكن ملابسه من ذلك اللون الأبيض. وإذ راح جميع الناس يسخرون منهم، ذهبوا يشكون أمرهم إلى الديكتاتور الذي أساء استقبالهم؛ فتصرّف معهم على أنهم من أصحاب البدع، والمنطلقين مع الأفكار المغالية، وأنهم من المارقين المرتدّين، الذين

* مأوى باريس للعميان ويسمّى "الكانزفان" أي "الثلاثمائة" لأنه لا يستوعب أكثر من ثلاثمائة أعمى .

يستسلمون لإغواء الآراء الضالة لدى من كانوا يبصرون، وأنهم من الذين يتجاسرون على التشكك بمعصومية معلّمهم. وكان من نتائج هذه الخلافات نشوء حزبين.

فعمد الديكتاتور، بغية تهدئتهم، إلى إصدار مرسوم ينصّ على أن ثيابهم حمراء اللون، علماً أن تلك الثياب لم يكن بينها أي ثوبٍ أحمر. فأصبحوا عرضةً للسخرية أكثر من ذي قبل. هنا، أصاب الديكتاتور هياج مسعور، وكذلك كان حال باقي العميان: فتعاركوا طويلاً ولم يستتبّ الوفاق بينهم إلا بعد ما سُمح لجميع عميان الكانزفان صرف النظر عن إعطاء أي رأي حاسم حول لون ملابسهم.

وإذ قرأ أحد الصمّ هذه الحكاية القصيرة، اعترف بأن العميان قد أخطؤوا في إعطاء آراء حول الألوان؛ لكنه ظل ثابتاً لا يتنازل عن رأيه القائل إنّ للصمّ وحدهم، دون سواهم، الحقّ في إعطاء الأحكام والآراء حول الموسيقا.

حكاية أسفار سكرمنتادو
(كتبها بخطَ يده)

ولدتُ في مدينة كاندي عام ١٦٠٠، وكان والدي آنذاك حاكماً عليها. وأذكر أن شاعراً قصير الباع في الشعر، لكنه غير قصير الباع في التجريح، واسمه "إيرو"، نظم أبياتاً شعرية رديئة لامتداحي، وجعلني فيها سليل مينوس دون أية شبهة؛ لكنه من بعد نزول النقمة بوالدي، نظم قصيدة أخرى جعلني فيها سليل زوجة مينوس من علاقتها مع عشيقها. ألا لقد كان ذلك الـ "إيرو" من أسوأ بني البشر، ومن أكثر الأنذال إضجاراً في جزيرتنا.

وقد أرسلني والدي في سن الخامسة عشرة للدراسة في روما، التي وصلت إليها وأنا أحمل آمالاً بتعلّم جميع الحقائق؛ لأنهم حتى ذلك التاريخ كانوا قد لقّنوني عكس الحقيقة تماماً، كما هو متعارف عليه في هذه الحياة الدنيا، من أسوار الصين حتى جبال الألب. كان المونسنيور بروفوندو، الذي زكّوني عنده، رجلاً فريداً، ومن أرهب ما عرف هذا العالم من علماء. لقد أراد أن يعلّمني زمر وتصنيفات أرسطو، فإذا به على وشك أن يضمّني إلى زمر وتصنيفات "غلمانه": لكنني نجوت بجلدي. وكان أن شاهدتُ مسيرات دينية، وحفلات زار، وبعض أعمال النهب. وكانوا يتناقلون، دون وجه حق، بأن السنيورة أولمبيا، تلك الشخصية الفائقة التكتّم، تبيع أشياء كثيرة مما لا يجوز بيعه. على أنني كنت في مرحلة من العمر يبدو لي فيها كل هذا مسلياً للغاية. وها هي سيدة رقيقة الحواشي، اسمها السنيورة فاتلو، تقرّر بعزم وتصميم أن تعشقني. لكن كان يتنافس في التودّد إليها كلٌّ من الأب المبجّل بوانيارديني، والأب المبجّل أكونيتي، وهما راهبان نذرا نفسيهما لأخوية لم يعد لها وجود: فكان أن حولّت عاشقتي تنافسهما إلى اتفاق عندما أغدقت عليّ ألطافها الكريمة؛ لكني أصبحت في الوقت

ذاته بين خطرَيْ التفكير والتسميم. فرحلتُ هارباً من بناء القديس بطرس ونفسي يغمرها سرورٌ كبير.

هنالك سافرتُ إلى فرنسا، وذلك إبّان حكم لويس العادل. فكان أول ما سألوني عنه، إن كنت أريد على غدائي قطعة صغيرة من المارشال دانكر، الذي كان الشعب قد حمّر لحمه، وكانوا يوزعونه بسعر رخيص لكل من يريد.

وكانت تلك الدولة باستمرار فريسة للحروب الأهلية، أحياناً من أجل منصب في المجلس الاستشاري، وأحياناً من أجل صفحتين من المناظرات والجدال في أمور الدين. وقد مضى على تلك النار ما يزيد على ستين عاماً بين خمود واشتعال بكل عنف، ملحقةً الأذى والآلام بتلك المناخات الجميلة. فتلك من بعض حريات الكنيسة الفرنسية الغاليكانية. وقلت لنفسي: "يا حسرة! هذا الشعب وُلد لطيفاً رغم كل شيء: فمن الذي استطاع تغيير طباعه اللطيفة؟ إنه شعبٌ مزاّح، وفي الوقت نفسه يقوم بمجازر. ألا ما أسعد الأوقات التي قد ينصرف فيها إلى المزاح ولا شيء سواه!".

وأوغلتُ حتى إنكلترا: حيث رأيت المشاحنات نفسها تولّد الهيجانات نفسها. كان نفرٌ من الكاثوليك المقدّسين قد قرّروا، لما فيه خير وصلاح الكنيسة، استخدام البارود لنسف الملك، والعائلة الملكية، والبرلمان عن بكرة أبيه، بغية تخليص إنكلترا من أولئك الهراطقة. كما دلّوني على الساحة التي أمرت فيها الملكة ماري السعيدة الطالع، ابنة هنري الثامن، بإحراق خمسمائة من رعاياها. وأكّد لي أحد القساوسة جازماً أنه عمل لا غبار عليه: أولاً، لأن الذين أحرقوا كانوا من الإنكليز؛ ثانياً، لأنهم لم يكونوا يتناولون أبداً السر المقدّس، ناهيك عن أنهم لم يكن لديهم إيمان بمعجزة القديسة باتريس. ثم أضاف القسّ ذاته معبّراً عن استغرابه لأن الملكة ماري لم تكرَّس من القديسات؛ على أنه كان يرجو أن يتم ذلك دون تأخير، متى تيسّر لابن أخيها الكردينال قليلٌ من وقت الفراغ.

ومضيتُ قُدماً إلى هولندا، حيث كنت أرجو العثور على طمأنينة أكبر عند شعوب أكثر هدوءاً وخمولاً. لكنهم كانوا آنذاك يقطعون رأس شيخ مبجّل عندما وصلت إلى لاهاي. إنه الرأس الأصلع لرئيس الوزراء برنفلت، الذي كان من خيرة أبناء الجمهورية. وإذ شعرتُ نحوه بالعطف، استفهمت عن جريمته، وسألت إذا ما كان قد خان الدولة؛ فأجابني مبشّر بروتستانتي يرتدي جلبابه الأسود: "بل فعل ما هو أدهى بكثير؛ إنه من

الذين يعتقدون بأن خلاص الإنسان ممكن عن طريق أعمال الخير وعن طريق الإيمان على حدّ سواء. وتعلم طبعاً مدى خطورة انتشار مثل هذه الآراء على بقاء الجمهورية، وأنه لابدّ من قوانين صارمة لبتر مثل هذه الفظاعات الفاضحة". وقال لي سياسيّ من أهل البلاد وهو يتنهد: "يا حسرة؛ يا حضرة، زمان السرور لا يدوم، وهذا الشعب لا يتأجج حماسه إلاّ بمحض المصادفة؛ إنه في صميم طباعه ميّالٌ إلى تلك العقيدة المقيتة القائلة بالتسامح الديني، وسوف يحققّها لا محال ذات يوم: ألا إنّ هذا لتقشعر منه الأبدان".

أما فيما يتعلّق بي، وبانتظار حلول الزمن المشؤوم للاعتدال والتسامح، فقد سارعتُ إلى مغادرة تلك البلاد التي لم تكن القسوةُ فيها ملطّفة بأية تسلية. وكان أن ركبتُ البحر باتجاه إسبانيا.

كان مقرّ البلاط في إشبيلية، والسفن الكبيرة في إياب، وكل الأمور تنمّ عن البحبوحة والفرح في أجمل فصل من فصول السنة. فرأيتُ في أقصى ممرّ تكتنفه أشجار البرتقال والليمون الحامض ما يشبه منصّةً هائلة محاطة بدرجات ومغطاة بالأقمشة النفيسة. كان الملك والملكة وأبناؤهما من البنين والبنات يجلسون هناك يظلّلهم سرادق في منتهى الفخامة والأبّهة. كما كان يرتفع مقابل تلك العائلة المبجّلة، في موقع أعلى وأرفع، عرشٌ ثانٍ. فقلت لأحد رفاقي في السفر: "لا أعلم لمن يكون العرش الثاني، اللهمّ إلاّ إن كان مخصّصاً لربّ العالمين". لقد سمع إسباني متجهّمٌ وقورٌ هذه الكلمات المتهوّرة، وكلّفني قولها غالياً. علماً بأنه خيّل إلي أني أرى حفلة باذخة أو مصارعة ثيران، حين استقرّ على ذلك العرش الثاني كبير محاكم التفتيش، ومن عليائه تكرّم فقدّس وبارك الملك والشعب.

ومن ثمّ أقبل حشدٌ من الرهبان راحوا يتقدّمون في رتلٍ ثنائي، بألوان بيضاء، وسوداء، ورمادية، منهم خالع نعليه، ومنهم الملتحي وحليق اللحية، ومنهم من اعتمر قنلسوة مدبّبة ومن هو دون قلنسوة مدبّبة. ومن خلف الجميع كان الجلاد يتقدم. ثم شاهدنا بين الشُرَط وكبار الدولة زهاء أربعين شخصاً غطّوهم بأكياس رسموا عليها صور شياطين وألسنة لهب. كان أولئك الأربعون من اليهود الذين رفضوا رفضاً قاطعاً الرجوع عن الإيمان بموسى، مثلما كان بينهم مسيحيون تزوّجوا من إشبيناتهم، أو رفضوا عبادة نوتر- دام أتوشا، أو رفضوا التنازل عن أموالهم النقدية لصالح رهبنة القديس جيروم. وارتفعتْ الأصوات تنشد بورع صلوات جميلة، ومن بعدها جرى إحراق المذنبين

على نار هادئة؛ وقد تبدّى جليّاً أن العائلة المالكة استفادت أبلغ العبر من ذلك المشهد.

في المسـاء، وبينما كنت أهمّ بأن أندسّ في فـراشي، وصل إلى غـرفـتي رجلان من طرف محاكم التفتيش وبرفقتهما جماعة الأمن المقدّسون: فعانقوني عناق الأحباب، واقتادوني معهم دون أية كلمة إلى حبس مظلم شديد الرطوبة، وأما مفروشاته فحصير وصليب جميل. مكثتُ في حبسي ستة أسابيع، أرسل الأب المفتش صاحب الغبطة يطلبني بعد انقضائها ويرجوني التكرّم بالحضور للتحدّث معه: وقد احتضنني لبرهة بين ذراعيه بمودة أبوية خالصة؛ وقال لي إنه استاء بصدق عندما علم بأمر الإقامة السيئة التي خُصصتُ بها؛ لكنه اعتذر بأن جميع شقق الدار كانت مملوءة، وأنه يأمل أن يكون مقامي في المرّات القادمة أيسر حالاً. ومن بعد هذا سألني بمودّة إن كنت لا أعلم لماذا أنا بين يديه. فقلت للأب المبجّل بأن ذلك، على ما هو مؤكّد، لا بدّ أن يكون بسبب آثامي. "حسناً، يا بني العزيز، فلأيّ إثم على وجه التحديد؟ هيّا حدّثني بثقة". وعبثاً أعملتُ خيالي، فلم أخمّن السبب، فكان أن أخذ بيدي بترفّق وإحسانٍ ووضعني على طريق الذكرى.

وأخيراً، تذكّرت كلماتي التي أفلتت مني دون رويّة. وقد حكموا بإخلاء سبيلي لانضباطي ومسالمتي، ومقابل ثلاثين ألف ريال. ثم أخذوني لأقدّم الولاء والاحترام لكبير المفتشين: وكان رجلاً مهذّباً، إذ استفسر مني عن رأيي باحتفاله الصغير. فقلتُ له إنه كان احتفالاً لذيذاً، وأسرعت أستعجل رفاقي للسفر بعيداً عن تلك البلاد، مهما بلغ جمالها من الفتنة والسحر. أما رفاقي فقد تيسّر لهم الوقت، أثناء حبسي، لتجميع المعلومات عن المآثر العظيمة التي قام بها الإسبان في سبيل الدين. وتمكّنوا من الاطّلاع على مذكّرات قسيس شيابا الشهير، والتي يُستشف منها أنهم ذبحوا، أو أحرقوا، أو أغرقوا عشرة ملايين من الكفار في أمريكا بغية إرشادهم إلى تعاليم الدين القويم. وتراءى لي أن ذلك القسيس ربما كان يبالغ في روايته، لكن، حتى لو اختصرنا الأضاحي إلى خمسة ملايين من الضحايا، تظل تلك المأثرة عملاً يستحق الإعجاب.

كانت رغبة السفر الملحّة لا تزال تفعل فعلها. فقلتُ: أنهي طوافي في أوروبا بالتعريج على تركيا. وهذا ما كان، وإليها شددنا الرحال. وكنتُ قد عاهدتُ نفسي ألاّ أصرّح برأيي حول ما أراه من احتفالات. وقلتُ لأصحابي: "هؤلاء الأتراك ملحدون ولم

يتعمّدوا، فلا بدّ بالتالي أن يكونوا أشد قسوة من الآباء المبجّلين جماعة محاكم التفتيش. فلنلتزم بالصمت ونحن في ديار أتباع محمد".

ذهبتُ إذن إلى بلادهم. ولشدّ ما أدهشني أن أرى في تركيا كنائس مسيحية أكثر مما في كاندي، مسقط رأسي. بل رأيتُ حشوداً غفيرة من الرهبان يصلّون للبتول مريم بكل حرية، ويهاجمون الرسول، فمنهم من يهاجم باليونانية، ومنهم باللاتينية، وقسمٌ ثالث بالأرمينية. فهتفتُ إعجاباً: "ألا ما أطيب هؤلاء الأتراك!" وكان المسيحيون الروم والمسيحيون اللاتين على عداوة مستحكمة في القسطنطينية. حتى إن أولئك العبيد يضطهد بعضهم بعضاً مثلما تعضّ الكلاب بعضها في الشارع إلى أن يوجّه إليها أصحابها ضربات العصيّ لتفريقها. كان الوزير الأول يبسط حمايته آنذاك على الروم. وقد اتهمني بطريرك الروم بأني تناولتُ العشاء مع بطريرك اللاتين. فحُكم عليّ، على رؤوس الروم الأشهاد بمائة ضربة عصا على أخمص القدمين. أو بدفع خمسمائة قطعة نقدية. في اليوم التالي، جرى خنقُ الوزير الأول. وبعد ذلك بيوم واحد خلفه وزيرٌ جديد، كان من حزب اللاتين، ولم يخنقوه إلا بعد شهر. وكان أن حُكم عليّ بالغرامة نفسها، لأني تناولت العشاء مع بطريرك الروم. فغمرتني الكآبة، وعاهدتُ نفسي مضطراً على ألا أتردّد لا على الكنيسة الرومية ولا على الكنيسة اللاتينية. وكي أرفّه عن نفسي وأسلو ما وقع معي، تزوجتُ زواج متعة من شركسيّة باهرة الجمال، من أرقّ وألطف مايمكن حين المنادمة مثلما هي من أشدّ النساء ورعاً في المسجد. وذات ليلة، بينما كانت في ذروة النشوة، هتفتْ وهي تعانقني: "لا هيلا ها إلاّ لاه". كانت تلك شهادة الإيمان لدى الأتراك. لكني، من جانبي، تخيّلتُ أنها التعبير عن النشوة في الحب، فهتفت معها مماشياً رقتها وعذوبتها: "لا هيلاها إلاّ لاه!" فقالت لي: "آه! تبارك الله الرحمن الرحيم! لقد أصبحتَ تركياً!" فقلتُ لها إنّي أشكر الله على ما أنعم عليّ من قوّة لأؤمن، وظننتُ أني فزتُ بالسعادة والنعيم، غير أن الإمام حضر صباحاً كي يشرف على ختاني؛ وعندما أبديت بعض المقاومة، اقترح لي قاضي الحيّ، وهو رجل مستقيم ونزيه، أن أوضع على الخازوق: ولكني أنقذتُ قلفتي ومؤخرتي بدفع ألف قطعة نقدية، وأسرعتُ هارباً باتجاه بلاد الفرس، وقد عقدتُ العزم الأكيد على ألاّ أسمع قدّاس الروم ولا قدّاس اللاتين في تركيا، لا ولا أن أهتف: "لا إله إلاّ الله" في لقاء غرامي.

فور وصولي إلى أصفهان سألوني إذا ما كنت من أنصار الخروف الأسود أو الخروف الأبيض. فأجبتُ أن الأمر سيّان لديّ، شرط أن يكون غضّ اللحم. لا بدّ من الإشارة هنا إلى أن الفرس كانوا منقسمين حتى ذلك الحين بين حزبَي الخروف الأسود والخروف الأبيض. فظنوا أني أتهكّم على الحزبين، وها أنا من جديد، وقضية جديدة ينوء بها ظهري عند أبواب المدينة: وقد كلّفني هذا أيضاً مبلغاً كبيراً من المال للتخلّص من الخروفين.

فتغلغلت حتى بلاد الصين وبرفقتي مترجم أكّد لي أنها البلاد التي يعيش فيها الإنسان بحريّة ومرح. كان التتار قد ملكوا ناصية الأمور فيها بعد أن أغرقوها بالنار والدم؛ وكان الآباء اليسوعيّون المبجّلون من طرف، والآباء الدومينيكان المبجّلون من طرف آخر، يقولون إنهم يهدون النفوس إلى الله، لكنّ أحداً لم يأخذ علماً بذلك. وكانوا يتبادلون الاضطهاد طوراً بعد طور. ويدبجون إلى روما مجلّدات من التشهير والتشنيع؛ واصمين بعضهم بعضاً بالكفرة والمارقين كلّما اختصموا على تنصير شخصٍ واحد لا غير. ونشب بينهم على وجه الخصوص نزاع رهيب حول كيفية تقديم الاحترام. فكان اليسوعيون يريدون أن يسلّم الصينيّون على آبائهم وأمهاتهم بالطريقة الصينيّة المحليّة، وأما الدومينيكان فيطالبونهم بتأدية السلام على طريقة روما. وشاءت الأقدار أن اليسوعين ظنّوني من الدومينيكان. فجعلوني أمام جلالة الملك التتاري جاسوساً للبابا. كلّف المجلس الأعلى مستشاراً، أصدر أوامره إلى ضابط شرطة، ترأس أربعة حرّاس، لتوقيفي وشدّ وثاقي على ملإٍ من الناس. واقتادوني لأمْثلَ، من بعد مائة وأربعين سجدة، أمام جلالته. سألني إن كنت جاسوساً للبابا، وإن كان صحيحاً ما يقال من أن ذلك الأمير سوف يأتي بنفسه لإنزاله عن العرش. فأجبته بأن البابا رجل دين يبلغ السبعين من عمره، وأنه يقيم على مسافة أربعة آلاف ميل من جلالته المقدسة، التتارية- الصينية. وأن لديه زهاء ألفين من "الجنود"، سلاحهم من حوله "المظلات"؛ وأنه لا يعزل أحداً عن عرشه، وأن جلالته يستطيع أن ينام قرير العين. وكانت تلك أقلّ المغامرات شؤماً مّما عرفته في حياتي، إذ أرسلوني إلى ماكاو، ومن هناك ركبتُ البحر إلى أوروبا.

وأثناء الطريق احتاج المركب الذي صعدتُ على متنه إلى بعض الإصلاحات عند

شاطئ غولوكوند. فاغتنمت هذا الوقت للذهاب والاطّلاع على بلاط أورونزيب العظيم، الذي كانوا يتناقلون عنه الأعاجيب في العالم: وكان آنذاك في دلهي. وسرّى عنّي أني رأيته يوم الاحتفال المهيب الذي تسلّم أثناءه الهدية المباركة التي كان قد أرسلها إليه شريف مكة. وكانت الهدية المكنسة التي كنسوا بها بيت الله المقدس. فتلك المكنسة رمزٌ إلى ما يكنس جميع قذارات النفس. لم يكن يبدو على أورونزيب أنه بحاجة إليها، لأنه من أكثر الناس ورعاً في جميع أرجاء الهند. نعم، كان قد ذبح أحد أشقائه، كما سمّم والده. وقضى عشرون من القادة، ومثلهم من الأمراء، نحبهم تحت التعذيب؛ لكن هذا لم يكن ذا بال على الإطلاق، إذ لم يكن من حديث للناس إلا عن تقواه. ولم يكن يوجد من شبيه يمكن أن يضاهيه إلاّ جلالة المقدّس، الإمبراطور الأعظم لمراكش، مولاي إسماعيل، الذي كان يحزّ بعض الرؤوس كل يوم جمعة من بعد الصلاة.

ولم أنبس بكلمة، فقد أحسن الترحال تأديبي، وشعرتُ أنه ليس من اختصاصي البتّ في أيّ العاهلَيْن العظيمين أفضل. لكن أحد الفرنسيين، وكنت أسكن معه، قد أخلّ -أعترف بذلك- بالاحترام الواجب حيال إمبراطور الهند وإمبراطور مراكش. واسترسل يقول دون تحفظ بأن في أوروبا ملوكاً يحسنون الحكم في دولهم، ويترددّون حتى على الكنائس، دون أن يقتلوا مع هذا آباءهم وأشقاءهم، ودون أن يحزّوا أعناق رعاياهم. لقد ترجم مترجمنا إلى الهندوسية الحديث الإلحادي لصديقي الشاب. وإذ عركني الماضي بتجاربه، فقد شددت على عجل رحال جمالي، وأسرعنا منطلقين، أنا والفرنسي معاً. وعلمتُ فيما بعد بأن ضباط أورونزيب، الذين حضروا في الليلة نفسها للإمساك بنا، لم يجدوا إلاّ المترجم. فنُفّذ فيه حكم الإعدام في الساحة العامة، وأقرّ جميع أعضاء الحاشية الملكية دون تملّقٍ أو نفاق بأن موته كان عادلاً.

ولم يعُدْ ينقصني إلا رؤية أفريقيا، لاستكمال استمتاعي بجميع ما في عالمنا من ألطاف. وقد تحقق لي هذا بالفعل. إذ استولى على مركبنا قراصنة من الزنوج. فرفع قبطاننا احتجاجاته عالية، وسألهم لماذا يخرقون على هذه الصورة شرائع الأمم. وكان جواب القبطان الزنجي: "أنوفكم طويلة، بينما أنوفنا مفلطحة؛ وشعركم مسبل، بينما شعرنا مجعّد؛ وجلودكم بلون الرماد، بينما جلودنا بلون الأبنوس. إذن، يجب علينا، التزاماً بالقوانين المقدسة للطبيعة، أن نكون أعداء دائماً. أنتم تشترونا في معارض

شاطئ غنيا كما تشترون الدواب، لنعمل لديكم بالسخرة فيما لا أعلم من الأعمال المضنية والسخيفة على حدٍّ سواء. وتجعلوننا ننبش تحت ضربات طنب الثور في الجبال لنستخرج منها ما يشبه التراب الأصفر الذي لا يصلح في حدّ ذاته لشيء، والذي لايساوي تقريباً بصلة من بصل مصر؛ بالمقابل، فإننا إذا ما التقينا بكم وكنا الأقوى، نجعلكم من العبيد، ونجعلكم تفلحون حقولنا، أو نجدع لكم أنوفكم ونصلم آذانكم".

لم يكن بالإمكان الردّ على مثل هذا الخطاب العاقل الرزين. فمضيتُ أفلح حقل زنجية عجوز، حفاظاً على أنفي وأذنيّ. ثم دفعوا ثمناً لافتدائي بعد انقضاء ما يقرب من عام. وكنتُ قد استوفيتُ رؤية كل ما على الأرض من جمال وخير وروعة: فقرّرت ألاّ أرى بعد ذلك سوى بيتي. وتزوّجت هناك: ونبتت لي قرون، ورأيتُ بأنها الحياة التي ما من حياة أخرى تماثلها هناءً ووداعة.

مغامرة هندية
(ترجمة الجاهل)

أثناء إقامته في الهند، تعلّم فيثاغورث، كما يعلم الجميع، على أيدي المتقشّفين العراة، لغة الحيوان والنبات. وبينما كان يتجوّل ذات يوم في البريّة قرب شاطئ البحر، سمع هذه الكلمات: "ما أتعسني حين وُلدتُ عشباً! فما إن يصل طولي إلى بوصتين حتى يتولاّني وحش مفترس، حيوان رهيب يدوسني بأقدامه العريضة؛ أما فمه المتطاول فمسلّح بمناجل قاطعة يجتثني بها، ويمزقني، ويلتهمني. يسمّي بنو البشر ذلك الوحش: خروفاً. وما أظنّ في العالم قاطبة ما هو أبغض من هذا المخلوق".

وتقدّم فيثاغورث خطوات قليلة، فوجد محارة تتثاءب على صخرة صغيرة. لم يكن قد اعتنق، بعدُ، ذلك المبدأ الرائع الذي يحرّم أكل المخلوقات المشابهة لنا. فعندما همّ بابتلاع المحارة نطقت بهذه الكلمات المستعطفة: "إيه أيتها الطبيعة! ما أسعد العشب الذي هو، مثلي، من صنع يديك! فإذا ما قطعوه، نبت من جديد، فهو خالد؛ وأمّا نحن، المحار المساكين، فلا تنفعنا الحماية العقيمة للدرعين الاثنين المطبقَيْن على كل محارة؛ لأن الزنادقة يأكلوننا بالعشرات على الغداء، لنصبح في خبر كان إلى غير رجعة. ألا ما أرهب قدر المحار وما أشد همجية بني البشر!".

انتفض فيثاغورث مذعوراً، وشعر بهول الجريمة التي كان على وشك اقترافها؛ فاستسمح المحارة باكياً، وأعادها إلى موضعها على الصخرة.

وبينما استرسل مع أفكاره الحالمة العميقة حول تلك المغامرة وهو في طريق العودة إلى المدينة، رأى عناكب تأكل الذباب، وسنونوات تلتهم العناكب، وبواشق تفترس السنونو. فقال: "هؤلاء جميعاً ليسوا من الفلاسفة!".

ولدى دخوله إلى المدينة، فوجئ بجمهور من الرعاع، رجالاً ونساء، صدموه،

ورضّوه، وقلبوه أرضاً، وهم يركضون صارخين: "قُضي الأمر، قُضي الأمر! هم فعلاً يستحقون هذا!" قال فيثاغورث وهو ينهض: "- من؟ ماذا؟" لكن الناس استمروا يركضون وهم يقولون: "آه، ما أسعدنا، إذ رأيناهم قيْد الطبخ!".

خُيّل لفيثاغورث أنهم يتحدثون عن العدس أو عن بعض الخضار الأخرى، لكن الأمر كان على خلاف ذلك تماماً، وإنما كانوا يريدون طبخ هنديين بائسين. فقال فيثاغورث: "آه، لا بدّ أنهما فيلسوفان كبيران تعبا من الحياة؛ وهما في طمأنينة لأنهما سوف يولدان من جديد في جسدٍ مختلف؛ نعم، ومن الممتع تغيير المسكن، رغم أن السكن دائماً ليس على ما يرام ويُشتهى: على أي حال، فلا يجوز مخاصمة الناس بشأن أذواقهم".

وتقدم مع الجمهور حتى الساحة العامة حيث رأى محرقة كبيرة تشتعل فيها النار، وكان مقابل تلك المحرقة مقعد مستطيل من الخشب يسمّونه: محكمة، وقد جلس على المقعد قضاة، وبيدِ كلّ قاضٍ ذيل بقرة، وعلى رأسه طاقيّة تشبه إلى حدّ بعيد الحيوان الذي حمل سيلين، في غابر الزمن، عندما حضر إلى تلك البلاد مع باخوس، بعد عبور البحر الأحمر والمحيط الهندي بالقدم التي لم تبتلّ، وبعد أن أوقف الشمس والقمر، كما تروي بأمانة: المغامرات الأورفية".

كان بين أولئك القضاة رجل نزيه يعرفه فيثاغورث حقّ المعرفة. وشرح حكيم الهند لصاحبه حكيم ساموس موضوع الاحتفال الذي يجري تحضيره كي يتمّ أمام الشعب الهندوسي.

قال له القاضي: "هذان الهنديان لا رغبة لهما في أن يموتا حرقاً؛ لكن زملائي حكما عليهما بتلك العقوبة، الأول لأنه قال إن إكزاكا ليس هو ذات براهما، والثاني لأنه بات يرجّح أنّ بإمكان المرء أن ينال بالفضيلة رضوان الكائن الأسمى، دون أن يمسك عند موته ذيل بقرة؛ وحجّته في ذلك أن الإنسان يمكن أن يكون فاضلاً في كلّ آن، وأنه ليس من السهل دائماً إيجاد بقرة لحظة الموت للإمساك بذيلها. وقد أصاب نساء المدينة الهلع من هذه الآراء الهرطقية، فألحّوا على القضاة إلى أن حكموا بحرق هذين التعسين".

لقد لحظ فيثاغورث وفرة وغزارة أسباب الأسى بدءاً من العشب وانتهاءً بالإنسان.

ولكنه حالفه التوفيق تلك المرّة، ونجح في إيقاظ صوت العقل لدى القضاة، وحتى لدى النساء المغاليات في التقوى: لكنها كانت المرة الوحيدة التي أمكن فيها إيقاظ صوت العقل.

من بعد هذا، توجه حكيم ساموس إلى كروتون ليبشّر هناك بالتسامح الديني؛ غير أن أحد المتعصبين أشعل النار في بيته: وكان أن احترق حيّاً، وهو الذي سبق له إنقاذ هنديين من ألسنة الحريق: فالنجاة، النجاة، يا أهل الخير!

الأبيض والأسود

في مقاطعة قندهار يعرف جميع الناس المغامرة التي عاشها الشاب روستان. كان هذا الشاب الابن الوحيد لميرزا من ميرزوات البلد، وصفة "ميرزا" تعادل لدينا صفة "مركيز"، أو صفة "بارون" لدى الألمان. وكان والده الميرزا من الملاكين المحترمين، وقد تقرّر تزويج ولده من آنسة، أو قل "ميرزية" من طبقته. وكانت رغبة الأسرتين قوية في إتمام هذا الزواج، وكان الرجاء أن يُدخل الشاب السلوان على قلب والديه، وأن يَسعد بعروسه ويُسعدها معه.

غير أن القدر شاء له أن يلتقي بأميرة كشمير في معرض كابول، وهو من أشهر معارض الدنيا، ويؤمّه جمهور غفير، أكبر بكثير من الجمهور الذي يحضر إلى معرض البصرة أو أسطرخان؛ ونفصّل لكم فيما يلي تفسير سبب قدوم أمير كشمير إلى المعرض برفقة ابنته الأميرة.

كان في حقيقة الأمر قد فقد أثمن قطعتين من أنفس الكنوز لديه. القطعة الأولى جوهرة نادرة بحجم إصبع الإبهام، نُقشت عليها صورة ابنته بفنٍّ رفيع، كان الهنود يتّصفون به آنذاك، ثم ضيّعوه فيما بعد؛ أما القطعة الثانية، فكانت رمحاً ينطلق تلقائياً إلى حيث يشاء راميه؛ وهذه أعجوبة لا تثير كبير استغراب لدينا، لكنها كانت موضع الحيرة والاستغراب في كشمير.

وما جرى هو أن أحد الزهّاد، من فقراء العاملين لدى سموّه، سرق منه هاتين الجوهرتين، وقدّمهما إلى الأميرة قائلاً لها: "قَدَرُكِ رهنٌ بهاتين القطعتين، فاحرصي عليهما كل الحرص!" ثم رحل، ولم يره أحد بعد ذلك. أما أمير كشمير، الذي أصابه اليأس والقنوط، فقرّر الحضور إلى معرض كابول، على أمل أن يلتقي هناك بالتاجر الذي ربّما تكون القطعتان المفقودتان قد صارتا في حوزته. وذاك لأن المعرض المذكور يقصده التجّار من جميع أقطار العالم. وكان من عادة الأمير اصطحاب ابنته الأميرة

في جميع رحلاته. فحملت معها الجوهرة بعد إخفائها جيداً في زنّارها؛ وأما بالنسبة للرمح فلم تعرف أين تخفيه جيداً، ولذلك فقد حفظته في كشمير بعناية فائقة داخل صندوقها الكبير المصنوع في الصين.

وكان ما كان، وتمّ لقاء روستان مع الأميرة في كابول: فتحابّا بكل ما في عمرهما الغضّ من اندفاع، وبكل ما في بلديهما من رقة. وقدّمت الأميرة له جوهرتها عربوناً لمحبّتها، فعاهدها روستان يوم الوداع أن يذهب للقائها سراً في كشمير.

كان للميرزا الشاب خادمان أثيران هما مستودع أسراره، وسائساه، وطبّاخاه، ووصيفاه. اسم الأول زبرجد، وهو وسيم، حسن التكوين، في بياض الصبايا الشركسيّات، لطيف المعشر وخدوم كأنه من بعض الأرمن، وهو من الحكمة والتعقّل كأنه من مزدكيّي فارس. أما الثاني فاسمه أبنوس، وهو من السود، في غاية الوسامة ويتفوق على زبرجد لهفةً، وحيلةً، وحسْنَ تدبير، ولا يستصعب أيّ أمرٍ على الإطلاق. وإذا فاتحهما سيّدهما بأمر السفر الذي أزمع القيام به، حاول زبرجد ثنيه عن عزمه بحماس الخادم الحذِر الفطِن الذي لا يريد أن يصدم سيّده، شارحاً كل ما يمكن أن يلاقيه من مخاطر. فماذا عن مغادرة عائلتين سوف يلقي بهما في هاوية القنوط؟ وهل يعقل غرز سكين في قلب والديه؟ وكان أن نجح في بلبلة أفكاره، لكن أبنوس أعاد إليه رباطة جأشه، وخلّصه من جميع هواجسه.

وكان الشاب يفتقر إلى المال الضروري لمثل هذه السفرة الطويلة، فلم يسهّل له زبرجد استقراض ما يلزمه، لكن أبنوس عالج الأمر. فأخذ جوهرة سيّده بكل خفة وتكتّم، وطلب من جوهري تأمين نسخة مزيّفة عنها تشبهها كل الشبه، ثم وضع المزيّفة محلّ الحقيقية، ورهن هذه الأخيرة عند أحد الأرمن مقابل آلاف من الروبيات.

حالما صارت الروبيات بين يدي المركيز، جهّز نفسه للرحيل. فحمّل متاعه على فيل، وصعد كلٌّ منهم على صهوة جواد. وقال زبرجد لسيّده: "سمحتُ لنفسي في البداية أن أوجّه إلى مشروعك بعض الانتقادات؛ لكن رغم كل ما قلتُ، لا بدّ لي من الطاعة، فلبّيك، وأنا أحبّك، ومستعد كي أتبعك إلى آخر الدنيا. لكن، ما رأيك لو استشرنا، في طريقنا، العرّاف الذي يسكن على بعد فرسخين من موضعنا هذا؟" فوافق روستان على الاقتراح. وهذا ما أجاب به العرّاف: "أنت متّجهٌ شرقاً، لكنك تصير إلى

الغرب". ولم يفهم روستان شيئاً من هذه النبوءة؛ فأكّد زبرجد أنها نذير شؤم، أما أبنوس، الذي كان يحب مسايرة سيّده، فأقنعه بأنها بشارة خير.

وكان في كابول عرّافٌ ثانٍ أيضاً، فتوجّهوا إليه. وقد لخّص نبوءته بهذه الكلمات: إذا كنتَ تملك، فلن تملك؛ وإذا كنتَ منتصراً، فلن تنتصر؛ وإذا كنتَ روستان، فلن تكون روستان. وكانت هذه النبوءة أشدّ غموضاً وإبهاماً من سابقتها، فهتف زبرجد بسيده: الحذر ثم الحذر، يا سيدي! لكن أبنوس طمأنه: لا تخشَ شيئاً! ولنا أن نتوقع بأن هذا المستشار المزيِّن لسيّده كل ما يريد من آمال وتطلعات كان الأقرب إلى نفس سيّده.

بعد الخروج من كابول، سارت القافلة في غابة كبيرة؛ ثم جلسوا على العشب لتناول الطعام، تاركين الأحصنة ترعى. وعندما همّوا بإنزال حمولة الطعام وتوابعه عن ظهر الفيل، لاحظ الجميع اختفاء زبرجد وأبنوس. وراحوا ينادونهما، ولكن الغابة رجّعت أصداء النداءات دون جواب. فذهب الخدم يفتشون في جميع الاتجاهات وصراخهم لا يهدأ، لكنهم رجعوا دون أن يروا أحداً، ودون أن يجيبهم أحد. وحكوا لروستان ما شاهدوه: "وجدنا عُقاباً يقتتل مع نسر، فانتزع العُقاب ريش النسر جميعه!" وقد أثارت هذه الحكاية فضول روستان، فتوجّه ماشياً إلى الموضع المذكور، ولم تقع عينه على عُقاب، ولا على نسر، لكنه رأى الفيل والحمولة ما تزال على ظهره، وقد انقضّ عليه وحيدُ قرنٍ ضخم الجثة. فأخذ هذا يضرب بقرنه، بينما راح ذاك يخبط بخرطومه. وقد انسحب وحيد القرن هارباً فور رؤيته لروستان، فأرجعوا الفيل معهم، لكن الأحصنة كانت قد اختفت. هتف روستان متعجباً: "ما أغرب ما يقع مع الإنسان من أمور عندما يسافر في الغابات!" وخيّم الحزن على الخدم، وسيطر اليأسُ على سيّدهم لأنه فقد في الوقت نفسه، أحصنته، وزنجيّه الغالي، وزبرجده الحكيم، الذي استمر يحمل له المودة، رغم أنه لم يكن أبداً يوافقه على آرائه.

وكان العزاء الوحيد له رجاؤه ألاّ يطول به الوقت كي يجد نفسه عند قدمي أميرة كشمير، وراح هذا العزاء يداعب خياله عندما التقى بحمارٍ وحشيٍّ مخطط، كبير الحجم، أخذ صاحبه الرهيب الفظّ ينهال عليه ضرباً بعصاه دون توقف. ولا يمكنك أن تجد أجمل وأندر وأسرع في الجري من هذه الحمير المخططة. كان حمارنا ذاك يردّ على ضربات النذل وقد تضاعفت برفسات قمينة باقتلاع سنديانة من جذورها. ووقف الميرزا

الشاب، حسبما يقضي الحق، في صفّ الحمار الذي كان ساحر الجمال. وكان أن أشرع الرجل الفظّ ساقيه للريح هارباً وهو يقول للحمار مهدّداً: "سوف نتحاسب! سوف تدفع الثمن غالياً!" وقد شكر الحمار منقذه بلغة الحمير، واقترب من روستان يداعبه ويتقبّل مداعباته. وامتطى روستان ظهره بعد تناول الطعام، ووجّهه على طريق كشمير، وبرفقته خدمه الذين لحقوا به، فمنهم سائرٌ على قدميه، ومنهم من هو على ظهر الفيل.

لكن، فور ركوب الميرزا على ظهر حماره، استدار هذا الأخير متوجّهاً نحو كابول، بدلاً من المضيّ على طريق كشمير. وعبثاً ما حاول سيّده توجيه عنانه، وهزّ اللجام، وشدّ الركبتين، والضغط بالمهمازين، وإرخاء العنان ومن ثمّ شَدّه، والضرب بالسوط يميناً ويساراً، فذلك الحمار المعاند استمرّ في جريه باتجاه كابول.

راح العرق يتصبّب من روستان، بعد أن بذل قصارى جهده، وأصبح في حالٍ من اليأس والقنوط، عندما انبثق على طريقه تاجر جمالٍ قال له: "يا سيدي، حمارك هذا خبيث لعين، يأخذك إلى حيث لا تريد الذهاب؛ فإذا قبلتَ أن تتنازل لي عنه، سوف أعطيك أربعة جمال، ولك أن تختارها!" فشكر روستان العناية الربّانية التي يسّرت له هذه المبادلة الموفّقة. وقال لنفسه: "لقد أخطأ زبرجد خطأ كبيراً عندما قال لي إن رحلتي لن تكون موفقة". وامتطى ظهر أفضل جملٍ، بينما سارت الجمال الثلاثة خلفه، وعاد ليلتحق بقافلته، وها هو من جديد على طريق سعادته.

من بعد مسيرة أربعة فراسخ أو أقلّ، توقف الركبُ أمام سيلٍ عميق الغور، عريض المجرى، هدّار المياه، وقد جرف في طريقه صخوراً ابيضّت من الزبد المتراكم عليها. وكانت حافّتا السيل هاويتين رهيبتين، يبيضّ النظر لمرآهما هلعاً، وتتجمد الشجاعة حيالهما؛ ولم يكن من سبيل للعبور، ولا للذهاب يمنةً أو يسرةً.

فقال روستان: "أخشى أن يكون زبرجد محقّاً عندما نهاني عن هذه السفرة، وأخشى أني أخطأتُ خطأ كبيراً لقيامي بها: ليته إلى جانبي الآن، إذن لقدّم إليّ آراءه السديدة. وليت أبنوس معي، إذن لواساني، ودلّني على بعض الحيل للتخلّص مما أنا فيه؛ لكن وا أسفاه، ضاع مني كل شيء!" وزاده اضطراباً ما كان عليه خدمه من حزنٍ ويأس: فكان الليل حالك الظلام، أمضوه وهم يندبون سوء حظّهم. على أن الإرهاق والإحباط نوّما أخيراً مسافرنا الولهان. واستيقظ مع شروق الشمس، ليشاهد جسراً رخامياً جميلاً قد امتدّ من فوق هاوية السيل واصلاً بين الحافّتين.

فتعالت أصوات الإعجاب، وصرخات الدهشة والفرح: "هل هذا ممكن؟ هل نحن نحلم؟ يا للمعجزة الباهرة! يا للسحر العجيب! تُرانا نتجاسر على العبور؟" وركع الجميع خشوعاً، وعادوا ينهضون، وها هم يقتربون من الجسر، ويلثمون تراب الأرض، ثم يتطلعون إلى السماء وقد بسطوا أيديهم، ويضعون على الجسر أقدامهم المرتجفة، فيمضون قليلاً، ثم يرجعون وهم في حالٍ من النشوة القصوى. وراح روستان يقول: "هذه المرّة، السماء إلى جانبي، وزبرجد ما كان يعلم ما يقول؛ لقد كانت النبوءتان في صالحي: نعم، وكان أبنوس على حقّ. لكن، لماذا لا أراه هنا معي؟".

وفور اجتياز الجماعة من فوق جرف السيل والعبور إلى الطرف الثاني، تهاوى الجسر في الماء محدثاً ضجّة مروّعة. فهتف روستان: "هكذا أفضل! هكذا أفضل! الحمد لله! تباركت السماء! فهي لا تريدني أن أعود إلى بلدي حيث لن أكون إلا أحد النبلاء. السماء تريدني أن أتزوج كما أحبّ وأن أصبح أمير كشمير؛ وهذا معناه أنني عندما "أملك" محبوبتي، فلن "أملك" لقب الميرزا في قندهار، و"سوف أكون روستان" لكن "دون أن أكون روستان" لأنني سوف أصبح كبير الأمراء: ألا فهذا تفسير القسم الأكبر من النبوءة، وهو بكل وضوح لصالحي، وباقي النبوءة سيكون أيضاً لما فيه الخير لي: آه، ما أشدّ سعادتي! لكن، لماذا لا أرى أبنوس إلى جانبي؟ أنا نادم ألف مرّة على فراقه أكثر من ندمي على فراق زبرجد".

وتقدّم بضعة فراسخ أخرى بكل ارتياحٍ وسرور، لكن، مع نهاية النهار، اعترضهم سورٌ من الجبال الشاهقة، أعلى من برج بابل لو كانوا أكملوا بناءه، وأشد انحداراً من هاوية تحت جرف، فدبّ الخوف في نفوس أفراد القافلة جميعاً.

وتعالت أصوات الجميع وهم يندبون: "الله يريدنا أن نهلك هنا، فلم يحطّم الجسر إلا كي يقطع علينا كلّ أملٍ بالعودة، ولم يرفع أمامنا هذه الجبال إلا كي يمنعنا من التقدم. آه، يا روستان! أيها المركيز التعس! لن نرى كشمير أبداً، ولن نعود أبداً إلى أرض قندهار".

أمّا روستان فحلّ في نفسه ألم ممضّ موجع، وإحباطٌ ما بعده من إحباط، محلّ الفرح الطاغي الذي سبق أن شعر به، ومحلّ الآمال العريضة التي كانت قد أسكرته بحلاوتها. فأصبح آنذاك أبعد ما يكون عن تفسير النبوءتين لصالحه. "آه، يا سماء! آه، يا ربّ الأرباب! لماذا ضاع منّي صديقي زبرجد!".

وبينما كان ينطق بهذه الكلمات، مطلقاً تنهّدات عميقة، وذارفاً الدموع وسط أتباعه الذين استسلموا لليأس، راحت قاعدة الجبل تنفتح، فإذا في أسفله دهليز مقنطر السقف، فضاء بمائة ألف مشعل، فنظروا إليه مبهوتين؛ وها هو روستان يهتف طرباً، وها هم رجاله وقد جثا كلٌّ منهم على ركبتيه، ليقع من ثمّ منقلباً على ظهره وقد أغشي عليه. وقالوا: "روستان هو حبيب فيتسنو، وحبيب براهما؛ وهو من سيكون سيّد العالم قاطبةً". وقد صدّق روستان ما قالوه، إذ فقد كل سيطرة على نفسه، وشعر بأنه يطير في الفضاء. "آه، يا أبنوس! يا عزيزي أبنوس! أين أنت؟ ليتك تكون حاضراً لتشهد كل هذه الأعاجيب! كيف ضيّعْتُكَ؟ يا أميرة كشمير الحلوة، متى أشبع ناظري من تأمّل مفاتنك؟".

وتقدّم بصحبة خدمه، وفيله، وجماله تحت قنطرة الجبل، وعندما اجتازها وجد نفسه في مرجٍ مرصّعٍ بالزهور، ومطرّز بالسواقي؛ أما في طرف المرج، فكانت ممرّات مشجّرة، منشورة على مدّ النظر؛ وكان في نهاية تلك الممرات نهرٌ، تنتشر على مجراه آلاف الدور، بحدائقها وبساتينها اللذيذة الشهيّة. فلم يسمع سوى الألحان والأغاني؛ وشاهد حلقات الرقص، فأسرع بعبور أحد الجسور من فوق النهر. وسأل أول عابر سبيل ما تكون تلك البلاد الجميلة.

فأجابه عابر السبيل قائلاً: "أنت في مقاطعة كشمير، وكما ترى فالأهالي في بهجة وسرور، لأننا نحتفل بزفاف أميرتنا الجميلة التي سوف يتزوجها النبيل بربابو، كما وعده والدها. أطال الله عليهما عمر السعادة والسرور!" عند سماع هذه الكلمات، وقع روستان مغشياً عليه، فظنّ عابر السبيل أنه مصاب بالصرع، وأمر بحمله إلى منزله، حيث ظلّ لفترة غائباً عن وعيه. وطلبوا له أمهر طبيبين في المقاطعة: فجسّا نبض المريض، الذي كان قد استعاد بعض الوعي وراح يئن دون انقطاع، مقلّباً ناظريه، ومطلقاً من حينٍ لآخر هذه الكلمات بصوت مرتفع: "زبرجد، يا زبرجد، ما كان أصدق ما قلت!".

قال أحد الطبيبين للسيّد الكشميري: "أرى من لهجته أنه شابٌّ من قندهار لم يناسبه إطلاقاً هواء هذه البلاد؛ إذن، يجب إرجاعه إلى بلده؛ وأرى من عينيه أنه أصيب بالجنون؛ اتركه لي، وأنا أتكفّل بإرجاعه إلى موطنه، وبشفائه". لكن الطبيب

الثـاني أكّد أنه لا يشكو من أية علّة، اللهم إلا من الأسى، ولا يلزمه بالتـالي إلا أن يُؤخذ إلى عرس الأميرة، ويُدفع هناك إلى الرقص فيشفى. وبينما احتدم النقاش العميق في هذا المجلس الطبي المصغّر، استعـاد المريض جميع قواه؛ فقـالوا للطبيبين: "مع السلامة"، وبقي روستان في خلوة مع مضيفه.

وهذا ما قال له: "يا سيدي، عفوك لأنني أغمي عليّ أمامك، هذا شيء لا يتناسب مع أصول التهذيب؛ فأتوسّل إليك قبول فيلي هذا عرفاناً بالطيبة التي أبديتها حيالي." وقصّ عليه من ثمّ جميع ما وقع معه من مغامرات، دون أن يطلعه على سبب سفرته. ثم تابع قائلاً: "لكن، بحقّ فيتسنو وبراهما، أخبرني من يكون ذاك السعيد الحظ بريابو، الذي سوف يتزوّج أميرة كشمير، ولماذا اختاره والدها صهراً له، ولماذا قبلت به الأميرة زوجاً؟" أجابه الكشميري: "يا سيدي، الأميرة لم تقبل أبداً بريابو: على العكس، إنها تبكي بكاءً مراً، في الوقت الذي تبتهج المقاطعة كلُّها بهذا الزواج؛ لقد حبست نفسها في برج قصرها؛ وترفض أن ترى شيئاً من جميع مظاهر الابتهاج المعدّة من أجلها". لدى سماعه لتلك الكلمات، شعر روستان بأن الروح رُدّت إليه؛ وعادت النضارة والإشراق إلى وجهه الذي أذبله الألم. فتابع يسأل: "قل لي، أرجوك، لماذا إذن يصرّ أمير كشمير على تزويج ابنته لهذا البريابو الذي لا تريده؟".

أجابه الكشميري: "إليك الحكاية. ربما أنك لا تعلم بأنّ أميرنا المعظّم كان قد ضيّع جوهرة كبيرة الحجم ورمحاً، وهاتان قطعتان غاليتان جداً لديه؟" فقال روستان: "آه، بل أعلم هذا حقّ العلم!" قال المضيف: "اعلم إذن أنّ أميرنا بعد اليأس الذي سيطر عليه لعدم معرفة أي شيء عن هاتين الجوهرتين النادرتين، رغم البحث عنهما طويلاً في جميع أرجاء المعمورة، وعد بتقديم ابنته إلى أوّل من يعيد إليه إحدى الجوهرتين المفقودتين. وكان أن جاء سيّدٌ يقال له بريابو وبحوزته الجوهرة الكريمة، وغداً يتزوج من الأميرة".

حينذاك شحب وجه روستان، وتلعثم لسانه وهو يشكر مضيفه، مستأذناً بالانصراف، وانطلق بأقصى سرعته، ممتطياً جَمَله، متوجّهاً إلى العاصمة التي سوف تجري فيها مراسيم الزفاف. ووصل إلى قصر الأمير؛ وطلب أن يدخل إلى حضرته؛ فأجابوه بأن الأمير مشغول بترتيبات الزفاف. حينذاك قال: "وهذا بالضبط ما أريد أن أحدّثه عنه". واستمرّ يلحّ ويلحّ حتى أدخلوه أمام الأمير. هنالك قال: "مولاي، كلّل الله بالمجد جميع أيامك! إن صهرك غشّاش محتال".

- ماذا! غشاش محتال؟ كيف تتجرأ على هذا القول؟ أهكذا يحدثون أمير كشمير عن الصهر الذي اختاره؟ فتابع روستان:

- نعم، غشاش محتال، وكي أبرهن لسموك على هذا، تفضّل، فهذه جوهرتك المفقودة أعيدها إليك".

وقارن الأمير، وهو في غاية الاستغراب، بين الجوهرتين؛ لكن، نظراً لخبرته القليلة في هذا المجال، لم يستطع أن يقول أيّهما هي الجوهرة الحقيقية. فراح يردّد: "ها بين يدي جوهرتان، وليس عندي سوى بنت واحدة؛ أنا فعلاً في موقف غريب محرج!".

واستقدم بريابو وسأله إن لم يكن قد خدعه. فأقسم بريابو أنه اشترى جوهرته من أرمني؛ أما الآخر فلم يقل من أين جاءته الجوهرة التي معه، لكنه اقترح حلاً مناسباً للإشكال: وذاك أن يسمح له سموّه بمنازلة غريمه على الفور، وقال "لا يكفي صهرك جدارةً أن يقدّم جوهرة، بل يجب أيضاً أن يعطي برهاناً على كفاءته وشجاعته. ألا تستحسن أن يكون زوج الأميرة من يفوز في هذه المبارزة ويقتل غريمه؟".

فأجاب الأمير: "جيد جداً؛ وسوف تكون المبارزة استعراضاً رائعاً في البلاط. هيّا سريعاً كلاكما إلى المبارزة؛ والمنتصر يأخذ أسلحة المهزوم، حسب عاداتنا في كشمير، ويتزوج من ابنتي".

ونزل الخطيبان على الفور إلى باحة القصر، وكان على الدرج غراب وعقعق. فراح الغراب يصرخ: "تبارزا، تبارزا!" ويعترض العقعق صارخاً: "لا تتبارزا! وهذا ما أضحك الأمير، بينما لم ينتبه الغريمان تقريباً إلى كل ذلك: فقد بدأ القتال؛ وأحاطت الحاشية بهما. ولم تقبل الأميرة، حبيسة برجها، الحضور لمشاهدة هذا الاستعراض القتالي؛ إذ لم يكن يخطر ببالها أبداً أن يكون حبيبها في كشمير، وكانت بالمقابل تنفر نفوراً عميقاً من بريابو، فلم تشأ أن تشاهد أي شيء. ومضت المعركة على خير ما يرام؛ وكان نصيب بريابو فيها القتل دون تأخير، وهذا ما هلّل له الجمهور، لأن بريابو كان قبيحاً بينما روستان شديد الجمال: وهذا هو الأمر الذي يلعب أغلب الأحيان بعواطف الجمهور.

ولبس الغالب القميص المسرود للمغلوب، ووشاحه، وخوذته، وحضر يتبعه جميع رجالات القصر، على نفخ الأبواق الصادحة، ليقدّم نفسه تحت نافذة حبيبته. وراح الجميع يهتفون: "يا أميرتنا الجميلة، تعالي وانظري زوجك الجميل الذي قتل غريمه

القبيح". وردّدت نساء الأميرة هذه النداءات أيضاً. فمدّت الأميرة رأسها من النافذة، وحالما رأت دروع الرجل الذي كانت لا تطيقه، أسرعت إلى صندوقها الصيني وقد هيمن عليها اليأس، فأخرجت الرمح القاتل الذي انطلق من تلقاء نفسه ليخترق صدر حبيبها روستان في نقطة ضعف الدرع. فأطلق صرخة، تعرّفت الأميرة فيها على صوت محبوبها التعس.

وها هي تنزل محلولة الشعر، والموت يطلّ من عينيها ويغمر قلبها حزناً وأسى. كان روستان قد تهاوى بين ذراعي والدها. ورأته: آه، يا لتلك اللحظة! آه، يا لذلك المنظر! آه، يا لذلك اللقاء الذي لا يمكن تصوير ما فيه من ألم، أو حنان، أو رعب! فارتمت عليه تعانقه قائلة له: "ها هي أولى وآخر قبلات حبيبتك وقاتلتك". واستلت الرمح من الجرح، وغرزته في قلبها لتموت فوق الحبيب الذي عشقته بكل عواطفها. أما الأب الذي أصابه الهلع، والذهول، حتى أوشك أن يموت مثلها، فحاول عبثاً إعادتها إلى الحياة؛ لكنها كانت قد ماتت، ولم يعد لها من وجود؛ فلعن ذلك الرمح القاتل، وحطمه قطعاً صغيرة، وألقاه بعيداً مع الجوهرتين المشؤومتين؛ وإذ شرعوا بتحضير الجنازة بدلاً من الزفاف، أمر بنقل روستان الملطّخ بالدماء إلى قصره، وكان ما يزال ينبض بالحياة.

فحملوه في سرير. وأوّل من رأى على جانبي ذلك السرير زبرجد وأبنوس. أعادت إليه المفاجأة بعض قوته فهتف بهما: "آه، أيها القاسيان! لماذا تخلّيتما عنّي؟ من يدري، لو كنتما إلى جانبي، فربما ما كانت الأميرة ماتت". فقال زبرجد: "أنا لم أتركك لحظة واحدة". وقال أبنوس: "وأنا كنت دائماً إلى جانبك". فأجابهما روستان:

– آه، ماذا تقولان؟ لماذا تسخران من آخر لحظاتي في هذه الحياة؟

قال زبرجد:

– يمكنك تصديقي. فكما تعلم، لم أحبّذ أبداً هذه السفرة المشؤومة التي تنبّأتُ بعواقبها المخيفة. فأنا النسر الذي قاتل العُقاب ونُتف ريشه؛ وأنا الفيل الذي حملتُ المؤونة وفررتُ بها كي أجبرك على العودة إلى ديارك؛ وأنا الذي ضيّعت أحصنتك؛ وأنا كنتُ الحمار الوحشي المخطط الذي أراد أن يعيدك رغماً عنك إلى أبيك؛ وأنا الذي أجريتُ السيل ومنعتك من العبور؛ وأنا من نصبتُ أمامك الجبل الذي سدّ في وجهك

طريق الشؤم؛ وأنا الطبيب الذي نصحك بالرجوع إلى هواء بلدك الأصلي؛ وأنا العقعق الذي هتف بك ألاّ تبارز".

ثم قال أبنوس:

"- وأنا كنت العُقاب الذي نتف ريش النسر، ووحيد القرن الذي طعن بقرنه الفيل مائة طعنة؛ والنذل الذي راح يضرب حماره المخطط بوحشية؛ وأنا بنيتُ الجسر الذي عبرتَ من فوقه؛ كما حفرتُ السرداب الذي أوصلكم إلى الطرف الثاني من الجبل؛ وأنا الطبيب الذي نصحك بالمشي، والغراب الذي هتف بك مشجّعاً على المبارزة".

قال زبرجد:

- وا أسفاه! تتذكّر النبوءتين: إنك تتجّه شرقاً، لكنك تصير إلى الغرب!

وقال أبنوس:

- نعم، فهنا يوسّدون الميت في قبره ووجهه نحو الغرب. كانت النبوءة واضحة مفهومة، فلماذا لم تفهمها؟ وأما: إذا كنت تملك، فلن تملك، فذاك لأن الجوهرة التي كانت معك، هي الجوهرة المزيفة، دون أن تدري شيئاً عن هذا. ثم أنت المنتصر، وها أنت تموت، فأنت روستان، ولن تكون كذلك: لقد تحقق كل شيء".

وبينما كان يتحدث على هذه الصورة، غطت أربعة أجنحة بيضاء جسد زبرجد، كما غطت أربعة أجنحة سوداء جسد أبنوس. فهتف روستان: "ماذا أرى؟" فأجابه زبرجد وأبنوس بصوت واحد: "أنت ترى ملكيك". آه، قال حينذاك روستان التعس، ما الذي تقولانه؟ ولماذا ملكان اثنان لبشريٍّ مسكين؟ قال زبرجد: هكذا تقضي الشريعة، فلكلّ إنسان ملكان موكلان به، وكان أفلاطون أول من قال هذه الحقيقة، ثم تناقلها من بعده الآخرون؛ وكما ترى فهذه حقيقة ناصعة: فأنا، الذي أكلّمك الآن، أنا ملكك للخير، وكانت مهمتي السهر عليك حتى آخر لحظة في حياتك؛ ولقد أدّيت مهمتي على خير وجه.

فقال روستان المحتضر حينذاك:

- لكن، إذا كانت مهمتك أن تكون في خدمتي، فأنا إذن من طبيعة أسمى بكثير من طبيعتك، ثم كيف تجرؤ على القول إنك ملكي للخير، بعد أن تركتني أنخدع في جميع ما قمت به، وتركتني أموت أنا وحبيبتي بكل بؤس؟

فردّ زبرجد:

- وا أسفاه! هذا قدرك.

فقال المحتضر:

- إذا كان القدر يفعل كل شيء، فما هو الخير في أيّ ملك؟ وأنت يا أبنوس، بأجنحتك السوداء ما أظنك إلا ملكي للشر؟

أجابه أبنوس:

- أنتَ قلت!

- معنى ذلك أنك أنت أيضاً ملك حبيبتي للشرّ؟

- كلا، كان لديها ملكها الخاص، وقد ساندتُه حتى النهاية.

- آه، يا أبنوس اللعين، إذا كنت على هذه الدرجة من الشرّ، فأنت إذن تابع لغير مولى زبرجد؟ وأنتما الاثنان جبلتما من عنصرين مختلفين، أحدهما للخير بطبيعته، والثاني للشر بطبيعته؟

فقال أبنوس:

- ليس الأمر هكذا بالضرورة، وعلى أي حال، فهذه مسألة في غاية الصعوبة.

فنبر المحتضر:

- من غير المعقول أن يخلق كائنٌ يريد الخير ملكاً بهذا الشؤم.

فردّ أبنوس بحدّة:

- معقول أم غير معقول، الأمر كما أقول لك.

قال زبرجد:

- للأسف، يا صديقي المسكين، ألا ترى كيف يثيرك هذا الخبيث حتى هذه اللحظة كي يشعل النار في دمك ويعجّل بساعة موتك؟

فقال له روستان الحزين:

- اسكت، لستُ مسروراً منك أكثر من سروري منه، بل هو على الأقل يعترف بأنه أراد لي الشرّ؛ أما أنت، يا من تدّعي حمايتي، فلم تقدم إليّ أيّ نفع.

فقال له الملك الطيب:

- هذا ما يحزنني كل الحزن.

فقال المحتضر:

- ويحزنني أنا أيضاً؛ ففي هذه المسألة ما لا أفهمه.

قال الملك الطيب المغلوب على أمره:

- وأنا أيضاً لا أفهم.

فقال روستان:

- هذا ما سوف أفهمه بعد لحظة.

وقال زبرجد:

- نعم، هذا ما سوف نفهمه.

حينذاك اختفى كل شيء. ووجد روستان نفسه من جديد في بيت والده، الذي لم يخرج منه أبداً، وفي سريره، حيث كان نائماً لساعة من عمر الزمان.

فقفز مستيقظاً، وجسده يسبح في العرق، وقد أصابه ذهول شديد. وراح يجسّ جسده، وينادي، ويصرخ، ويقرع الجرس. فأسرع زبرجد، وصيف مخدعه، وطاقية النوم على رأسه وهو يتثاءب. فهتف روستان: "هل أنا ميت؟ هل أنا حيّ؟ وأميرة كشمير هل تنجو من الموت؟..." فأجابه زبرجد ببرودة: "كأنّ مولاي يحلم؟".

فرفع روستان رأسه:

- آه! ماذا جرى لأبنوس المتوحش هو وأجنحته الأربعة السوداء؟ إنه هو الذي جعلني أموت تلك الميتة القاسية.

- سيدي، أبنوس تركته فوق، يشخر في سريره؛ هل تريد أن أطلب إليه النزول؟

- ذلك الشقيّ اللعين! ستة شهور وهو يضطهدني؛ فهو من أخذنا إلى معرض كابول المشؤوم؛ وهو الذي سرق مني الجوهرة الحقيقية التي أهدتني إياها الأميرة؛ وهو وحده سبب سفرتي؛ وسبب موت أميرتي وضربة الرمح التي أموت منها الآن في ربيع عمري.

فقال زبرجد:

- اطمئن يا سيدي؛ فأنت لم تذهب أبداً إلى كابول؛ ولا وجود قطعاً لأميرة كشمير؛ فوالدها لم يُرزق إلا بصبيّين هما الآن في المدرسة؛ ولم تحصل أبداً على أية جوهرة؛ ولا يمكن أن تكون الأميرة قد ماتت لأنها أساساً لم تولد، وأما أنت فإنك في خير وعافية.

- ماذا! أليس صحيحاً أنك حضرت وفاتي في سرير أمير كشمير؟ ألم تعترف لي أنك، من أجل حمايتي من المهالك، ظهرتَ في صورة نسر، وفيل، وحمار مخطط، وطبيب، وعقعق؟

- يا سيدي، أنت حلمت بكل هذا: فأفكارنا في الرقاد مثلها في اليقظة لاتخضع لإرادتنا. لقد أراد الله أن يمرّ شريط هذه الأفكار في رأسك، ليقدّم إليك على ما يبدو بعض الإرشاد لما فيه منفعتك.

فقال روستان:

- أنت تسخر منّي، فكم من الوقت استغرق نومي؟

- يا سيدي، لم تمضِ على نومك سوى ساعة.

- حسناً، إذن، يا فاسد العقل، كيف تريدني أن أصدّق بأن ساعة من الزمن كفتني للحضور إلى معرض كابول منذ ستة أشهر، ثم عدتُ من هناك، وقمت بسفرة إلى كشمير، وأننا نحن الثلاثة، ربابو والأميرة وأنا، متنا!

- يا سيدي، هذا من أيسر الأمور، وأكثرها انسجاماً مع المألوف، بل كان يمكنك أن تدور فعلاً حول العالم، والقيام بمغامرات أكثر في وقت أقل من ذلك بكثير.

أفلا تقرأ في ساعة مختصر تاريخ الفرس كما كتبه زرادشت؟ علماً أن هذا المختصر فيه تاريخ ثمانمائة ألف سنة. فجميع تلك الأحداث تتعاقب أمام ناظريك تباعاً خلال ساعة واحدة؛ إذن يجب أن توافقني بأن من أبسط الأمور على براهما أن يضغط الأحداث في مدّة ساعة، تماماً مثلما أنّ من أبسط الأمور عليه أن ينشرها على امتداد ثمانمائة ألف سنة؛ والأمر في الحالين واحد. تصوّر معي أن الزمن يدور على دولاب قُطْره اللانهاية، وأن دواليب لا تحصى، متداخلٌ بعضها ببعض، مركّبة على ذلك الدولاب الهائل؛ فالدولاب المركزي الذي لا يرى لصغره، يدور عدداً لانهائياً من الدورات، في الوقت الذي لا يكون الدولاب الهائل المحيط قد أكمل دورةً واحدة. ومن الواضح أنّ جميع الأحداث، منذ بدء العالم إلى نهايته، يمكن أن تقع على التوالي في أقلّ من جزء من الألف من الثانية؛ بإمكاننا إذن القول إن الأمور هي على هذه الصورة.

فقال روستان:

- أنا لا أستوعب شيئاً مّما تقول.

قال زبرجد:

- إذا أمرتَ، عندي ببغاء سوف يجعلك تفهم بكل سهولة. فقد ولد قبل الطوفان بزمن؛ وكان على سفينة نوح؛ وهو بالتالي قد شاهد الكثير، علماً أن عمره لم يتجاوز بعدُ السنة ونصف السنة. سوف يقصّ عليك قصته، وفيها تشويق كبير.

فقال روستان:

- عجّل إذن بإحضار ببغائك، فهو سوف يسلّيني إلى أن يعاودني النوم.

فقال زبرجد:

- هو عند أختي الراهبة. سوف أذهب لإحضاره، ولن تكون إلا مسروراً. فذاكرته لا تخونه، وهو يكتفي بالقصّ، دون أن يسعى لادّعاء العلم عند كل كلمة ودون أيّ إنشاء مطنطن.

فقال روستان:

- هذا أفضل، إذ هكذا أحب الحكايات.

وأحضروا له الببغاء وهذا ما قاله(*).

---

* ملاحظة : لم تتمكن الآنسة كاترين فادي من العثور على حكاية الببغاء في دفاتر المرحوم ابن عمّها ، أنطوان فادي الذي قام بكتابة هذه الحكاية . وهذه خسارة مؤسفة ، نظراً للزمن الذي عاش فيه ذلك الببغاء .

حلم أفلاطون

كان أفلاطون كثير الأحلام، ولم تتناقص الأحلام من بعده. فمن أحلامه أن الطبيعة الإنسانية كانت في البدايات ثنائية الجنس، وأنها، عقوبةً لها على آثامها، شُطرت إلى ذكر وأنثى.

ومن براهينه أنه لا يمكن وجود سوى خمسة عوالم كاملة، لأنه لا يوجد في الرياضيات سوى خمسة أجسام متناسقة. وأمّا "الجمهورية" فكانت حلمه الأمثل. كما حلم بأن النوم يولد من السهر، والسهر من النوم، وأننا نفقد بالتأكيد بصرنا إذا ما نظرنا إلى الكسوف خارج حوض ماء. وكانت للأحلام في تلك الأزمان الغابرة شهرة كبيرة.

ونورد فيما يلي أحد أحلامه، وليس أقلّها تشويقاً. فقد تراءى له بأن الخالق العظيم ديميورغوس، "المهندس" الخالد الباقي أبد الدهر، بعد أن ملأ الفضاء اللامتناهي بأجرام لا تعدّ ولا تحصى، أرادا اختبار علم الملائكة الذين كانوا واقفين على ما قام به.. فأعطى لكلّ منهم قطعة صغيرة من المادة ليشكّلها، تماماً كما كان يمكن لفيدياس وزدكسيس أن يطلبا من تلامذتهما نحت تماثيل وتصوير لوحات، اللّهم إن كان لنا أن نقارن بين الأمور الصغيرة والجليلة العظيمة الشأن.

كانت حصة ديموغورغون قطعة من الطين يسمّونها "الأرض"، فبعد أن جعلها في الحالة التي هي عليها اليوم أمام أنظارنا، ظنّ أنه قد أبدع آية خالدة. وخيِّل إليه أنه لم يترك زيادة لمستزيد، وراح ينتظر المديح حتى من زملائه؛ وما كان أشدَّ دهشته حين استقبلوه بصيحات الاستنكار.

وانبرى أحدهم، وكان سيّئ الممازحة إلى حدّ كبير، فقال له: "فعلاً، صنعتَ فأبدعت؛ وها قد شطرت عالمك إلى شطرين، ووضعت بين نصفي الكرة حيّزاً مترامياً

من الماء، كي لا يكون أي اتصال بينهما. ويتجلّدون من شدّة البرد في قطبيك، وفي الوقت نفسه يموتون من شدّة الحرّ في خطّك الاستوائي. ثم إنك أقمتّ بقصدٍ وعناية صحارى مترامية من الرمل، يموت العابرون فيها جوعاً وعطشاً. وما أسعدني بخرافك، وأبقارك، ودجاجك؛ لكنني بصراحة لا أشعر بأية سعادة حيال أفاعيك وعناكبك. أما البصل والأرضي شوكي فمن خير الأمور، لكنني لم أفهم وجهة نظرك عندما غطّيتَ وجه الأرض بذلك العدد الكبير من النباتات السامة، اللّهم إلا أن يكون قصدك تسميم سكانها. ورأيتُ أيضاً أنك صنعتَ زهاء ثلاثين صنفاً من القرود، وأكثر من ذلك من صنف الكلاب، بينما لم تصنع سوى أربعة و خمسة أصناف من البشر: نعم، صحيح أنك وهبتَ ذلك الحيوان الأخير ما تطلق عليه اسم "العقل"؛ لكن، بضمير مرتاح، يمكن القول إن ذلك العقل في غاية السخف، ويقترب إلى حدّ بعيد من الجنون. وأرى فوق هذا أنك لم تهتمّ الاهمام الكافي بذلك الحيوان السائر على اثنتين، حيث أنك وضعت أمامه الكثير من الأعداء، والقليل من الحماية؛ والكثير من الأمراض، والقليل من الأدوية؛ والكثير من الأهواء، والقليل من التعقّل والحكمة. فكلّ الظواهر تدلّ على أنك لا تريد بقاء الكثير من تلك المخلوقات على سطح الأرض: لأنك، بغضّ النظر عن الأخطار التي تعرّضها لها، خطّطتَ عن قصد بحيث يحصد الجدري في لحظة من اللحظات، كلّ عام، وبشكل منتظم، عشْر ذلك النوع، بينما رديف الجدري يسمّم أصل حياة التسعة أعشار الباقية؛ ثم رتّبتَ الأمور، كأنك لم تكتفِ بكل هذا، بحيث يقضي نصف الباقين على قيد الحياة وقتهم في المرافعات، بينما النصف الآخر يقتل بعضهم بعضاً. ألا كم هم مدينون لك، وما أعظم تلك التحفة الرائعة التي أبدعتها!".

واحمرّ ديموغورغون خجلاً؛ وبدأ يشعر أنه ترك شراً أخلاقياً وشراً خَلْقياً فيما صنع؛ لكن دفاعه تركّز على أن الخير أكبر من الشر في إبداعه. وقال: "النقد سهل مريح؛ لكن هل من الممكن، في رأيكم، صوغ حيوان يلتزم دائماً بالعقل؛ ويكون حراً ولا يسيء استخدام حريّته أبداً؟ وهل تظنون أن بالإمكان غرس تسعة إلى عشرة آلاف نبتة دون أن يكون بينها نباتات مؤذية؟ وهل تتخيّلون أننا بكمية من الماء والرمل والطين والنار يمكننا تجنّب وجود البحر والصحراء؟ ألا إنك أيها السيد الضحّاك قد فرغت لتوّك من ترتيب كوكب المريخ، فتعال ننظر كيف أحسنت تنظيم شطريك

الكبيرين، وما هو ذلك الأثر الجميل الذي تتركه لياليك المظلمة دون قمر، وسوف نرى إن لم يكن في جماعتك جنون أو مرض".

وبالفعل، عاين الملائكة المرّيخ ودقّقوا في شؤونه، فكالوا للمتهكم نقداً قاسياً جارحاً. ثم جاء دور الملاك الجادّ الذي جبل عجينة زحل فلم ينجُ هو الآخر من الانتقاد: وهكذا كان حال زملائه مبدعي المشتري، وعطارد، والزهرة، فقد نال كلٌّ منهم ما يستحق من اللوم والانتقاد.

وكُتبت مجلّدات ضخمة ونشرات؛ وقيلتْ كلمات طيبة، وأُلّفت أغانٍ، وتبادلوا الاتهام بالسخافة والإسفاف، واحتدم الغضب بين الأطراف المتنازعة؛ حتى ألزمهم، في الختام، الخالد الباقي على الدهور، ديميورغوس، بالصمت والهدوء جميعاً، وقال لهم: "لقد ابتكرتم الجيّد والرديء، لأنكم على درجة كبيرة من الذكاء لكنكم، غير كاملين؛ أما ما ابتكرتم فلن يدوم إلا بضع مئات من ملايين السنين، من بعدها، يمكنكم مع زيادة الاطلاع ابتكار ما هو أفضل: وإنما لي وحدي لا غير صوغ الأشياء الكاملة والخالدة". هذا ما أفاض به أفلاطون وهو يعلّم تلامذته. وحالما انتهى من كلامه، بادره أحدهم: "ثم إنّك استيقظت!!".

حول تجميل مدينة كشمير

أهالي كشمير وديعون، ذوو خفّة، وهم مشغولون بالتفاهات كانشغال الأقوام الآخرين بالقضايا الجدية، وتراهم يعيشون كأطفال لا يعلمون أبداً علّة ما يُطلب منهم القيام به، أطفال يتأفّفون من كل شيء، ويغضّون الطرف عن كل شيء، ويسخرون من كل شيء، وينسون كل شيء.

ولم يكن لديهم أيّ تذوّق فطري للفنون. فقد استمرت مملكة كشمير أكثر من ثلاثة عشر قرناً دون أن يوجد فيها فلاسفة حقيقيون، أو شعراء حقيقيون، أو مهندسو عمارة مقبولون، أو رسّامون، أو نحّاتون. وافتقروا طويلاً إلى المعامل والتجارة، حتى إنّ المركيز الكشميري، طيلة ما ينوف على ألف عام، إذا ما أراد الحصول على ملابس داخلية أو على صديريّ جميل، كان يضطر للّجوء إلى يهودي أو إلى براهماني لتأمين حاجته. وأخيراً، مع بداية القرن الماضي تقريباً، نهض في كشمير رجالٌ بدا كأنهم ليسوا من ذلك الشعب، وكانوا، بعد استقاء علوم الفرس والهنود، قد انطلقوا مع العقل والعبقرية إلى أقصى ما يستطيعون. وقام على رأس أولئك الرجال العظام سلطانٌ شجّعهم، وساعد في تجميل وإغناء المملكة، يسانده في هذا وزيرٌ صالح. لكن الكشميريين استقبلوا جميع أعماله الحسنة بالمزاح، وألّفوا بعض الأغاني في مناهضة السلطان، والوزير، والرجال العظام، الذين كانوا من وراء التنوير.

فصوّحت الفنون مذ ذاك في كشمير. أما النار التي أشعلتها عبقريات ملهمة فغطّاها الرماد. وبدت الطبيعة وكأنها أصيبت بالإنهاك. ولم يعد من مجد للفنون في كشمير إلا في الأيدي والأقدام. فكان منهم أناسٌ يتقنون إتقاناً فائقاً تمرير ساق من فوق أخرى، على صوت الآلات الموسيقية، برشاقة رائعة؛ وبرز آخرون راحوا يبتكرون كل أسبوع طريقة بارعة في ربط الشرائط؛ وكان بينهم في النهاية من تألّق في

الكيمياء، فمن خلاصة لحم الخنزير وما شابه من الإكسيرات يتوصلون في سنوات قليلة إلى تدمير البيت الذي يدخلونه فهو نَهْبُ الأطباء والدائنين. وكان للكشميريين بفضل هذه الفنون الجميلة شرف تموين جميع أرجاء آسيا تقريباً بالأزياء، والراقصين، والطبّاخين.

لكنهم ، مع هذا، كانوا يتكلمون عن إعطاء العاصمة المزيد من الراحة، والنظافة، والصحة، والجمال، لتصبح أبهى مما هي عليه: كانوا يتكلمون لكنهم لا يفعلون أي شيء. وكان ثمّة فيلسوف كبير من هندوستان، من كبار محبّي المنفعة العامة، وممّن يقولون آراءهم بكل محبة، ودون فائدة، متى ما تعلّق الأمر بزيادة سعادة الناس وتحسين حال الفنون. لقد مرّ هذا الفيلسوف في عاصمة كشمير: وكان له مع أحد البستانيين حديث طويل عن الطريقة المناسبة لاستكمال كل ما تفتقر إليه تلك المدينة. وقد عبّر البستاني عن شعوره بالخجل لعدم وجود معبد كبير فخم مثل معبد بكين وآكرا؛ وأقرّ بأن من دواعي البؤس الافتقار إلى الأسواق الضخمة، أي الحوانيت العامّة المؤطّرة بالأعمدة، والتي هي في الوقت نفسه عنصر تزيين ومنفعة. واعترف بأن الصالات المخصّصة للمباريات العامة لا تليق بمدينة من المرتبة الرابعة من الأهمية، وأن بعض البيوت القميئة على بعض الجسور الرائعة الجمال تبعث على الشعور بالاشمئزاز، وأنهم يشتهون، دونما طائل، توافر الساحات العامة، وسُبُل الماء، والتماثيل، وجميع الصروح العمرانية التي تحقّق للأمّة مجدها.

قال الفيلسوف الهندي: "اسمح لي أن أسألك سؤالاً صغيراً: لماذا لا تقدمون لأنفسكم كل ما تفتقرون إليه؟". قال البستاني البسيط:

- أوه! ليس في أيدينا الإمكانيات. فمثل هذا العمل يكلف غالياً جداً.

فقال الفيلسوف:

- بل هذا لا يكلّف أيّ شيء على الإطلاق.

فردّ المواطن:

- سبق أن أفاضوا أمامنا في هذا الطرح الغريب، ولكنها أقوال حكماء، بمعنى أنها أمور رائعة نظرياً، ومضحكة سخيفة عملياً؛ لقد أرهقونا بهذه الخطابات الجميلة.

قال الفيلسوف:

- فماذا كان ردكم على من وضّحوا لكم بأن الأمر لا يعدو أن يكون توافر الإرادة التامة، وأن ذلك لن يكلّف دولة كشمير شيئاً عند عقد العزم على تجميل عاصمتكم وللقيام بكل الأمور العظيمة التي هي بحاجة إليها؟

قال البستاني:

- لم نردّ عليهم، بل رحنا نضحك كعادتنا، ولم نكلّف أنفسنا معاينة أيّ أمر.

قال الفيلسوف:

- حسناً! اضحكوا أقلّ، وعاينوا أكثر، وسوف أشرح لك هذه المفارقة التي يمكن أن تجعلكم سعداء، والتي تبعث فيكم الخوف."

أمّا الكشميري الذي كان شديد التهذيب فعضّ على شفتيه مخافةَ أن ينفجر ضاحكاً في وجه الهندي، وجرى بينهما الحوار التالي:

الفيلسوف

كيف تعرّف الغنى؟

البستاني

حيازة المال الوفير.

الفيلسوف

أخطأت. لأن سكان أمريكا الجنوبية كانوا يملكون في الماضي من المال ما لن يتوافر أبداً بين أيديكم؛ لكنهم، بسبب افتقارهم إلى الصناعة؛ لم يكن أمامهم أيّ شيء ممّا توفّره النقود: وكانوا بالفعل في وضع بائس.

البستاني

فهمت؛ أنت تجعل الغنى مقصوراً على امتلاك أرضٍ خصبة.

الفيلسوف

كلاّ: لأن تتار أوكرانيا يقطنون أجمل بلاد العالم، ويفتقرون إلى كلّ شيء. فرفاهية دولة من الدول شأنه شأن كل المواهب المتصلة بالطبيعة والفن. وهكذا، فالغنى مقرّه الأرض والعمل. وأغنى الشعوب وأسعدها هو الشعب الذي يحرث أفضل الحقول؛ وأجمل هدية وهبها الله للإنسان هي ضرورة العمل.

البستاني

موافق؛ لكن، للقيام بما يُطلب منّا، نحتاج إلى عمل عشرة آلاف رجل طيلة عشر سنوات؛ فمن أين ندفع لهم؟

الفيلسوف

ألم تدفعوا أجرة مائة ألف جندي طيلة عشر سنوات من الحرب؟

البستاني

هذا صحيح، ولم تشكُ الدولة من الفقر.

الفيلسوف

عجباً! لديكم المال لتوفدوا مائة ألف رجل إلى القتل، وليس لديكم منه ما يكفي لتأمين حياة عشرة آلاف.

البستاني

هذان أمران مختلفان كل الاختلاف: فإرسال مواطن إلى الموت يكلّف أقلّ بكثير من نحت الرخام.

الفيلسوف

أخطأتَ للمرّة الثانية. فتجنيد ثلاثين ألف خيّال هو وحده الأغلى بكثير من استخدام عشرة آلاف حرفيّ. والحقيقة، فلا هؤلاء ولا أولئك يكلّفون كثيراً عندما يُستخدمون داخل البلاد.

فكم دفع المصريون، حسب اعتقادك، لبناء الأهرامات، أو الصينيّون عندما بنوا سورهم العظيم؟ بعض البصل والأرز. فهل أصاب أراضيهم التعب من إطعام رجال يعملون ويكدحون، بدلاً من تسمين الكسالى؟

البستاني

أنت تدفعني إلى الحدود القصوى، لكنك لا تقنعني. فالفلسفة تحاجج، أما العادة فتفعل فعلها.

الفيلسوف

لو مشى الناس دائماً على هذا الشعار لكانوا يأكلون البلّوط حتى يومنا هذا، ولما وصلوا إلى الرفعة والسمو في أي شيء. إن تحقيق أعظم المشاريع لا يحتاج سوى إلى

رأس ويدين، ومتى تيسّر هذا أمكن للمرء الوصول إلى غايته. فلديكم أحجار جميلة، وحديد، ونحاس، وأخشاب جميلة لرفع السقوف، ولا ينقصكم بالتالي إلاّ الإرادة.

البستاني

لدينا من كل شيء؛ لقد جادت الطبيعة ولم تبخل علينا، لكن ما أضخم المبالغ اللازمة لتشغيل كل هذه المواد!

الفيلسوف

لا أفهم شيئاً من كل ما تقول. فما هي المبالغ التي تتحدث عنها؟ أرضكم تنتج مايلزم لإطعام وإكساء جميع سكان بلدكم؛ وتحت أقدامكم جميع المواد؛ ومن حولكم مائتا ألف خامل يمكنكم استخدامهم: فليس عليكم سوى دفعهم إلى العمل، مع إعطائهم من الأجر ما يكفي لطعامهم وكسائهم. لا أرى ماذا يكلّف مثل هذا العمل مملكة كشمير: لأنكم بكل تأكيد لن تدفعوا شيئاً للفرس والصينيين عندما تريدون تشغيل مواطني بلدكم.

البستاني

ما تقوله حقّ وأيّ حقّ، فلن يخرج من الدولة لا فضّة ولا غلال.

الفيلسوف

فهلاّ باشرتم اليوم قبل الغد؟!

البستاني

تحريك مثل هذه الآلة الضخمة أمرٌ فائق الصعوبة.

الفيلسوف

فكيف فعلتم لدعم حرب كلّفتكم الدم والثروات؟

البستاني

جعلنا ملاّك الأرض والمال يسهمون بالعدل بنسبة ما يملكون.

الفيلسوف

حسناً! إذا كانوا يسهمون لما فيه شقاء الجنس البشري، أفلا يدفعون شيئاً لما فيه سعادته ومجده؟ عجباً! منذ أن استقرّ بكم الأمر كشعب متماسك، ألم تجدوا حتى الآن سرّ إجبار جميع الأغنياء على تشغيل جميع الفقراء؟ أنتم إذن لم تصلوا بعد إلى ألف باء التمدّن؟

البستاني

إذا ما رتبنا أمورنا بما يجعل ملاّك الأرز والكتان والمواشي يقدمون الأرز المفلفل والقمصان للمتسوّلين الذين سوف نستخدمهم في قلب الأرض وحمل الأثقال، فلن نتقدم أبداً. لأننا سوف نضطر لتشغيل جميع الحرفيّين المنصرفين طيلة السنة إلى أعمال أخرى.

الفيلسوف

سمعتهم يقولون إنكم في كشمير تقضون مائة وعشرين يوماً تقريباً دون عمل على مدار السنة. فما المانع في تحويل نصف أيام الفراغ هذه إلى أيام مفيدة؟ فهلاّ استخدمتم في رفع بنيان المؤسسات العامة خلال مائة يوم أولئك الحرفيين العاطلين عن كل نشاط! حينذاك، أولئك الذين لا يعلمون شيئاً، والذين لا يملكون سوى القوّة العضلية، سوف يحصلون بسرعة على المهارة الصناعية: ويكون لديكم من بعد هذا شعبٌ من العمال المهرة.

البستاني

أوقات الفراغ تلك مخصّصة للملاهي والدعارة، ويدرّ هذا مالاً كثيراً على الخزينة العامة.

الفيلسوف

حجّتكَ رائعة تستحق الإعجاب، لكن لا يصبّ المال في خزينة الدولة إلا بدورانه. أفلا يوفر العمل دوراناً للمال أكبر ممّا توفرّه الدعارة التي تنجم عنها أمراض؟ وهل صحيح فعلاً أنّ من مصلحة الدولة انصراف الشعب إلى السكر خلال ثلث أيام السنة؟

استمرّ هذا الحوار طويلاً. وكان أن اعترف البستاني أخيراً بصواب رأي الفيلسوف، فأصبح بالتالي أول بستاني استطاع فيلسوفٌ إقناعه بأمرٍ ما. ووعد أن ينشط ويقوم بالكثير؛ غير أن الناس لا يفعلون أبداً كلّ ما يريدون، ولا كلّ ما يستطيعون.

وبينما كان المتفلسف والبستاني يتناقشان على هذه الصورة في أمور العلوم العليا، مرّ عدد من الحيوانات التي تمشي على قدمين، وكانوا بأشكال جميلة، وقد ارتدى كلٌّ منهم معطفاً قصيراً من فوق سترة طويلة، مع قلنسوة مدبّبة على الرأس، وزنّار من الحبال يشدّ على الكليتين. فقال الهندي:

- هؤلاء شباب جاء تكوينهم في أحسن تقويم، فكم لديكم من هذه الأجسام المتينة في وطنكم؟

قال البستاني:

- ما يقرب من مائة ألف من جميع الأجناس.

فقال الفيلسوف:

- ما أجدر أصحاب الهمم هؤلاء بالعمل في تجميل كشمير! ألا ليتني أراهم وقد حمل كلٌّ منهم في يده المعزقة والمسحجة وزاوية الحديد!

قال البستاني:

- وهذه أمنيتي أنا أيضاً، لكنهم من القدّيسين ولا يمكن أن يعملوا.

قال الهندي:

- فماذا يفعلون إذن؟

قال البستاني:

- يغنون ويشربون... ويأكلون ثم يهضمون ما يأكلون.

قال الهندي:

- يا للخير العميم للدولة بأمثال هؤلاء!

ودام هذا الحوار طويلاً، ولم يثمر عن شيءٍ يذكر.

كوزي - سانكتا "ومن السموم الناقعات دواء"
حكاية أفريقية

من الحكم السائدة خطأ أنه لا يجوز السماح بشرٍّ بسيط حتى لو أمكن أن ينتج عنه خير عميم. وذاك كان رأي القديس أوغسطين بالتمام والكمال، كما يلاحظ بسهولة ويسر من خلال روايته لهذه المغامرة البسيطة التي حصلت في أبرشيته، أيام ولاية سبتموس أسندينوس، وقد أوردها في كتابه: "مدينة الربّ".

فكان في مدينة بونه خوريٌّ، من كبار مؤسسي الجمعيات الأخوية الرهبانية، وهو متلقّي اعترافات جميع صبايا الحيّ، وكانوا ينظرون إليه على أنه يستمدّ الوحي من الله، لأنه كان يجرّب سرد المغامرات الصالحة، وهي مهنة كان يحسن تدبير أموره فيها إلى حدٍّ ما.

وجاؤوه ذات يوم بصبيّة اسمها كوزي- سانكتا: وكانت أجمل من في تلك المنطقة. كان أبواها على المذهب الجانسني، وقد ربّياها على مبادئ الفضيلة التي لا تقبل أيّ تساهل، ولم يتمكن أحدٌ من جميع العشاق الذين وقعوا في غرامها أن يلهيها لحظة واحدة عن صلواتها. كان زواجها قد تقرّر منذ أيام قليلة من شيخ صغير القامة، مجعّد البشرة، اسمه كابيتو، وهو مستشار في محكمة بونه. وكان رجلاً فظّاً ومتجهّماً، ولم يكن قليل الفطنة، لكنه ينفعل غاضباً أثناء النقاش، مثلما أنه ساخر، وصاحب فكاهة لاذعة لا يستحسنها أحد؛ ومن طرفٍ آخر، كان غيوراً مثل أبناء فينيسيا، ولم يكن يقبل إطلاقاً أن يكون مرتبطاً بصداقة مع عشاق زوجته. لقد بذلت تلك الصبيّة كل ما في وسعها كي تحبه، لأن قدرها شاء أن يكون زوجاً لها، نعم، بذلت جهدها بأصدق ما يمكن، لكنها لم توفّق كثيراً في ذلك.

وها هي تسأل الخوري لتعلم إن كان زواجها المقبل من الزيجات السعيدة. فأجابها

ذلك الرجل الطيب بلهجة الأنبياء: "يا بنتي، سوف تسبّب لك فضيلتك مصائب كثيرة؛ لكنهم ذات يوم سوف يرسمونك قدّيسة بسبب خيانتك لزوجك ثلاث مرّات".

أذهلت هذه النبوءة براءة تلك الصبيّة الجميلة، وسبّبت لها إرباكاً موجعاً؛ فبكت وطلبت تفسيراً، لاعتقادها بأن تلك الأقوال تخفي معنى باطنياً؛ لكن التفسير الوحيد الذي جاءها هو أن المرّات الثلاث لن تكون مع العاشق نفسه، بل هي ثلاث مغامرات مختلفة.

حينذاك أطلقت كوزي- سانكتا صرخات عالية؛ بل وقالت بعض الشتائم بحقّ الخوري، وأقسمت أنها لن تطوّب من القدّيسات أبداً. على أنها طُوّبت وأصبحت قديسة كما سوف ترون.

فقد تزوجت بعد وقت قصير: وكان العرس حافلاً بالعشاق المعاميد؛ لكنها قاومت بنجاح الأحاديث التي اضطرت لسماعها، وكل التلميحات البليدة، وكل الفظاظات المبطّنة أسوأ ما يكون التبطين، والتي يجرحون بها عادة احتشام العرائس والصبايا. ورقصت برشاقة كبيرة مع شبان في غاية الجمال وتناسق الأجسام، علماً بأن زوجها كان يجدهم في غاية القبح.

ثم اضطجعت في الفراش إلى جانب كابيتو القميء وفي نفسها قليلٌ من النفور. فأمضت الهزيع الأكبر من الليل نائمة، ثم استيقظت واسترسلت مع أفكارها. ولم يكن زوجها موضوع تلك الأفكار الحالمة بل وجّهتها نحو رجل اسمه ريبالدو، حالفه التوفيق بترك انطباعٍ قوي لديها دون أن تعرف عنه شيئاً. كان ذلك الشاب يبدو كأنما صنعته يدا "الحب"؛ فلديه كل ما لدى الحب من لطف، وجرأة، ومخاتلة؛ هو متهتّك قليلاً، لكنه ليس كذلك إلا مع اللواتي يرغبن به رغبة قوية: إذ كان معبود جميع النساء في بونه. وقد أثار المشاحنات بينهن جميعاً، وكذلك الحال بينه وبين جميع الأزواج والأمهات. كان يعشق في العادة على سبيل الطيش، ونادراً بسبب الغرور؛ لكنه أحبّ كوزي- سانكتا بعاطفة حقيقية، وزاد من حبه لها وتولّعه بها صعوبة الحصول عليها.

واهتم بادئ الأمر، بما لديه من ذكاء، أن ينال إعجاب الزوج. فراح يطلب منه الكثير، ويمتدح شكله الجميل، وذهنه الاجتماعي المتفتّح. وعندما يلعب معه الورق يتعمّد أن يخسر بعض المال، وفي كل يوم لديه مكاشفات ومكاشفات يحرص على

البوح بها جاعلاً منه نجيّ أسراره. أما كوزي- سانكتا فرأت بأنه ألطف الناس دون استثناء؛ وكانت قد بدأت تحبّه أقوى مما خيّل إليها؛ هي لم تكن تتصوّر أنها تحبه، وأما زوجها فأصبح تقريباً على يقين من ذلك. ورغم حبّ الذات الذي لا بدّ أنه راح يدغدغ عواطفه، نظراً لشكله القميء، فلم يفته بأن زيارات ريبالدو لم تكن من أجل سواد عينيه لا غير. ولذلك قطع علاقته معه متعلّلاً بسببٍ تافه، وحرّم عليه دخول بيته.

ترك هذا الأمر استياءً كبيراً في نفس كوزي- سانكتا لكنها لم تتجرّأ على البوح به؛ وازداد ضرام الحب لدى ريبالدو بسبب المصاعب، فراح يتحيّن الفرص لرؤيتها. وكان أن تنكّر بزيّ راهب، ثمّ في زيّ بائعة مواد تجميل، وصاحب مسرح دمى؛ لكن كل هذا لم يحقق له الفوز بمحبوبته، كما لم يستطع خداع الزوج الذي كان يكشف تنكّره في كل مرّة. ولو كانت كوزي- سانتكا متواطئة مع عاشقها، إذن لأمكنهما بسهولة اتخاذ الاحتياطات بحيث لا تستيقظ شبهات الزوج أبداً؛ لكنها راحت تقاوم ميول عواطفها، ولم تقبل أبداً أن تكون عرضة للشبهة أو اللوم، ولذلك أنقذت كل شيء، ما عدا الظواهر، حتى استقرّ في يقين زوجها أنها مذنبة.

ذلك الرجل القميء، الشديد الغضب، والذي يتوهّم بأن سعادته رهنٌ بوفاء زوجته، أهانها بقسوة، وعاقبها لأنهم يجدونها جميلة. فوجدت نفسها في أقسى وضع يمكن أن تكون عليه أية امرأة: فهي متهمةٌ ظلماً، ويسيء معاملتها زوجٌ أخلصت له كل الإخلاص، مثلما كانت ممزقة بعاطفة عنيفة، ما انفكّت تبذل جهدها للتغلّب عليها.

وتوهّمت أن توقّف عاشقها عن ملاحقاته قد يدفع زوجها إلى الكفّ عن ظلمه لها، وأنها ستكون سعيدة إذا ما شفت نفسها من الحبّ بتعطيل محرّضاته. وسعياً منها لتحقيق هذا الأمر، خاطرت بكتابة رسالة إلى ريبالدو:

"إذا كنتَ من أهل الفضيلة، توقّف عن إتعاسي: أنت تحبني، وحبّك يعرّضني لشبهات وقسوة سيّدٍ ارتضيته لنفسي حتى آخر حياتي. فليت السماء تشفقّ عليّ وتكون تلك هي المصيبة الوحيدة التي أتعرّض لها. فرحمةً بي، أرجوك، توقّف عن ملاحقاتك. أتوسّل إليك بالحبّ الذي يشقيك ويشقيني، والذي لا يمكن أبداً أن يحمل لك السعادة".

لم تفهم كوزي- سانكتا المسكينة أن مثل تلك الرسالة الرقيقة، رغم كل ما فيها من فضيلة، سوف تُحدث مفعولاً معاكساً لما كانت ترجوه. فقد ألهبت، أكثر من أيّ وقتٍ مضى، قلب عاشقها الذي قرّر أن يخاطر بحياته ليحظى برؤية محبوبته.

أما كابيتو، الذي هو من الحماقة بحيث كان يريد أن يطلّع على كل ما يجري، والذي كان قد وضع جواسيس يقظين، فقد علم بأن ريبالدو المتنكّر بزي راهب كرملي سوف يأتي لطلب الإحسان من زوجته. وخيّل إليه أنه أصبح في خبر كان. كما خُيّل إليه أن ثوب الراهب الكرملي أخطر بكثير من أي ثوب آخر على شرف رجلٍ متزوج. فكلّف بعض رجاله برصد المكان لتلقين ريبالدو الدرس المناسب: ولم يقصّروا إطلاقاً في مهمتهم؛ فحالما دخل الشاب إلى المنزل، استقبله أولئك السادة؛ وعبثاً راح يصرخ بأنه كرمليٌّ شريف، وأنه لا يجوز أبداً معاملة رجال الدين البسطاء تلك المعاملة المهينة. فقد ضربوه أوجع ضرب، ومات بعد خمسة عشر يوماً من ضربة أصابته في رأسه. لقد بكته نساء المدينة. أما كوزي- سانكتا فغمر نفسها حزنٌ لا سلوان له. بل إن كابيتو نفسه أصابه الحنق بسبب ذلك، وإن كانت أسبابه مختلفة، إذ أصبح يحمل على كتفيه تهمة في غاية السوء.

كان ريبالدو من أقارب الوالي أسندينوس، فأراد هذا الروماني فرض عقوبة تكون عبرةً لمن يعتبر، ثم إنه كان قد تخاصم في وقت سابق مع محكمة بونه لبعض الأمور، فلم يحزنه أنه أصبح يستطيع تعليق أحد مستشاريها على حبل المشنقة؛ وكان سروره أكبر لوقوع قرعة القدر على رأس كابيتو، الذي كان بجدارة، من أتفه الأقزام وأثقلهم وطأة على النفس في تلك المدينة.

على هذه الصورة، شاهدت كوزي- سانكتا مقتل عاشقها، وهي على وشك أن تشاهد تعليق زوجها على حبل المشنقة؛ ولم يكن من سبب لجميع تلك المصائب إلا فضيلتها. إذ، كما سبق وأوضحتُ، لو أنها تجاوبت مع ريبالدو، لكان بالإمكان خداع الزوج دون أن يشعر.

هنا نجد التفسير لتحقّق نصف نبوءة الخوري. وهي النبوءة التي عادت آنذاك إلى ذاكرة كوزي- سانكتا وأصبحت تخشى بقوة تحقُّق النصف الباقي منها. واسترسلت مع أفكارها، فعلمت أن من رابع المستحيلات محاربة القدر، لذلك، فوّضت أمرها إلى العناية الربانية التي أوصلتها إلى الهدف بأشرف السبل.

كان الوالي أسندينوس ميّالاً إلى الدعارة أكثر من ميله إلى الشبق والتلذّذ، فكان يسرع إلى غايته دون أن يتمهّل عند المداعبات التمهيدية. وكان قاسياً لا يعرف جبر الخواطر، فهو بطل حامية بحق وحقيق، وترهب المنطقة بأكملها جانبه، حتى كان لجميع نساء بونه قصصهن معه، تجنباً لإغضابه لا غير.

فاستقدم إلى مجلسه السيدة كوزي- سانكتا التي جاءت إليه غارقة في دموعها؛ غير أن تلك الدموع زادت من فتنتها. وقال لها: "يا سيدتي، زوجك سوف يُشنق وفي يدك وحدك إنقاذه". فقالت له: "أفدي حياته بحياتي"، فأجابها الوالي: "لسنا نطلب منك حياتك"؛ قالت: "- ماذا يجب عليّ إذن أن أفعل؟" فتابع الوالي: "لا أريد إلا ليلة واحدة من لياليك"؛ فقالت كوزي- سانكتا: "- ليست تلك الليالي ملكي، بل هي ملك يمين زوجي. أنا مستعدة لأبذل دمي في سبيل إنقاذه، لكن لا أستطيع أن أهب شرفي"؛ قال الوالي: "وماذا لو وافق زوجك على هذا؟" فأجابت: "هو السيّد: وكلّ إنسانٍ حرٌّ بما يملك، يتصرّف به كما يشاء. لكني أعرف زوجي، وهو لن يوافق؛ إنه رجل صغير الجسم لكنه عنيد، ولن يمتنع عن أن يسلّم نفسه إلى حبل المشنقة، فهذا أهون عليه من أن يسمح بلمسي ولو بأطراف الأصابع". فقال الوالي بغضب: "سوف نرى حقيقة هذا الأمر".

وأمر على الفور باستدعاء المذنب أمامه؛ وخيّره بين الشنق وبين أن يصبح ديّوثاً بقرون: ولا مجال للمساومة على حلٍّ وسط. مع ذلك، فقد تلكأ ذلك الرجل القميء لبعض الوقت، لكنه في النهاية فعل ما كان سيفعله أي شخص آخر في مثل موقفه. وكان أن أنقذت امرأته حياته، على سبيل الجود والإحسان. وتلك كانت المرة الأولى من المرات الثلاث الموعودة.

وفي اليوم نفسه، مرض ولدها مرضاً شديداً، وعجز جميع أطباء بونه عن تشخيص ذلك المرض. ولم يكن يوجد غير طبيب واحد يفهم أسراره، علماً أنه يسكن في أكيلا، على بعد أميال من بونه. وكان محظوراً على الطبيب في تلك الحقبة مغادرة المدينة التي يعمل فيها، والحضور لمعالجة مريض في مدينة أخرى. وكان أن توجّهت كوزي- سانكتا إلى بيته في أكيلا، يرافقها شقيقٌ لها تحبه بكل حنان. لكنّ قطاع طرق أوقفوها في الطريق، وقد لاقت استحسان رئيس أولئك السادة إذ رأى فيها آية من

آيات الجمال، وبينما كانوا يهمّون بقتل شقيقها، اقترب منها وقال لها إنهم يمكن ألاّ يقتلوا شقيقها بشرط أن تتكرّم ببعض الملاطفة، وأن ذلك لن يكلّفها ما يستحق الذكر. كان الأمر ملحّاً ولا يقبل التأجيل: كانت قد أنقذت لتوّها حياة زوجها الذي لم تكن تحبه، وهي على وشك أن تفقد شقيقاً تحبّه كل الحبّ؛ وفي جيمع الأحوال، كان الخطر المحيق بولدها يستعجلها: إذن، ليس لديها دقيقة واحدة يمكن التفريط بضياعها. فوّضت من جديد أمرها إلى الله، ونفّذت جميع ما طلب منها. وكانت تلك هي المرّة الثانية.

وإذ وصلت في اليوم نفسه إلى أكيلا، أسرعت إلى بيت الطبيب. وكان طبيباً عصرياً تطلبه النساء عندما يعانين البَخَر، وعندما لا يعانين من أي شيء. فكان مستودع أسرار بعضهن، وعشيق بعضهن الآخر: وكان مهذّباً، لطيف المعشر، مثلما كان أيضاً على بعض الخلاف مع أساتذة الجامعة، التي أثار حولها فكاهات عديدة في حينه.

وشرحت له كوزي- سانكتا مرض ولدها وقدّمت إليه قطعة نقدية كبيرة (لا بد أن تنتبهوا إلى أن القطعة النقدية الرومانية الكبيرة تساوي بعملتنا ألف ريال وأكثر). فقال لها الطبيب الدون جوان: "يا سيدتي، ما هذه هي العملة التي أتقاضى بها أجري. بل أنا أقدّم إليك كل ما أملك، إذا قبلت تقديم العلاج الذي هو بيدك: فهلاّ داويتني مما سبّبتِه لي، كي أعيد العافية إلى ولدك!".

وتبدّى ذلك العرض شديد الغلوّ في نظر السيدة، لكن القدر كان قد عوّدها على غرائب الأمور. وكان الطبيب يابس الرأس فلم يقبل أي ثمن آخر لعلاجه. لم يكن لدى كوزي- سانكتا زوجٌ لتستشيره، فهل تسمح بموت طفل تحبّه حتى العبادة، وهل يمكن أن تمتنع عن تقديم تلك المعونة الصغيرة التي هي قادرة عليها. إنها أمٌ بارّة مثلما هي شقيقة بارّة، سواء بسواء. وكان أن اشترت الدواء بالثمن الذي طُلب منها: فكانت تلك آخر المرّات الثلاث.

وعادت إلى بونه مع شقيقها، الذي ظلّ لسانه يلهج بالشكر والعرفان بالجميل، طيلة الطريق، لشجاعتها في إنقاذ حياته.

وهكذا كانت كوزي- سانكتا، بسبب تعقّلها الزائد، من وراء هلاك حبيبها وإصدار حكم إعدام على زوجها، غير أنها، بالمسايرة والتساهل، أنقذت حياة زوجها،

وشقيقها، وابنها. وقد رأوا لزوم وجود مثل هذه المرأة في الأسرة فطوّبوها من القدّيسات بعد وفاتها، لقيامها بكل ذلك الخير حيال أقاربها، إذ ضحّت بنفسها من أجلهم، وأمروا فنُقش فوق قبرها:

" شرّ بسيط في سبيل خير عظيم"

محاورات بين الشاعر الأبيقوري لوكريس
والفيلسوف الرواقي بوزيدونيوس

الحوار الأول

بوزيدونيوس

أشعارك رائعة أحياناً؛ ولكن فيزياء أبيقور تبدو لي في غاية السوء.

لوكريس

ماذا! لا تريد أن توافق على أن الذرّات انتظمت من تلقاء نفسها كي تُحدِث هذا الكون؟

بوزيدونيوس

نحن علماء الرياضيات، من جانبنا، لا نستطيع الموافقة، إلا على الأمور المبرهن عليها بوضوح استناداً إلى مبادئ لا تقبل الجدال.

لوكريس

ألا لا شيء مصدرُه من لا شيء
ألا لا شيء مرجعُه إلى لا شيء
ألا لا يلامس الجسم إلاّ جسمٌ آخر

بوزيدونيوس

حتى لو سلّمت معك جدلاً بهذه المبادئ، وبالذرّات والفراغ، فلن تقنعني بأن العالم انتظم تلقائياً في ذلك النظام الرائع الذي نراه عليه، إلاّ إذا أقنعت الرومان بأن دائرة الأفلاك السماوية التي صنعها بوزيدونيوس قد تركّبت من تلقاء نفسها.

لوكريس

فمن يكون صانع العالم؟

بوزيدونيوس

كائن عاقل، أسمى من العالم ومنّي، مثلما أنا أسمى من النحاس الذي ركّبتُ منه دائرة أفلاكي.

لوكريس

أنت يا من لا تقبل إلا بالأمور الواضحة، كيف يمكنك الإقرار بمبدأ ليس لديك في الحقيقة أيّ تصوّر عنه؟

بوزيدونيوس

مثلما، من قبل أن أعرفك، حكمتُ بأن كتابك كان لرجل ذكيّ مطلّع.

لوكريس

أنت تزعم بأن المادة خالدة، وأنها موجودة بعلّة وجودها: لكن، إذا كانت موجودة بطبيعتها، فلم لا تستطيع بطبيعتها إحداث شموس، وأكوان، ونباتات، والحيوان، والإنسان؟

بوزيدونيوس

جميع الفلاسفة الذين سبقونا آمنوا بأزلية المادة، لكنهم لم يبرهنوا على ذلك؛ لكن، حتى لو كانت أزلية، فلا يستتبع هذا إطلاقاً أن تكون قادرة على إحداث خلق يتألّق فيه مثل ذلك التصميم السامي. فهذه الحجارة، حتى إذا كانت أزلية، لن يمكنك إقناعي بأن في قدرتها إنتاج إلياذة هوميروس.

لوكريس

كلا، لا يمكن للحجر تأليف الإلياذة، ولا أن تُحدِث جواداً؛ لكن المادة بانتظامها مع مرور الزمن، وبتحوّلها إلى مزيج من العظم، واللحم، والدم، سوف تُحدِث جواداً، ثم إذا أصبح انتظامها أشدّ إرهافاً، أصبح بإمكانها أن تؤلّف الإلياذة.

بوزيدونيوس

هذا افتراض تقدّمه دون برهان، وليس لي أن أقبل شيئاً دون برهان. بل سوف أعطيك عظاماً، ودماً، ولحماً، ... جاهزة؛ وسوف أتركك تعمل، أنت وجميع الأبيقوريين في العالم: فهل توافق على رهان تحصل بموجبه على الإمبراطورية الرومانية إذا انتهيت إلى تصنيع جواد بتلك المواد الجاهزة تماماً، أما إذا لم تنجح فتكون عقوبتك الشنق؟

لوكريس

كلا؛ هذا فوق طاقتي، لكنه لا يفوق طاقة الطبيعة. فلا بدّ من ملايين القرون لتصل الطبيعة في الختام. من بعد اجتياز جميع الأشكال الممكنة، إلى الشكل الوحيد القادر على إحداث الكائنات الحيّة.

بوزيدونيوس

ألا لو حركت في برميل طيلة عمرك، جميع مواد الأرض مخلوطة سوياً فلن تحصل من ذلك على شكل وحيد منتظم، ولن تُحدِث شيئاً. فإذا كانت مدة حياتك غير كافية لإحداث نبات فطر لا غير، فهل تكون حياة إنسان آخر كافية لتحقيق هذا؟ وما لا يصنعه قرنٌ كامل، كيف تستطيع قرونٌ متلاحقة أن تصنعه؟ كان من المفروض لمن يتجاسر ويؤكّد بأن المادة بمفردها أعطت نفسها الأشكال الحيّة، أن يكون قد رأى بشراً وحيوانات تولد من بطن الأرض، وقمحاً يوجد دون بذرة، إلخ، إلخ...؛ وعلى حدّ علمي، فلا أحد حضر كشاهد عيان تلك العملية: فليس من حقّ أحد إذن أن يؤمن بها.

لوكريس

حسناً؛ البشر، والحيوانات، والأشجار، كان وجودهم من الأزل. فكل الفلاسفة متفقون على أزلية المادة؛ لا بدّ بالتالي من الموافقة على أن التوالد هو أيضاً كذلك. فمن طبيعة المادة إحداث أجرام سماوية دوّارة، وطيور محلّقة، وجياد راكضة، وأناس يصوغون إلياذات.

بوزيدونيوس

في هذه الفرضية الجديدة، غيّرتَ موقفك؛ لكنك ما تزال تفترض ما هو موضع شك: وأنتَ تقبل ما ليس لك عليه أي دليل.

لوكريس

من حقّي الإيمان بأن ما هو كائن اليوم، كان بالأمس، كان منذ قرن، ومنذ قرون، وهكذا رجوعاً إلى الوراء إلى ما لانهاية. وأنا في هذا أستخدم حجّتك: فلا أحد رأى في يوم من الأيام الشمس والأنجم في بداية حياتها، ولا رأى الحيوانات الأولى تتشكّل وتُنفخ فيها الحياة؛ يمكننا إذن التفكير بأن كل شيء كان منذ الأزل على ما هو عليه.

بوزيدونيوس

بل بيني وبينك اختلاف كبير. فأنا أرى تصميماً رائعاً، ولا بدّ لي من الإيمان بأن كائناً عاقلاً صاغ ذلك التصميم.

لوكريس

لا يجوز لك الإقرار بكائن لا تعرف عنه أيّ شيء.

بوزيدونيوس

فكأنّك تقول لي بأني لا يجوز أن أؤمن بوجود مهندس بنى الكابيتول، لمجرّد أنني لم أرَ ذلك المهندس.

لوكريس

مقارنتكَ غير منصفة. فأنت رأيت بيوتاً تُبنى، ورأيت مهندسين: وهكذا فلا بدّ لك أن تفكّر بأن إنساناً يشبه هؤلاء المهندسين الحاليين هو الذي بنى الكابيتول. أما بصدد موضوعنا، فالأمور لا تجري على هذا المنوال. فالكابيتول غير موجود بطبيعته، بينما المادة موجودة بطبيعتها. ومن المستحيل ألاّ تتخذ شكلاً ما. فلماذا إذن لا ترضى لها بأن تمتلك بطبيعتها الشكل الذي هي عليه اليوم؟ أو ليس أسهل عليك بكثير أن تعترف بطبيعة تتشكّل تلقائياً، من أن تعترف بكائنٍ غير مرئي يقوم على تشكيلها؟ في الحالة الأولى، لن تواجهك سوى صعوبة وحيدة، هي صعوبة فهم كيف تفعل الطبيعة فعلها؛ وأما في الحالة الثانية، فأمامك صعوبتان، صعوبة فهم هذه الطبيعة من جهة، ومن جهة ثانية صعوبة فهم كائنٍ مجهول يُحدِث فيها تأثيره.

بوزيدونيوس

على العكس تماماً. فلا يتعلّق الأمر بمجرّد الصعوبة، وإنما من المستحيل أن أفهم كيف تكون للمادة تصميمات لانهائية، بينما لا أجد أدنى صعوبة في القبول بكائن عاقل يسيّر هذه المادة بتصميمات لانهائية، وبإرادته التي لا رادّ لها.

لوكريس

ماذا؟ فإذا عجز ذهنك عن فهم أمر لجأت إلى افتراض أمرٍ آخر؟ أنت إذن لعجزك عن الإلمام بالوسائل والترتيبات الضرورية التي بها انتظمت الطبيعة في كواكب، وشمس، وحيوان، تلجأ إلى افتراض وجود كائن آخر؟

بوزيدونيوس

كلا، لا ألجأ إلى الله لعجزي عن فهم الطبيعة. لكنّي أفهم بوضوح حاجة الطبيعة إلى عقلٍ أسمى، وهذا السبب بمفرده ما كان ليبرهن على الله، لولا امتلاكي لبراهين أخرى.

لوكريس

وماذا لو أن هذه المادة كان لديها العقل بطبيعتها؟

بوزيدونيوس

ما أراه بوضوح هو أنها لا تملك ذلك.

لوكريس

وما أراه شخصياً بوضوح هو أنها تملك ذلك، ما دمتُ أرى أجساماً مثلك ومثلي تفكّر.

بوزيدونيوس

لو كانت المادة تملك التفكير تلقائياً، فيجب أن تقول إنها تملك ذلك بالضرورة. لكن، لو كانت هذه الخاصيّة ضرورية، كانت ستتحقق في كل زمان ومكان: لأن "الضروري" في شيء ما لا يمكن أبداً أن ينفصل عنه. في هذه الحالة، المفروض بقطعة الطين أن تفكّر، ويصدق الأمر نفسه على أقذر ما يفرزه الجسم من فضلات؛ ولا أظنك بالتأكيد تقول إن الزبل يفكر: والفكر بالتالي ليس صفة ضرورية من صفات المادة.

لوكريس

محاكمتك العقلية هي سفسطة. فأنا أعتبر الحركة "ضرورية" للمادة؛ ومع هذا، فالزبل والطين ليسا حالياً في حركة؛ لكنهما سوف يتحركان متى دفعهما جسم ما إلى الحركة. وكذلك الفكر، فهو ليس من خواص جسمٍ ما إلاّ عندما ينتظم هذا الجسم ليقوم بالتفكير.

بوزيدونيوس

الخطأ لديك هو أنك دائماً تفترض الصواب في ما هو موضع شك. وأنت لا تلاحظ أنك إذا ما أردتَ تنظيم جسم، وجعله إنساناً، وإعطاءه التفكير، فيجب أن يكون التفكير في أساس هذه العملية، ويجب وجود مخطط مقرّر. والحال، فلا يمكنك القبول بوجود مخططات من قبل حدوث الكائنات الوحيدة التي لديها مخططات؛ ولا يمكنك

القبول بوجود أفكار قبل وجود الكائنات المفكرة. ثم إنك تفترض أيضاً الصواب في ماهو موضع شك، عندما تقول إن الحركة ضرورية للمادة: لأن ما هو ضروري بالمطلق موجودٌ باستمرار، مثلما يوجد الامتداد في كلّ مادة. ولكن الحركة غير موجودة باستمرار. وأهرامات مصر ليست قطعاً في حالة حركة: ومهما تخلّلت مادة لطيفة أحجارها، فإن كتلتها تظل ساكنة. الحركة إذن ليست ضرورية إطلاقاً للمادة، بل هي تأتيها من الخارج، مثلما يأتي الفكر من خارج البشر. إذن، يوجد كائن عاقل وقادر يهب الحركة، والحياة، والفكر.

لوكريس

يمكنني الردّ عليك بأن الحركة والعقل وجدا دائماً في العالم: وهذه الحركة هذا العقل توزّعا عبر كل الأزمنة، وفق نواميس الطبيعة. ونظراً لأزلية المادة، كان من المستحيل ألاّ يستتبع وجودها نظاماً ما؛ وما كان بإمكانها أن يكون لها أي نظام دون الحركة ودون الفكر؛ وتوجّب بالتالي أن يكون العقل والحركة فيها.

بوزيدونيوس

مهما حاولت فلن يمكنك أبداً أن تقدّم سوى افتراضات. أنت تفترض وجود نظام، فلا بدّ إذن من عقلٍ رتّب هذا النظام. وتفترض وجود الحركة والفكر من قبل أن تكون المادة في حركة أو أن يكون هناك بشرٌ وتفكير. ولا تستطيع الإنكار بأن الفكر ليس جوهرياً في المادة، ما دمتَ لا تجرؤ أن تقول عن الحصاة إنها تفكر. وليس لديك ما تجابه به سوى قولك: "ربما"، كلما حوصرت بوجوب تقديم الحقيقة الناصعة. أنت تشعر بعجز المادة، وأنت مضطر للقبول بوجود كائنٍ أسمى، عاقل، قادر، قام بتنظيم المادة والكائنات المفكرة. وهذه آثار تلك القوة العاقلة العليا تنبثق في كل مكان، ولا بدّ أنك تلمحها في ذرّة العشب وفي دوران الأفلاك على حدٍّ سواء. وترى بأن كل شيء يسير إلى غاية مؤكّدة خُلق لها.

لوكريس

أفلست تعتبر الوجود الضروري مخططاً مرتّباً؟ ثم ألست تنظر إلى ما هو مجرّد استخدام نقوم به لما هو موجود فتعتبره غاية مقصودة؟ لقد بنى البحّارة الأرغونوت مركباً للذهاب إلى كلوخوس؛ فهل ستقول لي إن الأشجار خُلقت كي يصنع الأرغونوت

مركباً، وإنّ البحر صُنع كي يحقّق الأرغونوت إبحارهم فيه؟ ويحتذي البشر النعال، فهل ستقول لي إنّ القدمين صاغهما كائنٌ علويّ كي تحتذي النعال؟ كلا، بكل تأكيد. وإنما رأى الأرغونوت خشباً فصنعوا منه سفينتهم، وإذ علموا أن الماء يمكنه حمل هذه السفينة، قرّروا القيام برحلتهم. بالطريقة نفسها، من بعد ما لا عدّ ولا حصر له من الأشكال والتركيبات التي اتخذتها المادة، حصل أن الخلائط والقرنية الشفّافة التي تتركب منها العين، كانت متفرّقة سابقاً في مختلف أجزاء الجسم البشري، ثم اجتمعت في الرأس، وآنذاك بدأ الحيوان ينظر ويرى. وأعضاء التناسل التي كانت موزّعة اجتمعت وأصبحت على الشكل الذي هي عليه: حينذاك تحقق الإنجاب بانتظام. ومادة الشمس المشتتة والمتباعدة في الفضاء تجمّعت في بؤرة لتشكّل النجم الذي ينيرنا. فهل في كل هذا ما هو مستحيل؟

بوزيدونيوس

إذا أردت الالتزام بالجدية فلا يمكنك، في واقع الأمر، اللجوء إلى مثل هذا النسق الفكري. أولاً، لو قبلنا هذه الفرضية، فأنت بهذا تُهمل التوالدات الأزلية التي كنت تتحدث عنها لتوك. ثانياً، أنت تخطئ في تقدير الغايات النهائية. فنحن نقوم باستخدامات إرادية لما تهبه الطبيعة؛ فهناك تأثيرات لازمة، لا غنى عنها. وكان بإمكان البحّارة الأرغونوت عدم استعمال أشجار الغابات لصنع مركب؛ ولكن تلك الأشجار كانت مكرّسة بكل جلاء كي تنمو على سطح الأرض، وكي تعطي أوراقاً وثماراً. ويمكن عدم انتعال حذاء في القدم؛ لكن الساق مصنوعة بجلاء كي تحمل الجسم وكي تمشي؛ والعينان موجودتان للرؤية، والأذنان للسمع، وأعضاء التناسل لتحقيق استمرار النوع. ومتى ما لاحظتَ أن النجم المستقر على بعد أربعمائة أو خمسمائة مليون مليون ميل تنطلق منه أشعة ضوء تصل لتحقق زاوية محددة هي ذاتها في أعين جميع الحيوانات. وأن تلك الحيوانات جميعها تستقبل الضوء في اللحظة نفسها، سوف توافقني على أن هذا الأمر يعبّر عن حركة منظمة، وعن مخطط رائع. تُرى، أفلا نخرج على العقل السليم إذا قبلنا الحركة المنظمة دون الاعتراف بوجود صانع، والمخطّط دون الاعتراف بوجود العقل، وإذا ارتضينا وجود مثل تلك المخططات المرسومة المحددة وأنكرنا وجود كائن علويّ؟

لوكريس

إذا قبلنا بوجود هذا الكائن العلويّ، فما يكون شكله؟ وهل هو في مكان؟ أم هو خارج كل مكان؟ في الزمان أم خارجه؟ وهل يملأ الفراغ بأكمله أم لا؟ ولماذا صنع العالم؟ ما هي غايته؟ لماذا تُحدِث كائنات حسّاسة وشقيّة؟ ولماذا الشرّ الأخلاقي والشرّ الجسماني؟ فأنّى وجّهتُ فكري لا أرى إلا ما لا يمكن فهمه؟

بوزيدونيوس

ألا إن وجود هذا الكائن العلويّ يستوجب تحديداً أن يكون مستعصياً على الفهم: لأنه إذا ما وجد، فلا بدّ أن تكون اللانهاية فاصلاً بينه وبيننا. فيجب علينا القبول بأنه موجود، دون أن نعلم حقيقته، ولا كيف يُحدِث الأمور. ألستَ مجبراً في الهندسة على القبول بالخطوط المقاربة، دون أن تفهم كيف يمكن لهذه المستقيمات أن تتقارب دائماً دون أن تلتقي أبداً؟ أفلا تجد من الأمور ما لا يمكن فهمه رغم البرهان عليه في خواص الدائرة؟ فليتصوّر عقلك إذن ضرورة القبول بما لا يمكن فهمه، حتى عندما يكون وجوده ثابتاً بالبرهان.

لوكريس

ماذا! أعليّ أن أتخلّى عن عقائد أبيقور؟

بوزيدونيوس

التخلّي عن أبيقور خيرٌ وأجدى من التخلّي عن العقل.

الحوار الثاني

لوكريس

بدأتُ أعترف بكائنٍ علويّ لا تدركه حواسنا، لكن يبرهن عليه عقلنا، وهو الذي صنع العالم، ويسهر على استمراره؛ لكن، حول ما قلتُه عن الروح في كتابي الثالث، والذي أثار إعجاب جميع علماء روما، لا أظنّك تستطيع إجباري على العدول عنه.

بوزيدونيوس

أنت تقول بادئ ذي بدء:

والروح المفكّر مقره أواسط الصدر

لكن، عندما نظمتَ أبياتك الجميلة، ألم تحاول القيام بجهدٍ ما عن طريق رأسك؟ وعندما تتحدث عن فكر شيشرون أو عن الخطيب مارك- أنطونيو، ألا تقول عن أيّ منهما بأنه ذو رأس؟ ولو قلتَ إنه ذو صدر، أفلن يتخيّل من يسمعك أنك تتحدث عن صوته أو عن رئته؟

لوكريس

لكن ألا تحسّ بأن عواطف الفرح، والألم، والرهبة، تتشكّل من حول القلب؟ ثم ألا تحسّ بقلبك ينبسط أو ينقبض عند تلقّي النبأ الطيب أو السيئ؟ أفلا توجد هناك نوابض خفيّة تتمدّد أو تتحرّك بمرونة؟ إذن، هناك مستقرٌّ الروح المفكر.

بوزيدونيوس

يوجد زوج من الأعصاب ينطلق من المخ، مروراً بالمعدة والقلب، نزولاً إلى أعضاء التناسل، وهذه الأعصاب هي التي تتحكّم بالحركة: فهل تزعم بأن أعضاء التناسل هي مستقرٌّ الإدراك عند الإنسان؟

لوكريس

كلا، لن تصل بي الجرأة إلى مثل هذا القول، لكن إذا ما وضعت الروح في الرأس، بدلاً عن وضعها في الصدر، فإن مبادئي تظلّ على حالها: إذ الروح دائماً مادة منطلقة إلى ما لانهاية، شبيهة بالنار الأساسية التي تبعث الحياة في الآلة بأكملها.

بوزيدونيوس

فكيف تتصور أن تستطيع مادة منطلقة من عقالها الحصول على الأفكار والعواطف من تلقاء نفسها؟

لوكريس

لأنني أشعر بذلك، ولأن جميع أعضاء جسمي إذا لامستها تشعر بذلك؛ ولأن هذا الشعور منتشرٌ في آلتي بأكملها، وأنه لا يستطيع أن ينتشر فيها انتشاراً كاملاً إلا عن طريق مادة في غاية اللطف والسرعة؛ ولأنني جسدٌ، وأن الجسد لا يحركه إلا جسدٌ مثله؛ ولأن جوف جسدي لا يمكن أن تلج إليه إلا جسيمات منطلقة العقال إلى أبعد حدّ، وأن روحي بالنتيجة لا يمكن أن تكون إلا تجمّع هذه الجسيمات.

بوزيدونيوس

سبق واتفقنا في حوارنا الأول على أن جميع الدلائل تقول باستحالة أن يؤلّف الصخر إلياذة. فهل يكون شعاع الشمس أقدر على ذلك؟ وحتى لو تخيّلتَ بأن شعاع الشمس ألطف وأسرع مائة ألف مرّة مما هو عليه فعلاً، فهل يمكن للضوء واللطافة إحداث المشاعر والأفكار؟

لوكريس

ربما تحدث اللطافة والضوء ذلك إذا تمثلتهما أعضاء جاهزة.

بوزيدونيوس

ها أنت من جديد محاصر بـ "ربما". الا إن النار لا يمكن أن تفكّر من تلقاء نفسها إلاّ إن كان بإمكان الجليد ذلك. وحتى لو قبلتُ معك جدلاً بأن النار هي فيك مادة الفكر، والشعور، والإرادة، فلا بد أن تعترف بأنها لا تحصل من تلقاء نفسها على الأفكار والشعور، والإرادة.

لوكريس

كلا، ليس هذا من تلقاء ذاتها: بل هو نتيجة اجتماع النار وأجهزتي العضوية.

بوزيدونيوس

فكيف يمكنك تخيّل حصول التفكير من اجتماع جسمين معاً، رغم خلوّهما من التفكير حين يكونان منفصلين؟

لوكريس

مثلما هي الحال مع الشجرة والتراب، فإذا ما بقيا مستقلّيْن لم يحملا الثمر، ولكن الثمر يحدث متى وضعنا الشجرة في التراب.

بوزيدونيوس

هذه المقارنة باهرة فعلاً. فالشجرة تحمل في جوهرها بذرة الثمار، ونرى هذا رأي العين في براعمها؛ وأما نسغ الأرض فيطوّر مادة هذه الثمار. فكأنك تفترض بأن النار تحمل في جوهرها بذرة التفكير، وأنّ أعضاء الجسم تطوّر هذه البذرة.

لوكريس

وما هو المستحيل في مثل هذا الأمر حسب رأيك؟

بوزيدونيوس

في رأيي، أن هذه النار، حتى بمادتها الأثيرية اللطيفة، لا تتمتع بالفكر أكثر مما يتمتّع به الحجر. وإحداث كينونة ما، لا بدّ من أن يتوافر فيها ما يشبه مسبّب الحدوث: غير أن الفكر، والإرادة، والشعور ليس فيها أدنى تشابه مع المادة النارية.

لوكريس

إذا ما تصادم جسمان تولّدت حركة، علماً أن الحركة ليس فيها أدنى تشابه مع هذين الجسمين، وليس فيها شيء من أبعادهما الثلاثة، وليس مثلهما أي شكل: إذن، يمكن لكينونة ما ألاّ تشبه في شيء الكينونة التي أحدثتها: وإذن، يمكن للفكر أن يتولّد من اجتماع جسمين ليس فيهما فكر.

بوزيدونيوس

وهذه أيضاً مقارنة باهرة دون أن تكون صحيحة. فأنا لا أرى سوى المادة في تحرّك جسمين ما؛ أنا لا أرى في هذا غير جسمين ينتقلان من موضع لآخر. لكن، عندما نُعمل فكرينا سويّاً، فأنا لا أرى أية مادة في أفكارك وأفكاري. على أني سوف أقول لك بأني لا أتصوّر كيف يمكن لجسم تحريك جسم آخر، تماماً مثلما لا أتصوّر كيف تولد عندي الأفكار. إنهما بالنسبة إلي أمران لا يمكن تفسيرهما على حدٍّ سواء، وكلاهما يبرهن لي وجودَ وقدرةَ كائن علويٍّ صانعٍ للحركة والفكر.

لوكريس

إذا لم تكن روحنا ناراً لطيفة المزاج، مادة أثيرية ناريّة، فماذا تكون إذن؟

بوزيدونيوس

أنت وأنا لا نعلم عنها شيئاً: ولكني سوف أقول لك ما لا تكونه، وليس ما تكونه. أنا أرى أنها قوة كامنة في داخلي، وأنني لم أهب نفسي تلك القوة، وأنها بالتالي قادمة من كائنٍ أسمى مني.

لوكريس

أنت لم تهبْ نفسك الحياة، بل تلقّيتها من والدك؛ وتلقّيت منه الفكر مع الحياة، مثلما تلقّى هو ذلك من والده، وهكذا صعوداً إلى ما لانهاية. ولهذا لا تعرف ماهية مبدأ الحياة أعمق مما تعرف مبدأ الفكر. فهذا التعاقب من الكائنات الحية والمفكرة كان موجوداً في جميع الأزمنة.

بوزيدونيوس

ما يزال رأيي أن عليك التخلّي عن منظومة أبيقور، فأنت لن تتجرأ على القول بأن تلاقي الذرّات يُحدث الفكر؛ وقد سبق لي في حوارنا السابق دحض فكرة التعاقب الأزلي للكائنات الحسّاسة والمفكّرة؛ وقلتُ لك إنه لو وجدت كائنات مادية ومفكّرة من تلقاء نفسها، كان لا بدّ من أن يكون الفكر صفة ضرورية لاصقة بجوهر كلّ مادة؛ وأن المادة لو كانت تفكّر لزوماً من تلقاء نفسها، لاقتضى ذلك أن تكون كل مادة حاملة للفكر معها: وإذن، فمما لا يمكن الدفاع عنه القبول بتعاقب الكائنات المادية المفكّرة من تلقاء ذاتها.

لوكريس

هذه الحجّة التي لا تكفّ عن ترديدها لا تمنع الأب من أن ينقل الروح لابنه عندما يسهم في تكوين جسمه. فهذه الروح وهذا الجسم يكبران سويّاً؛ وهما يزدادان صلابة ويتعرّضان للأمراض والعاهات التي تسبّبها الشيخوخة. فانحطاط قوانا يؤدي إلى تدهور قدرتنا على المحاكمة. والنتيجة تصل إلى نهايتها في الختام مع السبب، حيث تتحلّل الروح كتحلّل الدخان في الهواء، كما جاء في أبيات قصيدتي المعروفة لديك.

بوزيدونيوس

قصيدتك، أبياتها الشعرية جميلة؛ لكن هل أعلمتني بتلك الأبيات عن طبيعة الروح؟

لوكريس

كلا، بل سردتُ عليك تاريخها، ومناقشتي للأمر لا تخلو من مطابقة للواقع.

بوزيدونيوس

وأين التطابق مع الواقع في قولك إن الأب ينقل إلى الابن ملكة التفكير؟

لوكريس

أفلا ترى من الأبناء في كل يوم من يحمل ميول الآباء، تماماً مثلما ورثوا منهم سماتهم الشكلية؟

بوزيدونيوس

لكن، عندما يسهم الأب في وجود ولده، هل كان له إلا دور الأداة العمياء؟ وهل ادّعى بأنه يُحدِث روحاً، ويصوغ أفكاراً، عندما استرسل في متعته مع زوجته؟ والمرأة

والرجل كلاهما، هل يعلمان كيف يتشكل الطفل في رحم الأم؟ أفلا يجب الرجوع إلى سبب علويّ، كما هي الحال في العمليات الأخرى للطبيعة، تلك العمليات التي محّصناها سويّاً؟ ألا تشعر، إذا ما صفا وجدانك، أن البشر لا يهبون أنفسهم شيئاً، وأنهم في قبضة سيّدٍ مطلق القوة؟

لوكريس

إذا كنت تعلم عن الأمر أكثر ممّا أعلم، فأخبرني إذن ما هي الروح؟

بوزيدونيوس

لا أزعم أنني أعلم عنها أكثر مما تعلم. لكن، يجب أن يستنير أحدنا بالآخر. قل لي بادئ ذي بدء ما يكون النموّ النباتي.

لوكريس

هو حركة داخلية تحمل أنساغ التربة إلى النبتة فتنمّيها، وتُفتّح ثمارها، وتمدّ أوراقها، إلخ...

بوزيدونيوس

أنت لا يخطر لك دون شك أن يكون بالإمكان وجود كيان يمكن تسميته "النمو"، وأنه هو الذي يُحدِث جميع تلك الأعاجيب.

لوكريس

ومن خطر له في يومٍ من الأيام مثل هذا الخاطر.

بوزيدونيوس

يجب عليك الاستنتاج من حوارنا السابق أن الشجرة لم تهب نفسها النمو من تلقاء ذاتها.

لوكريس

أنا مضطر للموافقة على هذا.

بوزيدونيوس

والحياة؟ هل تقول لي ما تكون؟

لوكريس

إنها النمو يُضاف إليه الشعور في جسمٍ منظّم.

بوزيدونيوس

ولا توجد كينونة اسمها "الحياة"، قادرة على أن تهب الشعور لذاك الجسم المنظّم.

لوكريس

دون شك. فالنمو والحياة كلمتان تدلاّن على أشياء نامية وحيّة.

بوزيدونيوس

إذا كان الشجر والحيوان في عجزٍ عن أن يهبا نفسيهما النمو والحياة، فهل يمكنك أنت أن تهب نفسك أفكارك؟

لوكريس

أظنني قادراً على هذا، لأنني أفكّر بما أريد. فإراداتي كانت في التحاور معك حول الميتافيزيقا، وها أنا أحدثك عن هذا.

بوزيدونيوس

فهل تؤمن بأنك سيّد أفكارك؟ هل تعلم إذن ما سوف تكون عليه أفكارك في مدى ساعة، بل في مدى ربع ساعة؟

لوكريس

أعترف بأني لا أعلم شيئاً عن ذلك.

بوزيدونيوس

غالباً ما تأتيك أفكار أثناء الرقاد؛ وتقرض الشعر في الحلم؛ وأما قيصر فيحتلّ المدن؛ وأمّا أنا فأحلّ مسائل رياضية؛ بينما كلاب الصيد تطارد الوعول في أحلامها. فالأفكار إذن تأتينا مستقلة عن إرادتنا. وهي بالتالي يهبها لنا سببٌ علويّ.

لوكريس

فكيف تفهم هذا؟ هل تزعم بأن الكائن العلويّ لا شغل له سوى أن يعطينا باستمرار أفكاراً، أو أن يخلق مواداً لا جسمانية تتوافر فيها لاحقاً أفكارنا تلقائياً، أحياناً بمساعدة المعاني، وأحياناً دون هذه المساعدة؟ وهل تتشكل هذه المواد لحظة بدء الحمل بالحيوان؟ أم هي متشكلة قبل الحمل وتنتظر تشكّل الأجسام لتتسلّل إليها، أو أنها لا تستقرّ في الأجسام إلا حين يكون الحيوان قادراً على استقبالها؟ أو، أخيراً، أن كل كائن حيّ يرى أفكار الأشياء -أو مُثُلَها- في الكائن العلويّ؟ ما هو رأيك؟

بعد أن تقول لي كيف تؤثر إرادتنا على الفور لتُحدث حركة في أجسامنا، وكيف يطيع ذراعُك إرادتك، وكيف تتلقّى هبة الحياة، وكيف تهضم المأكولات، وكيف يتحوّل القمح إلى دم، سوف أقول لك كيف تكون لنا أفكار. حول جميع هذه الأمور، أعترف شخصياً بجهلي. وقد يتوافر للعالم ذات يوم أنوار جديدة، لكن منذ طاليس وحتى يومنا هذا لم تتيسّر لنا مثل تلك الأنوار. وكل ما يمكننا القيام به هو أن نشعر بعجزنا عن سبر كنه الكائن الكُلّي القدرة، وعلينا أن نحاذر من المنظومات التي تدّعي ذلك.

جانو وكولان

شاهد عدد من الأشخاص الجديرين بالتصديق جانو وكولان يوم كانا في مدرسة مدينة إيسوار، من مقاطعة أوفيرني، تلك المدينة التي ذاع صيتها في الكون بأكمله بسبب مدرستها وقدورها المعدنية. أما جانو فكان ابن تاجر بغال مشهور في المنطقة، بينما كان كولان مديناً بولادته لفلاح همام من القرى المجاورة، كان يفلح الأرض بأربعة بغال، لكنه من بعد دفع كل الضرائب المترتّبة عليه: العشر، والمكوس، والدخل، والتبرّعات، والمعونات، وتكاليف الدراسة لابنه، وما إلى ذلك، لم يكن يبقى معه في نهاية السنة ما يساعده على أن يكون ميسور الحال.

وكان جانو وكولان على درجة مقبولة من الجمال قياساً إلى أبناء منطقة الأوفيرني، وهما متحابّان إلى أبعد حدّ، ويتبادلان القفشات والمقالب الظريفة، التي يستعرضانها بمودة كلما التقيا مع آخرين.

كان العام الدراسي على وشك أن ينتهي، عندما أحضر أحد الخياطين لجانو ثوباً مخملياً مثلث الألوان، ومعه سترة من مدينة ليون في منتهى الأناقة؛ وكانت هذه الهدية مصحوبة برسالة موجّهة إلى: "السيد دو لا جانو تيير". لقد أبدى كولان إعجابه بالثوب دون أي حسد، لكن جانو اتخذ هيئة مترفّعة سبّبت الألم لكولان. ومنذ تلك اللحظة، أهمل جانو دراسته إهمالاً كبيراً، وأصبح همّه منصبّاً على تأمّل نفسه في المرآة، وعلى احتقار الآخرين. ثم حضر وصيفٌ خاص بعد فترة من الزمن حاملاً رسالة ثانية موجّهة هذه المرّة إلى: "السيّد المركيز دو لا جانو تيير": وهي من والده يأمر فيها باستقدام ابنه إلى باريس. فصعد جانو إلى عربة الوصيف، ومدّ يده مودّعاً كولان بابتسامة كلها عظمة ونبل. فأحسّ كولان وكأن الأرض قد خسفت به، وراح يبكي، بينما رحل جانو بكل أبّهة المجد الذي نزل عليه.

أما قراؤنا الفضوليون الذين يحبون الاطلاع على خفايا الأمور فعليهم أن يعلموا بأن السيد جانو، الأب، كان قد حصل على أملاك شاسعة في صفقات عديدة. تتساءلون كيف يحصل المرء على مثل تلك الثروات الطائلة؟ بكل بساطة، إنها نتيجة التوفيق. فالسيد جانو كان حسن المظهر، وكذلك امرأته التي تتمتع، فوق كل شيء، بجسم غضّ بضّ. وقد ذهب الاثنان إلى باريس لملاحقة دعوى توشك أن تودي بهما إلى هاوية الإفلاس. لكن القدر الذي يرفع ويخفض الناس على هواه، عرّفهما على زوجة متعهّد مسؤول عن بعض المستشفيات العسكرية، وهو رجل على درجة كبيرة من الذكاء، وذو موهبة فذّة، حتى ليستطيع التباهي بأنه قتل من الجنود بتعهداته في عام أكثر مما قتل منهم المدفع في عشرة أعوام. وكان أن راقت زوجة جانو للمتعهد مثلما راق جانو لزوجة المتعهد. وها هو جانو دون أي تأخير وقد أصبح شريكاً في التعهدات؛ ثم دخل في صفقات لحسابه الخاص. وبطبيعة الحال، عندما يحملك التيار، ليس عليك إلا أن تستسلم لدفعه، لتُحقّق جمع ثروات هائلة، دون عناء. أما الأنذال الأخسّاء الذين يراقبونك من الضفّة وأنت تمضي منشور الشراع في الريح المواتية فيفتحون أعينهم دهشة؛ ولا يعلمون كيف تمكنتَ من الوصول؛ وإذ تغلي نفوسهم بالحسد، يؤلفون في تجريحك كرّاسات لن تكلّف نفسك عناء قراءتها. وهذا بالضبط ما جرى مع جانو الأب الذي سرعان ما حمل اسم: "السيد دولا جانو تيير"، ثم إنه بعض مضي ستة أشهر اشترى لقب "مركيز"، وقرّر سحب ابنه، المركيز أيضاً، من المدرسة كي يضعه في باريس في أوساط عليّة القوم.

كان كولان ما يزال وفياً، مقيماً على رقة عواطفه، فكتب رسالة لتهنئة صديقه القديم و... "أكتب إليك هذه السطور لأبارك لك ما صرتَ إليه". غير أن المركيز الصغير لم يردّ على تلك الرسالة، فأصبح كولان مريضاً من شدّة الألم والحسرة.

وكان أن استحضر الأب والأم بادئ الأمر مربياً للمركيز الصغير. لكن ذلك المربي، رغم الهيئة الجميلة، لم يكن يعلم شيئاً، ولم يستطع بالتالي تعليم تلميذه أي شيء. وأراد الأب أن يتعلّم ابنه اللاتينية، غير أن الأم لم تكن راغبة في هذا. وجعلا بينهما حَكماً، مؤلّفاً اشتهر حينذاك بفكاهاته الظريفة، فرجواه الحضور للعشاء. فبادره ربّ البيت مباشرة: "يا سيدي، باعتبارك تعلم اللاتينية، وأنك من حاشية البلاط..." لكن

صاحب الفكاهة الجميلة أجابه: "أنا، لا سمح الله، أعلم اللاتينية! أنا لا أعرف أية كلمة لاتينية، وفي هذا الخير كل الخير؛ فمن الواضح أن الإنسان يحسن التكلّم بلغته أفضل بكثير عندما لا تختلط عليه مع لغات أجنبية. وانظر إلى سيّداتنا، ففكرهن ألطف من فكر الرجال، ورسائلهن مكتوبة برقة لا مثيل لها؛ وهنّ لا يتفوقن علينا كل هذا التفوق إلا لجهلهن باللاتينية.

حينذاك قالت السيدة: "- ها! ألم أكن على حقّ؟ أنا أريد أن يكون ابني لامع الفكر، وأن ينجح وسط المجتمع، وكما ترى، فلو تعلم اللاتينية، لن يكون في هذا إلا ضياعه، وهات بالله عليك، أخبرني، هل يمثلون المسرح والأوبرا باللاتينية؟ وهل يتغازل العشاق باللاتينية؟ وهل يترافعون في المحاكم باللاتينية؟" وإذ انبهر زوجها بهذا المنطق السديد تراجع عن فكرته، وتقرّر ألا يضيّع المركيز الصغير وقته في معرفة شيشرون، وهوراس، وفيرجيل. لكن، ماذا سيتعلّم إذن؟ لأنه في جميع الأحوال لا غنى له عن معرفة شيء ما؛ أفلا يستحسن اطلاعه على القليل من الجغرافيا؟ هنا أجاب المربّي على الفور: "وما فائدة ذلك بالنسبة له؟ عندما يودّ سيدي المركيز زيارة أملاكه، ألا يعرف الحوذيون الطرف المؤدية إليها؟ بالتأكيد، لن ينحرفوا به عن الطريق الصحيح. ولا يحتاج الإنسان لمقياس ارتفاع وتحديد اتجاه كي يسافر، ويمكننا الذهاب بكل يسر من باريس إلى أوفيرني، دون أدنى حاجة لمعرفة خطوط الطول والعرض لهما".

أجاب الأب: "- معك حقّ؛ لكني سمعتهم يتكلمون عن علمٍ جميل يقولون له، فيما أظن، علم الفلك.

فاحتدّ المربّي: - يا للتعاسة! ومن يسير على هدي النجوم في هذا العالم؟ ثم ماالداعي لأن يقتل المركيز نفسه في حساب الكسوف، ما دام يجده مسجّلاً في موعده في الروزنامة، التي تعلّمه فوق ذلك الأعياد، وعمر القمر، وأعمار جميع أميرات أوروبا؟".

وكانت الأم من رأي المربّي دون أي تردّد. وكاد المركيز الصغير يطير من الفرح؛ لكن الأب ظلّ متردداً، وقال: "فماذا يجب أن يتعلّم ابني؟" هنا تدخّل الصديق الذي طلبوا مشورته قائلاً: "علّموه أن يكون محبوباً، فمتى تعلّم كيف ينال الإعجاب، أصبح يعلم كل شيء: وهذا الفنّ لا يعلّمه إياه إلا السيدة والدته، دون أن يتكلّف أيٌّ منهما في ذلك أدنى عناء".

لدى سماعها هذا الكلام البليغ، عانقت الأم الجاهل الظريف قائلةً: "يا سيدي، كما هو ظاهر، فأنت أعلم الناس؛ وسوف يكون ابني مديناً لك بكل ما يتلقّاه في تربيته: ولكن، يخيّل إليّ أن لا بأس عليه إذا تعلّم ولو قليلاً من التاريخ". فأجابها:
"- ولماذا يا سيدتي، ما نفع هذا؟ فلا فائدة ولا طرافة إلا إذا عشنا تاريخ كل يوم بيومه. أما التواريخ القديمة كما قال أحد مفكّرينا اللامعين، فليست سوى مجموعة حكايات موضوعة بالاتفاق والتراضي؛ وهي، بالنسبة للمعاصرين، سديمٌ لا يعرف الإنسان كيف يميّز عناصره. وما همّ ابنك إذا كان شارلمان قد أوجد في فرنسا مجلساً من اثني عشر أميراً، وأنّ خَلَفَه من بعده تعتاع؟".

هنا هتف المربّي:

- ما أجمل هذا الكلام! نحن نخنق عقول الأطفال تحت أكداس من المعلومات غير المفيدة؛ أمّا أشدّ العلوم حماقةً، في رأيي، وأقدرها على خنق كل عبقرية، فهو علم الهندسة. فهذا العلم مادته الأشكال، والخطوط، والنقاط، التي لا وجود لها في الطبيعة. وتراهم، نظرياً، بين دائرة وخط مستقيم مماسّ لمحيطها يمرّرون مائة ألف خطٍّ منحنٍ، رغم أنك في واقع الحياة لا تستطيع أن تمرّر بينها قلامة ظفر. بذمّتي، ليست الهندسة سوى نكتة سخيفة".

لم يفهم السيد وحرمه تماماً ما رمى إليه المربّي بقوله ذاك؛ لكنهما أيّداه كل التأييد. فتابع شارحاً:

- الرفيع المقام مثل سيدي المركيز لا يجوز له أن يقضي على نضارة عقله بمثل تلك الدراسات غير المجدية. ولو احتاج في يوم من الأيام لمهندس فذٍّ يرسم له مخطط أراضيه، فالمال لديه كفيلٌ بتأمين عملية المسح تلك بأهون سبيل. وإذا خطر له الكشف عن عراقة نسبه النبيل الممتدّ إلى الأزمنة الغابرة، فليس عليه سوى استدعاء أحد الرهبان البنيدكتيين وينطبق هذا على جميع الفنون. فمن شاء له حسن طالعه أن يولد أميراً، لا يكون رسّاماً، ولا موسيقياً، ولا مهندس عمارة، ولا نحّاتاً؛ لكنه يرعى ازدهار تلك الفنون جمعاء، مشجعاً لها بعظمته وفخامة مركزه. ولا شك أن رعايتها أفضل من ممارستها. يكفيه أن يحسن تذوّقها، والفنانون من جانبهم ينبغي عليهم أن ينشطوا من أجله؛ وهذا مصداق القول بأن أصحاب الرفعة والسموّ (أعني كبار الميسورين) يعلمون كل شيء دون

أن يكونوا قد تعلّموا أي شيء، لأنهم يتعلّمون مع مرور الأيام كيف يصدرون آراء سديدة حول ما يطلبون وما يدفعون ثمنه".

وعقّب من بعده الجاهل الظريف قائلاً:

- لقد لاحظتُ يا سيدتي أن الغاية العليا للإنسان هي النجاح في المجتمع. وأستحلفكِ، هل العلوم هي التي تحقق هذا النجاح؟ وهل دارا لحديث يوماً في مجلس عليّة القوم عن الهندسة؟ أم هل يُطلب إلى أي نبيل أن يعلم النجم المرافق للشمس في هذا اليوم أو ذاك؟ وهل يستعلم أحدٌ في حفل عشاء عمّا إذا كان كلوديون لوشوفليو قد عبر نهر الرين؟!

فردّت المركيزة بحماس وهي التي دخلت المجتمع بمفاتنها:

- لا، قطعاً. ومّا لا شك فيه أن ولدي لا يجوز أن نقضي على ألمعيته بدراسة جميع تلك السخافات، لكن، مع هذا، ماذا نعلّمه؟ إذ من المفيد أن يبرع النبيل الشاب ويلمع نجمه في المناسبات الاجتماعية، كما يقول زوجي. وقد سمعتُ أحد الخوارنة، فيما أذكر، يطري على أحد العلوم باعتباره ألطفها وأسماها، وأنا، من جهتي، نسيت اسم ذلك العلم، لكنه يبدأ، إذا لم أخطئ، بحرف: ن.

- يبدأ بحرف (ن) يا سيدتي؟ لعلك تقصدين علم النبات؟

- كلا، لم يحدثني أبداً عن النبات، إنه... يا ربي، علِمٌ يبدأ بحرف (ن) وينتهي بحرف (ر).

- آه، فهمت يا سيدتي، إنه بالتأكيد علم نسب الشعار! نعم، هو علمٌ عميقٌ جداً، لكنه لم يعد منتشراً في أيامنا هذه بعد أن أقلع نبلاؤنا عن رسم شعارهم على عرباتهم. نعم، كان هذا من أرقى الأمور في الدولة المتمدّنة. علماً بأن هذه الدراسة لا تنتهي: فلم يعد اليوم من حلاّق إلا وله شعاره الخاص، وتعلمين أن كل ما يروج وينتشر يفقد ألقه وبهجته".

في نهاية ذلك النقاش الطويل حول نقاط الضعف والقوة في كل علمٍ على حدة، تقرّر أن يتعلّم المركيز الصغير فنّ الرقص.

والطبيعة التي تأخذ على عاتقها كلّ شيء كانت قد أسبغت عليه موهبة سرعان ما تطوّرت بنجاحٍ مذهل. إذ بات يغني الأشعار الشعبية غناءً لطيفاً. واجتمعت مع هذه

الموهبة السامية ميعةُ شبابه ليصبح محطّ الأنظار، ومعقد الآمال. وأحبّته النساء. كان رأسه يضجّ بالأغاني، فألّف بعضاً منها لمحبوباته الأثيرات، مقتبساً من هذه الأغنية المعروفة، أو هذه، أو تلك. وإذا ما تكسّر العروض الشعري معه زيادةً ونقصاناً، دفع عشرين ليرة ذهبية لتصحيح عَرَج تلك الأغاني. وكان أن أُدرج اسمه في "السجل الأدبي السنوي" جنباً إلى جنب مع لافار، وشوليان وهاملتون، وسارازان، وفواتير.

وتراءى للسيدة المركيزة حينذاك أنها والدة عقلٍ لامع، فراحت تستقبل وجوه باريس على حفلات عشائها. وهذا ما طيّر العقل من رأس الشاب دون تأخير؛ فأتقن كيف يتحدث دون أن يستمع إلى حديثه أحد، وبرع براعة قصوى عندما اعتاد على ألا يكون منه أيّ خير في أيّ أمر. وإذ عاين والده فصاحته البليغة، ندم أشدّ الندم لأنه لم يعلّمه اللغة اللاتينية، إذن لكان بإمكانه أن يشتري له منصباً رفيعاً من مناصب الدولة، بين أهل العلم والتقدير. أما الأم التي كانت عواطفها أسمى وأرفع، فحاولت أن تؤمّن لابنها قيادة فرقة؛ وهو من جانبه راح يمارس الحب بانتظار تحقيق ذاك الأمل المنشود. لكن الحبّ أحياناً أغلى كلفةً بكثير من الحصول على قيادة فرقة. فأنفق الكثير، وفي الوقت نفسه، راح والداه يهدران أموالهما هدراً، رغبةً في تقليد كبار النبلاء.

وكان أن عزمت أمرها ذات يوم جارة لهم، أرملة من عليّة القوم لكن ثروتها متواضعة، فتوكّلت، وعقدت العزم على حماية الأملاك الطائلة للسيد والسيدة دو لاجانو تيير، وحفظها من الضياع، وذلك بالحصول عليها ملكاً شخصياً لها عن طريق الزواج من المركيز الشاب. اجتذبته إليها إذن، واستسلمت لحبّه، واقتادته على مراحل، فسحرته وأخضعته دون عناء. وكانت تجود عليه حيناً بالمديح، وحيناً بالنصيحة؛ كما أصبحت أفضل صديقة للأب والأم. واقترحت جارةٌ عجوز أن يربط الزواج بين الأسرتين. أما الوالدان فقد بهرتهما عظمة هذا الارتباط الفخم، وقبلا العرض بفرحٍ وسرور: وقدّما ابنهما الوحيد لصديقتهما الحميمة. كان المركيز مقبلاً على الزواج من امرأةٍ يذوب في غرامها، وهي مغرمة به. فهنّأه أصدقاء الأسرة، وشرعوا بتدبيج المقالات، إلى جانب تجهيز ثياب الزفاف، والتحضير لقصيدة العرس.

وكان ذات صباح في أحضان الزوجة الفاتنة التي يوشك أن يفوز بها حباً، وتقديراً،

ومودة. وراحا يتذوقان من خلال حديث يقطر عذوبة، وحناناً، وحرارة، تباشير سعادتهما المنتظرة، ثم أخذا يرتّبان شؤونهما لتوفير الحياة الرغيدة الحافلة بالملذات، عندما قطع عليهما ذلك الجوّ الرائق وصيفُ السيدة والدته وهو يدخل مذعوراً، ويهتف: "لديّ أخبار مختلفة عمّا أنتما فيه؛ فقد حضر مأمور التنفيذ وهم يفرغون بيت سيدي وسيدتي من كل ما فيه؛ لقد حجز الدائنون على كل شيء، وسمعتهم يتحدثون عن أمرٍ بإلقاء القبض على سيّدي من طرف المحكمة؛ عفواً، سوف أسرع الآن كي أستوفي رهوناتي المستحقة". فقال المركيز: "ماذا، لماذا، وكيف هذا؛ ما هذه التركيبة الغريبة؟" فقالت الأرملة: "نعم، هيّا سريعاً لمعاقبة أولئك الأوغاد!" وانطلق مسرعاً حتى وصل إلى البيت. كان والده قد اقتيد إلى الحبس، أما الخدم ففرّ كلٌّ منهم في طرف، حاملاً ما قدر عليه. وكانت والدته تجلس هناك وحيدة، دون مساعدة من أحد، دون أيّ عزاء، وهي غارقة في دموعها. لم يكن قد بقي لها سوى ذكرى ثروتها، وجمالها، وأخطائها، ومصروفاتها المجنونة.

وبعد أن بكى الابن طويلاً مع الأم، قال لها بثقة: "ليس لنا أن نيأس، فهذه الأرملة الفتية تحبني بجنون. هي غنية، وكَرَمُها أكبر من غناها، أنا أضمنها لك. سوف أطير إليها الآن، ولن أتأخر عنك كي آخذكِ لتعيشي معنا". وعاد إلى محبوبته، فوجدها في خلوة مع ضابط شاب شديد الظرافة: "ما هذا! هذا أنت يا سيد دولا جانوتيير! ماذا جئت تفعل هنا؟ وهل يترك الابن أمه في مثل هذا الظرف؟ عد إلى تلك المرأة البائسة، وقل لها إنني أريد لها الخير دائماً وأبداً. أنا بحاجة إلى وصيفة، وسوف أفضّلها على غيرها". أما الضابط فبادره:

- يا بنيّ، تبدو لي حسن التكوين؛ فإذا أردت أن تكون من أتباعي، سوف أرتّب لك عملاً مناسباً.

فتملّك المركيز الذهول، وسيطر غضبٌ مجنون على قلبه، وأسرع مفتشاً عن مربيه القديم، فبثّه أوجاعه، وطلب نصائحه. فاقترح عليه مربّيه أن يعمل مثله مربّياً للأطفال. "يا حسرة! لكني لا أعلم شيئاً، لأنك لم تعلّمني أي شيء، فأنت السبب الأول في تعاستي وشقائي"، وراح يجهش باكياً، وهو يحدّثه. وكان أحد النبهاء موجوداً فأشار عليه: "اكتب روايات، فهذا مورد رزقٍ وفير في باريس".

هنا غرق الشاب في حضيض اليأس، وانطلق بأقصى سرعته إلى الخوري الذي كان يتلقّى في الكنيسة اعترافات والدته. وكان ذلك الخوري رجل دين كبير الحظوة، فليس في عهدته سوى نساء المرتبة الاجتماعية الأولى. وحالما رآه، أسرع إلى لقائه قائلاً: "ما هذا! يا إلهي! سيدي المركيز، أين عربتك؟ وكيف حال صحة السيدة المركيزة والدتك؟" حينذاك قصّ عليه الشاب الكارثة التي حلّت بأسرته. ومع انجلاء تفاصيل القصّة، بدأت ملامح الرجل تتحوّل إلى الوقار، واللامبالاة، والفوقية: "يا بنيّ، هذا ما أراده الله لكم. فالثروات لا تفعل شيئاً سوى إفساد العواطف في القلب السليم. هكذا إذن! لقد أنعم الله على والدتك بإنزالها إلى مرتبة التسوّل"

- نعم، يا سيدي.

- هذا أفضل، فهي الآن يمكنها أن تكون على يقين بأنها من الناجين يوم الحساب.

- لكن، يا أبتي، بانتظار ذلك الموعد البعيد، ألا يمكن الحصول على بعض المساعدة في هذه الدنيا؟

- وداعاً، يا بنيّ، هناك إحدى سيّدات البلاط بانتظاري الآن.

وأوشك المركيز أن يقع مغشيّاً عليه؛ لكنه تلقّى المعاملة نفسها تقريباً من جميع أصدقائه، وتعمّق في تعلّم حقيقة الناس في ذلك النهار، أفضل بكثير مما تعلّم طيلة حياته.

وبينما كان يرزح تحت وطأة اليأس، شاهد عربة نقل قديمة مغطاة السقف، تحيط بها ستائر جلدية، ومن خلفها أربع عربات متصلة بها، محمّلة بأكملها، وكان على كرسيّ العربة القديمة شاب يرتدي ثياباً خشنة المظهر، لكن وجهه المستدير المشرق ينمّ عن اللطف والمرح. وكانت زوجته، ذات اللطف والخشونة معاً، تهتزّ إلى جانبه مع تقدّم العربة، التي لم تكن بسرعة عربة صغار الأسياد، ولذلك فقد استغرق ذلك الشاب ما فيه الكفاية في تأمّل المركيز الذي قبع ساكناً، وقد هدّه الألم. وها هو صاحب العربة يهتف: "واه! يا إلهي! أظنّه جانو". لدى سماع اسمه، رفع المركيز نظره، فتوقفت العربة: "نعم، هذا جانو بذاته، هذا جانو!" وقفز ذلك الرجل القصير البدين بوثبة واحدة، وأسرع يعانق زميل طفولته. وتعرّف جانو على صديقه كولان، وغطى الخجل والدموع وجهه. قال كولان: "لقد تخلّيتَ عني، لكن حتى لو أصبحتَ نبيلاً فأنا لن أكفّ عن

حبّي لك". ففاض بجانو التأثر والحرج، وراح يقصّ عليه مأساته وسط البكاء واحتباس النفس. فقال له كولان: "تعال معي إلى الفندق حيث أنزل لتكمل لي البقية؛ هيا، عانق زوجتي، وتعال نتعشّ سوياً".

وسار الثلاثة مشياً على الأقدام، ومن خلفهم عربة البضاعة. "فما هذه العربات؟ أهي لك؟" - نعم، هي لي ولزوجتي. ونحن قد وصلنا الآن من بلدتنا؛ أنا حالياً مدير مشغل للحديد المبيَّض بالقصدير والنحاس. لقد تزوجت من ابنة تاجر غني، تجارته القدور اللازمة للكبار والصغار؛ نحن نعمل كثيراً؛ والله يبارك في عملنا؛ كلا، لم تتغيّر حالتنا، لكننا سعداء وسوف نساعد صديقنا جانو. دعك من لقب مركيز، فجميع ما في العالم من أبّهة لا يعادل الصديق الصدوق. سوف تعود معي إلى البلدة، فأعلّمك مهنتنا، التي ليست كثيرة الصعوبة. سوف أرتب لك موضعاً قربي، وسوف نعيش ببهجة وسرور في قطعة الأرض الصغيرة حيث ولدنا".

وأحسّ جانو الغارق في ذهوله أنه ضائع بين الألم والفرح، بين الحنان والخجل، وراح يقول لنفسه بصوت غير مسموع: "جميع أصدقائي أصحاب الوجاهة والرفعة خانوني، وكولان الذي احتقرته هو الوحيد الذي مدّ إليّ يد المساعدة. يا للدرس البليغ!" وبرعمت طيبة نفس كولان في قلب جانو بذرة الطيبة الفطرية، تلك الطيبة التي لم تخنقها الأوساط الراقية بعد. فشعر بأنه لا يستطيع التخلّي عن والدته ووالده، فقال كولان: "سوف نعتني بوالدتك، أما والدك المغلوب على أمره في الحبس، فأنا أفهم قليلاً في الدعاوى القضائية؛ دائنوه بعد أن يتأكدوا بأنه لم يعد يملك شيئاً، سوف يقبلون بما تيسّر؛ وأنا سوف أتكفل بكل شيء". وما زال كولان حتى أخرج الأب من الحبس. وعاد جانو مع والديه إلى مسقط رأسه، ورجع والده إلى مهنته الأولى. وتزوّج جانو من أخت كولان التي كانت بطيبة شقيقها ومرحه، فأوصلته إلى برّ السعادة. وهكذا تأكّد لجانو الأب، وجانوت الأم، وجانو الابن، بأن السعادة لم تكن يوماً من الأيام في الغرور الفارغ.

أحاديث
متوحش وحامل شهادة في الفقه

الحديث الأول

اصطحب حاكم كايين ذات مرّة متوحشاً جلبه من غيانا، وكان قد وُلد متمتّعاً بكثير من الحسّ السليم، ويتقن التحدّث بالفرنسية. فكان لحامل بكالوريا في الفقه من أهالي باريس شرف تبادل الحديث معه.

حامل الشهادة

حضرة المتوحش، لا بدّ أن تكون قد رأيتَ عدداً كبيراً من زملائك الذين يعيشون بعيداً عن البشر: إذ يقال بأنها الحياة الصحيحة للإنسان، وأن المجتمع لا يعدو أن يكون إفساداً مصطنعاً؟

المتوحش

لم أرَ في حياتي مثل هؤلاء: فالإنسان في رأيي مولود للمجتمع، شأن العديد من الأنواع الحيوانية: وكلٌّ نوع يهتدي بهدي فطرته؛ ونحن جميعاً نعيش داخل المجتمع، في بلدنا.

حامل الشهادة

ماذا! في مجتمع! عندكم إذن مدن جميلة مسوَّرة، وملوك أصحاب بلاط، وعروض، وأديرة، وجامعات، ومكتبات، وملاهي ليلية؟

المتوحش

كلا؛ لكن ألم أسمع منكم من يقول إنه يوجد في عالمكم عرب وقبائل ياجوج وماجوج، وهؤلاء ليس لديهم أي شيء مما ذكرتَ، مع أنهم يؤلفون أمماً غفيرة العدد؟ نحن نعيش مثل أولئك الأقوام. فالعائلات المتجاورة تتبادل العون. ونحن نسكن بلاداً

حارّة، حاجاتنا فيها قليلة؛ ونحصل على طعامنا بسهولة؛ ونتزوج، وننجب أطفالاً، ونربّيهم، ونموت. تماماً كما هي الحال عندكم، مع بعض الاختلاف في مظاهر بسيطة.

حامل الشهادة

لكن، يا سيّد، أنت إذن غير متوحّش؟

المتوحّش

لا أعلم ماذا تعني بكلمتك هذه.

حامل الشهادة

إذا أردت الحق، ولا أنا أيضاً؛ فيجب عليّ أن أفكّر مليّاً في الأمر. نحن نطلق اسم المتوحش على الإنسان صاحب المزاج السيئ، والذي ينفر من مخالطة أقرانه.

المتوحش

سبق وقلت لك إننا نعيش سويّاً كلٌّ في أسرته.

حامل الشهادة

ونطلق صفة التوحش أيضاً على الحيوانات التي لم تدجّن، والتي تعيش في الغابة؛ ومن هنا جاءت تسميتنا لساكن الغابة بالمتوحش.

المتوحش

أنا أمضي إلى الغابة، تماماً مثلكم عندما تريدون الصيد.

حامل الشهادة

فهل تفكّر أحياناً؟

المتوحش

لا يخلو الأمر من بعض الأفكار.

حامل الشهادة

ما أشدّ فضولي لمعرفة أفكارك؛ ما رأيك بالإنسان؟

المتوحش

رأيي أنه حيوان يمشي على قدمين، ولديه ملكة المحاكمة العقلية، والكلام، والضحك، وأنه يحسن استعمال يديه أكثر من القرد. وقد رأيتُ من البشر أنواعاً، فمنهم البيض مثلكم، والحمر مثلي، والسود مثل الذين في بيت حاكم كايين. وتنبت

لكم لحى، وأما نحن فدون لحى: أما السود فلهم وبر، بينما أنت وأنا على أجسامنا شعر. ويقال إن لون الشعر لدى سكان الشمال أشقر دون استثناء: بينما الشعر أسود في القارة الأميركية، وهذا كل ما أعرفه.

حامل الشهادة

لكن روحك، يا سيّد، روحك؟ ما التصوّر لديك عنها؟ من أين تأتيك؟ وما تكون؟ وماذا تفعل؟ وكيف تؤثّر؟ وإلى أين تذهب؟

المتوحش

لا أعلم عنها شيئاً، ولم أرها أبداً.

حامل الشهادة

على فكرة، هل تعتقد بأن الحيوانات آلات خالية من الإحساس؟

المتوحش

إنها، كما تبدو لي، آلات منظمة، ولديها عواطف وذاكرة.

حامل الشهادة

وأنت، أنت يا حضرة المتوحش، ماذا تظنّ أن لديك زيادة عن الحيوانات؟

المتوحش

ذاكرة أعلى مرتبة بكثير، وأفكار أكثر، ثم، كما قلت لك، لغة تتألف من أصوات أكثر بما لا يقبل المقارنة مع لغة الحيوانات، ويدان أكثر مهارة، وملكة الضحك التي يفجّرها عندي المتفلسف عندما تعظم فلسفته.

حامل الشهادة

لكن، عفواً، من فضلك، كيف يتحقق لديك كل هذا؟ وما هي طبيعة فكرك؟ وكيف تحيي الروح جسدك وتحركه؟ وهل تفكر دائماً؟ هل إرادتك حرّة؟

المتوحش

هذه أسئلة كثيرة. تسألني كيف أمتلك ما تكرّم الله وجاد به للإنسان: فكأنك تسألني كيف ولدت. فلا بد، ما دمتُ ولدتُ إنساناً، أن أمتلك الأمور التي يتألف منها الإنسان، مثلما أن للشجرة قشرة، وجذوراً، وأوراقاً. وتريدني أن أعرف طبيعة فكري: لكن أنا لم أهب نفسي ذلك، فلا يمكنني أن أعرف. أما كيف تحرك روحي جسدي: فهذا

أيضاً أجهله. لكأنك تفترض وجوب رؤية أول نابض في ساعتك لترى كيف تشير إلى الوقت. وتسألني إن كنتُ أفكر باستمرار: كلا؛ فأحياناً عندي أنصاف أفكار، مثلما أرى الأشياء عن بعد بغموض؛ وأحياناً تكون أفكاري أقوى، مثلما أرى شيئاً عن قرب فأميّزه تمييزاً أفضل؛ وأحياناً لا تكون عندي أفكار على الإطلاق، كحالي عندما أغمض عينيّ ولا أرى شيئاً. وتسألني من بعد ذلك إن كانت إرادتي حرّة. أنا لم أفهم سؤالك: فتلك أمور تفهمها أنت دون شك، وحبّذا لو تشرحها لي.

حامل الشهادة

أوه! بالتأكيد. لقد درست جميع هذه المواد وأستطيع أن أحدثك عنها شهراً بلا توقّف دون أن تفهم شيئاً. لكن هلاّ أخبرتني، هل تعلم الخير من الشرّ، والباطل من الحقّ؟ وهل تعرف خير الحكومات، وخير عبارة، وحق البشر، والحقّ العام، والحقّ المدني، والقانون الكنسي؟ وماذا كان اسم أول رجل وأول امرأة سكنا أمريكا؟ وهل تعلم القصد من نزول المطر على البحر، ولماذا ليس لك لحية؟

المتوحش

في الحقيقة، أنت يا سيّد، تستغلّ قليلاً اعترافي لك بأن ذاكرتي أقوى من ذاكرة الحيوانات: لأنك ضيّعتني في حشد هذه الأسئلة الكثيرة التي تطرحها عليّ. فأنت تتكلّم عن الخير والشرّ، وعن الباطل والحق: فكل ما يبعث فينا المتعة، كما يبدو لي، دون إيذاء أحد هو خيرٌ كبير وحقٌّ كبير؛ وأما ما يؤذي الناس دون أن يمتعنا، فهو أمر ممقوت؛ وما يمتعنا مع إلحاق الضرر بالآخرين هو خيرٌ آنيّ لنا، لكنه بعيد الخطر علينا، وشرّه كثير على الآخرين.

حامل الشهادة

وتعيشون بهذه المبادئ في مجتمع؟

المتوحش

نعم، مع أهلنا وجيراننا. ودون كبير أسى أو عناء نصل بطمأنينة إلى المائة سنة من العمر؛ والعديد بيننا يصلون إلى مائة وعشرين، ومن بعدها تُخصب أجسادنا الأرض التي أطعمتنا.

حامل الشهادة

تبدو لي على درجة جيدة من الذكاء داخل رأسك؛ لكنني سوف أقلب لك ذلك الرأس. فلنتعشّ سوياً، ولنتابع بعد ذلك نقاشنا الفلسفي بمنهجية.

الحديث الثاني

المتوحش

لقد التهمتُ مأكولات لا يبدو أنها مصنوعة من أجلي، رغم متانة معدتي؛ فقد جعلتني آكل بعد أن اكتفيت من الطعام، وجعلتني أشرب بعد أن لم أعد عطشاناً؛ حتى أن ساقَيَّ لم تعودا بصلابة ما كانتا عليه قبل العشاء، كما أن رأسي أصبح أثقل، وأفكاري أقلّ وضوحاً. أنا لم أشعر أبداً بمثل هذا الهبوط في الهمّة. في بلدي. هنا، كلما وضع المرء شيئاً في جسمه، خسر مقابله من كيانه. قل لي، أرجوك، ما سبب هذه البليّة؟

حامل الشهادة

سوف أخبرك عن هذا. أولاً، حول ما انتهت إليه ساقاك، فلا علم لي بأي شيء عن ذلك؛ ولكن الأطباء يعلمون السبب، ويمكنك التوجّه إليهم والاستفسار منهم. وأما حول ما انتهى إليه رأسك، فهذا أعرفه حقّ المعرفة، وهاك، اسمع. فالروح، نظراً لأنها لا مقرّ لها، فهي تتجمّع في الغدّة الصنوبرية، أو وسط الرأس في المنطقة الفاصلة بين نصفي الدماغ. فالجواهر الحيوانية المتصاعدة من المعدة ترتفع حتى الروح التي لا يمكن لمسها، إذ الجواهر من مادة، بينما الروح ليست كذلك. بالتالي، نظراً لأن الجواهر لا يمكنها التأثير على الروح، أو العكس، فهذا يجعل الروح تشعر بالضغط: وحيث أنها بسيطة التركيب، ولا يمكنها بالتالي الخضوع لأيّ تغيّر، فهي تتغيّر، وتصبح أثقل وزناً، ومتخمة، بعد تناول طعام زائد؛ ومن هنا ما نراه من أن بعض الناس ينامون بعد العشاء.

المتوحش

ما تقوله يبدو في غاية الألمعية والعمق؛ لكن، أرجوك، أن تتكرّم بالتبسيط والتوضيح، حتى أتمكن من الفهم.

حامل الشهادة

أنا قلت كل ما يمكن أن يقال بصدد هذه القضية الكبرى، لكن، كرمى لك، سوف أزيدك شرحاً: فلنتقدم درجة درجة؛ هل تعلم بأن عالمنا هذا أفضل ما يمكن إبداعه من عوالم؟

المتوحش

ماذا! من المستحيل على "الكائن" اللامحدود أن يصوغ ما هو أفضل مما نراه؟

حامل الشهادة

بالتأكيد، فما نراه هو أفضل ما يمكن أن يكون. نعم، صحيح أن الناس ينهب بعضهم بعضاً ويتذابحون؛ لكن هذا يتمّ وهم يمجّدون المساواة واللطف. وقد أجهزوا في الماضي على ما يقرب من اثني عشر مليوناً منكم، أنتم الأمريكيين؛ لكن هذا حصل في سبيل هداية الباقين سواء السبيل. وقام محاسب بجردٍ تبين من خلاله أن البشر، منذ حرب طروادة، التي لا تعرفها، وحتى حرب أكاديا، التي تعرفها، قتلوا على أقل تقدير، في معارك منظمة خمسمائة وخمسة وخمسين مليوناً وستمائة وخمسين ألف إنسان، هذا دون حساب الصغار والنساء الذين سحقوا تحت حطام المدن المحترقة؛ وكل هذا في سبيل الخير العام: فلديك أربعة أو خمسة آلاف مرض مميت تصيب بني البشر كي تعرّفهم بأهمية الصحة؛ مثلما أن الجرائم التي تغطي سطح الأرض ترفع إلى أسمى مستوى البشر الأتقياء، الذين أنا واحد منهم. وكما ترى، فكل شيء يسير على خير مايرام، على الأقلّ بالنسبة إلي.

ولكن الأمور ما كان لها أن ترتفع إلى مثل هذا الكمال لولا وجود الروح في الغدة الصنوبرية. والسبب... عفواً، دعنا نمش خطوة خطوة: ما هي فكرتك حول الشرائع، وحول العدل، والظلم، والجمال؟

المتوحش

ولكن، يا سيد، رغم مماشاتك خطوة خطوة، فأنت تحدثني عن مائة موضوع دفعة واحدة.

حامل الشهادة

فما من كلام آخر عند تجاذب أطراف الحديث. وهات، قل لي، من وضع الشرائع في بلدك؟

المتوحش

المصلحة العامة

حامل الشهادة

هذه الكلمة معناها كبير، ولا نعرف كلمةً تفوقها زخماً: فكيف تفهمها، إذا تكرّمت؟

المتوحش

أفهمها بأن الذين كانوا يملكون جوز الهند والذرة منعوا الآخرين من التطاول عليها، وأن الذين لم يكونوا يملكون جوز الهند والذرة، اضطروا للعمل كي يكون لهم الحق في الحصول على جزءٍ منها. وكل ما رأيت في بلدي وفي بلدكم يخبرني أنه لايوجد "روح قوانين" غير ذلك.

حامل الشهادة

والنساء، يا حضرة المتوحش، النساء؟

المتوحش

حسناً! النساء؟ أنا أستلطفهن كثيراً إذا كنّ جميلات ولطيفات. وهنّ أعلى قيمة من جوز الهند لدينا؛ لأنهن ثمرة لا نريد للآخرين مدَّ أيديهم إليها: فلا يحقّ لأحدٍ أن يأخذ زوجتي، تماماً مثلما لا يحق له أخذ ولدي. لكن يُقال إن بعض الأقوام يستحسنون مثل هذا: فهم الأسياد؛ وكل سيّدٍ حرٌّ التصرف بما تملك يمينه.

حامل الشهادة

وحق الإرث، وتوزيع الحصص، والوارثون، والأقارب غير المباشرين؟

المتوحش

لا بدّ من حق الإرث. إذ لا يعود باستطاعتي امتلاك حقلي بعد دفني فيه: فأتركه لابني؛ فإن كان لي ولدان، تقاسماه. وفيما أعلم عمّا هو متعارف عليه لديكم، أنكم في أمكنة كثيرة تتركون كل شيء للابن البكر، ولا تتركون شيئاً للصغار: فلا بد أن المصلحة هي التي فرضت هذا التشريع الغريب؛ ويبدو ظاهرياً أن الأبناء البكر هم الذين جاؤوا بذلك التشريع، أو أن الآباء أرادوا أن تكون السطوة للأبناء البكر.

حامل الشهادة

فما هي، حسب رأيك، أفضل التشريعات؟

المتوحش

تلك التي استشيرت فيها إلى أبعد حد مصالح الجميع من أمثالي.

حامل الشهادة

وأين نجد مثل هذه التشريعات؟

المتوحش

في لا مكان، حسبما سمعتهم يقولون.

حامل الشهادة

يجب أن تقول لي من أين جاء البشر في بلادكم. ومن تظنون أنه كان من وراء عمران أمريكا بالبشر؟

المتوحش

ألا إننا نعتقد بأن الله هو الذي جعل بلادنا آهلة بالبشر.

حامل الشهادة

ما هكذا يكون الجواب. أنا أسألك من أيّ بلدٍ جاء أوائل السكان عندكم؟

المتوحش

من حيث جاءت أشجارنا الأولى. أنتم تبعثون في نفسي التسلية، يا حضرات سكان أوروبا، بزعمكم أننا لا نستطيع الحصول على شيء إلا عن طريقكم: لكن لنا الحق الموازي لحقّكم كي نعتقد بأننا آباؤكم، مثلما تتخيّلون أنكم آباؤنا.

حامل الشهادة

فعلاً هذا متوحش يابس الرأس تماماً!

المتوحش

فعلاً هذا حامل شهادة لا يكفّ عن اللغو!

حامل الشهادة

هِي، أنت، هِي! يا حضرة المتوحش، كلمة صغيرة أيضاً.

هل تؤمنون في غيانا بضرورة قتل الناس الذين لا يقولون بأفكاركم؟

المتوحش

نعم، اللهم شرط أنا نأكلهم.

حامل الشهادة

أنت تمزح. والمرسوم البابوي، ما قولك فيه؟

المتوحش

وداعاً.

المتواسيان

راح الفيلسوف الكبير سيتوفيل يقول ذات يوم لامرأةٍ مفجوعة، كان لديها أسبابها الوجيهة للشعور بالفجيعة: «يا مدام، ملكة إنكلترا، ابنة هنري الرابع، كانت مثلك في الشقاء:فقد طردوها من ممالكها؛ وكانت على وشك الهلاك في المحيط بسبب العواصف؛ وقد رأت زوجها الملكي يموت على منصّة الإعدام.» فقالت المرأة: «أنا حزينة من أجلها.» ثم عادت تندب سوء حظّها هي بالذات.

فعاد سيتوفيل يقول: «ولكن، هلاّ تذكرتِ ما جرى لماري ستيوارت: فقد أحبت بكل شرف موسيقياً مقداماً، صداَح الصوت. فقتل زوجُها موسيقيَّها المحبوب أمام عينيها؛ ومن بعد ذلك، أمرت صديقتها وقريبتها الصالحة، الملكة إليزابيث، التي تزعم أنها عذراء، بقطع رأسها فوق منصّة مكّللة بالسواد، بعد أن حبستها ثماني عشرة سنة.»

وأجابت المرأة: «هذا أمر في غاية القسوة»، ثم غرقت من جديد في كآبتها.

فقال المواسي: «ربّما سمعتِهم يتكلمون عن الحسناء جان دونابولي التي أُلقي القبض عليها وخُنقت؟» فقالت المفجوعة: «أتذكّر ذلك بصورة مشوّشة».

فأضاف الآخر: «يجب أن أقصّ عليكِ مأساة حاكمة انزلوها عن العرش على زماني من بعد العشاء، ثم ماتت في جزيرة مهجورة.»

فأجابت المرأة: «أعلم هذه القصة بأكملها».

«عظيم، إذن، سوف أخبرك عما وقع مع أميرة أخرى عظيمة الشأن، وكنت قد علمتها الفلسفة. فهي كان لديها عشيق، مثل جميع الأميرات الجميلات والعظيمات الشأن. ودخل والدها إلى مخدعها فضبط فيه العشيق، وقد التهب وجهه احمراراً وراحت عيناه تقدحان الشرر فكأنهما الياقوت المتوهج؛ كما كانت الأميرة أيضاً متوردّة اللون.

ولم يرتح الأب أبداً لوجه الشاب، فناوله أقوى صفعة عُرفت في منطقته. فتناول العاشق كلابتين من الحديد كسر بهما رأس والد عشيقته، فما شفي من الضربة إلا بصعوبة، وما زال حتى الآن وفي رأسه ندبة من تلك الجروح. أما العاشقة المتيّمة فقفزت من النافذة ممّا تسبّب بخلع قدمها؛ فهي حتى هذا اليوم تعرج عرجاً ظاهراً، رغم قوامها الرائع. وقد حكم على العاشق بالإعدام لأنه حطم رأس أمير من أصحاب العظمة.

ويمكنكِ تخمين الحالة التي كانت الأميرة عليها عندما اقتادوا عشيقها ليعلّق على حبل المشنقة. ولطالما رأيتها عندما كانت في الحبس، فلم تكن لتكلّمني إلا عن مآسيها. » قالت له المرأة: "لماذا إذن لا تريدني أن أفكر بمآسيّ؟" قال الفيلسوف: «لأنه لا يجب التفكير بها، ولأن وقوع النكبات بهذا العدد الكبير من الأميرات العظيمات يستحق منكِ أن تقاومي الوقوع في اليأس والقنوط. فكّري بمأساة هيكوب، وبمأساة نيوبي. » فتنهّدت المرأة قائلة: «آه! ليتني عشت في زمانهما أو في زمان العديد من أولئك الأميرات الجميلات، فلو أردتَ مواساتهن بقصّ مآسيَّ عليهن، فهل تظن أنهن كن استمعن إليك؟ »

في اليوم التالي، فقد الفيلسوف ابنه الوحيد، وكاد أن يموت من شدة الألم. فنظّمت المرأة له جدولاً جردت فيه أسماء جميع الملوك الذين فقدوا أبناءهم، وقدّمت الجدول إلى الفيلسوف؛ فقرأه، ووجده مضبوط المعلومات بكل دقة، لكن ذلك لم يخفّف من غزارة دموعه. وبعد مرور ثلاثة أشهر تلاقى الفيلسوف والمرأة، وأدهشهما أنهما شديدي الميل إلى المرح والابتهاج. وكان أن عملا على رفع تمثال جميل لـ «الزمان»، وأمرا فنُقش على قاعدة التمثال:

[إلى من يواسي]

حوار بين براهماني ويسوعي
حول ضرورة ترابط الأمور

اليسوعي

مما لا جدل فيه أن صلوات القديس فرنسوا إكزافييه هي التي أتاحت لك الوصول إلى هذه الشيخوخة المديدة والسعيدة؟ مائة وثمانون عاماً! فهذا العمر المديد جدير برجال الحقب الأولى في العهد القديم.

البراهماني

سيّدي فونغوكا عاش ثلاثمائة عام، وهذا هو المتوسّط العادي لأعمارنا. نعم، أنا أحترم فرانسوا إكزافييه، لكن صلواته ما كان لها أبداً أن تغيّر من نظام الكون، ولو كان قد وُهب القدرة على إطالة عمر ذبابة للحظة واحدة لا غير أكثر مما قدّر لها ترابطُ الأقدار، لكانت كرتنا الأرضية مختلفة كل الاختلاف عما تراها عليه اليوم.

اليسوعي

أرى لك رأياً عجيباً في ممكنات الحدوث مستقبلاً. أنت لا تعلم إذن بأن الإنسان حرّ، وان إرادتنا تتحكم حسب مشيئتنا بكل ما يجري على سطح الأرض؟ وأؤكد لك بأن اليسوعيين، بمفردهم أحدثوا فيها من جانبهم تغيرات كبيرة.

البراهماني

لا شك عندي في علم الآباء اليسوعيين المبّجلين وقدرتهم؛ إنهم فريق لا يستهان به في هذا العالم، لكن لا أظنّهم يملكون مقاليده.

فكل كائن، كل إنسان، يسوعياً كان أم براهمانياً، هو جزءٌ مكمّل للكون: إنه خاضع للقدر، ولا يتحكّم به. فمن أين أمكن لجنكيز خان الاستيلاء على آسيا؟ إنه مدين بهذا للساعة التي نهض فيها والده من بعد مجامعة امرأته ذات يوم، وللكلمة

التي ندّت عن أحد التتار قبل بضع سنوات. بل إنني، على سبيل المثال، مثلما تراني أمامك، أحد الأسباب الرئيسية في الموت المؤسف للمكم الطيب هنري الرابع، ولذلك تراني ما أنفكّ أتحسّر على هذا الأمر.

اليسوعي

حضرتك تريد أن تضحك معي بكل تأكيد. أنتَ، من وراء مقتل هنري الرابع؟

البراهماني

نعم، يا حسرتي! كان ذلك عام تسعمائة وثلاثين ألف من بدء دوران زحل، وهو ما يوافق عام ألف وخمسمائة وخمسين من عصركم هذا. كنت آنذاك شاباً وطائشاً. وارتأيت الشروع بنزهة قصيرة مبتدئاً السير بقدمي اليسرى بدلاً من القدم اليمنى، على شاطئ مالابار، ومن تلك الخطوة نجم بكل وضوح موت هنري الرابع.

اليسوعي

فكيف حصل هذا، أرجوك؟ لأننا نحن، رغم اتهامهم لنا بمنةً ويسرةً بالتورّط في تلك القضية، ليس لنا بها أية علاقة.

البراهماني

هاكَ كيف رتّب القدر هذا الأمر. فعندما قدّمتُ قدمي اليسرى، كما تشرّفت ورويت لك، أوقعتُ لسوء الحظ صديقي أريبان، التاجر الفارسي، وكان أن غرق. وكان لديه امرأة فائقة الجمال لم تقصّر في الزواج من تاجر أرمني؛ ورُزقت منه بابنة تزوجت من يوناني؛ واستقرّت ابنة هذا اليوناني في فرنسا وتزوجت من والد رافاياك. فلو لم يحصل كل هذا، أنت توافقني بأن شؤون العائلتين المالكتين في فرنسا والنمسا كانت ستتخذ وجهةً جدّ مختلفة. والحروب بين ألمانيا وتركيا كان سينجم عنها نتائج أخرى؛ وهذه النتائج كانت ستؤثر على الفرس، والفرس على الهند. وكما ترى، فالكلّ ارتبط بقدمي اليسرى، التي كانت بدورها مرتبطة بكل مجريات أحداث الكون، الماضية، والحاضرة، والمقبلة.

اليسوعي

سوف أطرح هذه الحجّة على أحد آبائنا الفقهاء، وسوف أنقل إليك الخلاصة.

البراهماني

بانتظار هذا، سوف أقول لك أيضاً إن خادمة جدّ مؤسس رهبنة «فويان» «فأنا قرأت قصصكم»، هي أيضاً أحد الأسباب الضرورية لموت هنري الرابع، مثلما كانت من وراء الأحداث الناجمة عن ذلك الموت.

اليسوعي

تلك الخادمة كانت ذات براعة وتفوّق.

البراهماني

إطلاقاً: بل كانت فتاة بلهاء زرع فيها معلّمها طفلاً. وقد ماتت مدام دولاباريير بسبب هذا حزناً وأسى. وتلك التي حلّت محلّها، على ما يقول مؤرخوكم، هي جدّة السعيد الحظ جان دولاباريير، الذي أسس نظام رهبنة «فويان». وكان أن أصبح رافاياك راهباً داخل ذلك التنظيم. واستمد منهم عقيدة كانت الرائجة حينها، كما تعلم. وقد أقنعته تلك العقيدة بأن اغتيال أفضل ملك في العالم هو من الأعمال الصالحة.

وأما البقية فمعروفة.

اليسوعي

رغم قدمك اليسرى وخادمة جدّ مؤسس رهبنة فويان سوف أظلّ ثابت الرأي بأن فعلة رافاياك الفظيعة كانت ممكناً من ممكنات الحدوث المستقبلية التي كان يمكن ألا تقع: لأن إرادة الإنسان في النهاية تظل حرّة.

البراهماني

لا أعلم ماذا تفهم من قولك «إرادة حرّة»؛ أنا لا أعلّق اهتماماً كبيراً على مثل هذه الأقوال. فكون المرء حراً، معناه أنه يفعل ما يريد، لا أن يريد ما يراد له. وكل ما أعلمه هو أن رافاياك اقترف بحرية، الجريمة التي كانت الشرائع الثابتة قد كرّستها لتصير إلى تحقّق. وكانت تلك الجريمة حلقة صغيرة في السلسلة العظمى للأقدار.

اليسوعي

مهما تحدثت، فأمور هذا العالم ليست بالترابط الذي تظن. فما الذي يتركه، مثلاً على باقي أجزاء الآلة الكونية، حديثنا غير المجدي عند شاطئ بلاد الهند؟

البراهماني

حديثنا، أنت وأنا، هو بكل تأكيد ضئيل الأهمية. لكن لو لم تكن هنا أمامي، لصارت الآلة الكونية بأكملها إلى غير ما هي عليه.

اليسوعي

نيافتك البراهمانية تقدّم ها هنا مفارقة مغضبة.

البراهماني

سماحتك الإنياسية لها الحق أن تتقبّل الأمر كما يحلو لها؛ لكن بالتأكيد ما كان لنا أن نتبادل هذا الحديث لو لم تكن قد حضرت إلى الهند؛ وما كنت لتقوم بهذه الرحلة لولا أن قدّيسك إنياس دوليولا خرج في حصار بمبليون، ولولا أن ملك البرتغال أصرّ بعناد على اجتياز رأس الرجاء الصالح. فذاك الملك البرتغالي، ألم يغيّر وجه العالم بمساعدة البوصلة؟ لكن، كان من اللازم أن يكون رجلٌ من نابولي هو من سبق له اختراع البوصلة. فهل يمكنك بعد هذا أن تقول إن الأمور جميعها لا تخضع خضوعاً خالداً لنظامٍ مستقرّ، يضم، بروابط خفيّة ومتينة، كل ما يولد، وكل ما يتحرّك ويؤثّر، وكل ما يتألم، وكل ما يموت على كرتنا الأرضية؟

اليسوعي

هِي! فماذا يحلّ بممكنات الحدوث المستقبلية؟

البراهماني

ليحلّ بها ما يمكن أن يحلّ! غير أنّ النظام المستتبّ على يدٍ خالدة وقادرة يجب أن يستمر إلى الأبد.

اليسوعي

لكأني بك تبشّر بأنه لا يجوز أن ندعو الله ونبتهل له؟

البراهماني

بل يجب أن نعبده. فما الذي تعنيه بقولك «دعاء»؟

اليسوعي

ما يعنيه جميع البشر: أن يوفق الله رغباتنا ويرضي حاجاتنا.

البراهماني

فهمت. أنتَ تريد أن يحصل البستاني على الشمس في الوقت الذي قدّر الله فيه منذ القدم أن يكون مطر؛ وأن تهبّ من أجل البّحار ريحٌ شرقية عندما يتوجّب أن تنعش الريح الغربية الأرض والبحار.

يا أبتي، الدعاء والصلاة معناهما الخضوع والتسليم. مساء الخير. القدر يناديني الآن لأكون بجانب زوجتي.

اليسوعي

أما أنا فإرادتي الحرّة تستعجلني كي أذهب لإعطاء درس لتلميذ فتيّ.

الدنيا على ما هي عليه
«مشاهدات بابوك كتبها بخطّ يده»

من بين الجان الذين يملكون مقاليد الدنيا، يعتبر إيتوريبيل في المراتب الأولى، فهو مسؤول عن مراقبة شؤون آسيا العليا. نزل ذات يوم إلى مسكن الياجوجي بابوك، على ضفة نهر الأوكسوس، وقال له: «أيْ بابوك، مظاهر الجنون والغلوّ لدى الفرس أثارت غضبنا؛ وقد انعقد بالأمس مجلس لجميع الجان في آسيا العليا لمناقشة ما إذا كان الواجب يقضي بالاقتصاص من العاصمة برسيبوليس أو بتدميرها كليّاً. هيّا إلى تلك المدينة، تفحّص كل شيء فيها؛ من بعد ذلك، ارجع وقدّم لي تقريراً صادقاً ونزيهاً؛ وسوف أحزم أمري، استناداً إلى تقريرك، فإمّا نقوّم الاعوجاج في المدينة وإما نقضي عليها ونسحقها. فقال بابوك، بتسليم وتواضع: لكن يا مولاي، أنا لم أذهب أبداً إلى بلاد فارس؛ ولا أعرف فيها أحداً. - هذا أفضل، قال الملاك السماوي، لأنك لن تكون منحازاً في حكمك على الأمور؛ لقد منحتك السماء التمييز، وأنا أضيف إليه هبة نيل ثقة الآخرين؛ تجوّل، راقب، استمع، عاين، ولا تخش شيئاً: ففي كل مكان سوف تكون على الرحب والسعة.»

امتطى بابوك ظهر بعيره وانطلق مع خدمه. ومن بعد مسيرة أيام، التقى عند تخوم سهول سينار جيش الفرس المتوجّه لمحاربة الجيش الهندي. وكان أوّلَ من توجّه إليه يسأله جنديٌ منعزل عن زملائه. تقدم إليه مستفسراً عن موضوع تلك الحرب. فقال الجنديّ: «وحقّ جميع الآلهة، لا أعرف شيئاً. فهذه قضية لا تعنيني؛ إذ أن مهنتي هي أن أقتل وأُقتل لأكسب رزقي؛ وسيّان عندي من أحارب في صفّه. بل يمكنني من الغد الانتقال إلى صف الهنود لأنهم، على ما يقال، يعطون نصف درهم كل يوم لجنودهم أكثر مما نتقاضى في هذه الخدمة المقيتة لدى الفرس. إذا أردت أن تعلم لماذا يدور القتال، يجب عليك سؤال قائدي.»

وإذ قدّم بابوك هديّة للجندي، فقد تركه يدخل إلى المعسكر. وسرعان ما تعرّف إلى القائد، واستفسر منه عن موضوع الحرب. «كيف تريدني أن أعلم هذا؟ قال القائد، وما أهمية هذا الموضوع لي؟ فأنا أسكن على بعد مائة ميل من برسيبوليس؛ وسمعتهم يتحدثون عن إعلان الحرب فأسرعت تاركاً أسرتي ومضيت أسعى، حسب عاداتنا، إلى الثروة أو إلى الموت، حيث إنني لم يكن لدي من عمل يشغلني . قال بابوك:- لكن أليس زملاؤك أكثر اطلاعاً منك، ولو قليلاً؟ قال الضابط:- كلا، وليس هناك سوى قادة الجيش، فهم وحدهم يعلمون لماذا نتذابح.»

وإذ شعر بابوك بالدهشة، استطاع أن يدخل لمقابلة قادة الجيش؛ كما استطاع إشعارهم بالألفة والتفاهم. فكان أن حصل من أحدهم، آخر الأمر، على هذا التوضيح: «سبب هذه الحرب، التي تنشر الحزن والأسى في آسيا منذ عشرين عاماً، يعود أساساً إلى مشاجرة وقعت بين مخصيٍ يعمل في خدمة إحدى زوجات ملك الفرس العظيم ومستخدم يعمل في مكتب ملك الهند العظيم. وكان الحق المتنازع عليه لا يتعدى جزءاً يسيراً من ليرة الذهب الدريوسية. لقد وقف ملك الهند وملكنا بكل إباء، كلٌّ منهما إلى صفّ المستخدم التابع له. واحتدم النزاع. فحشد كل طرف للحرب جيشاً قوامه مليون جندي. وفي كل عام يتمّ تطويع أكثر من أربعمائة ألف رجل لاستكمال النقص في الجيش. وكثرت المجازر، والحرائق، والتدمير، والاجتياحات؛ وأصبح الناس في مشقة ومعاناة، لكن شدّة الهياج ظلّت على حالها. وغالباً ما يعترض كبير وزرائنا وكبير وزراء الهند ويؤكدان بأن الأمر لا يعدو أن يكون لما فيه سعادة الجنس البشري، ومع إلقاء كل خطاب من تلك الخطابات يجري تدمير بعض المدن، وتخريب بعض الأقاليم.»

في اليوم التالي، مع انتشار شائعة تقول إن الصلح سوف ينعقد لواؤه، عجّل القائد الفارسي والقائد الهندي بإعلان بدء المعارك؛ وكانت دامية. وقد رأى بابوك كل ما فيها من أخطاء وفظائع؛ فشاهد مناورات كبار الضباط للإطاحة بقائدهم وقتله. وشاهد الضباط يُقتلون على أيدي فرقهم بالذات؛ وشاهد جنوداً يُجهزون على زملائهم المحتضرين ذبحاً وذلك للاستيلاء على بعض الأسمال الملطخة بالدم، الممزقة، المغطاة بالوحل. ودخل إلى المستشفيات التي كان الجرحى يُنقلون إليها، وكان معظمهم يلفظون فيها أنفاسهم بسبب الإهمال اللاإنساني من طرف أولئك الذين كان ملك الفرس يدفع

لهم غالياً للقيام بالمواساة والعلاج. فهتف بابوك: «هل يكون هؤلاء من البشر أم من الوحوش الضارية؟ آه! أرى بوضوح أن برسيبوليس سوف يُصار إلى تدميرها.»

وإذ شغلته هذه الفكرة، فقد انتقل إلى وسط الهنود. فاستُقبل لديهم بمثل الترحيب الذي استُقبل به من طرف الفرس، تماماً مثلما كانت الأقدار قد رُسمت له مسبقاً؛ لكنه شاهد هناك جميع التجاوزات ذاتها التي كانت قد ملأت نفسه شعوراً بالهول والفظاعة. فقال لنفسه: «أواه! أواه! إذا كان الملاك إيتوريبل يريد إبادة الفرس، فيجب بالتالي على ملاك الهند أن يبيد الهنود أيضاً.» ثم قام بتجميع المعلومات بدقة أكبر حول جميع الجزئيات الصغيرة، مما جرى في الجيشين على حدٍّ سواء، ففوجئ بأعمال تدل على الجود والكرم، وعلى عظمة النفس، وعلى الإنسانية، وأكبرَ تلك الأعمال التي تستحق الثناء الباهر. وهتف: «يا للبشر المستعصين على أي تفسير، كيف يمكنهم جمع كل تلك السفالات مع هذه العظمة والسمو، وكلّ هذه الفضائل مع تلك الجرائم؟»

في غضون ذلك، تم عقد الصلح. وتوجّه قائدا الجيشين، اللذان لم يحرز أيٌّ منهما النصر، لكنهما أهرقا لمصلحتهما لا غير دماء ذلك العدد الغفير من الرجّال، من نظرائهم، كلٌّ إلى بلاط ملكه لاقتناص المكافآت والهبات. واحتُفل بالصلح بنشر مراسيم عامة لا حديث فيها إلا عن رجوع الفضيلة والنعيم على الأرض. فقال بابوك: «الحمد لله! سوف تكون برسيبوليس مهد البراءة الطاهرة؛ ولن تصير إلى دمار كما كان يودّ الجان الأشقياء: هيّا سريعاً دون تأخير إلى تلك العاصمة الآسيوية.»

ووصل إلى تلك المدينة المترامية من المدخل العتيق، الذي كان في منتهى التخلف والذي يؤذي منظره البالي المقرف عيون الناظرين. كان ذلك القسم من المدينة بأكمله يشير ؟إلى الأزمنة الغابرة التي تم خلالها بناؤه؛ إذ، رغم مكابرة البشر حين يمتدحون ماهو غابر على حساب ما هو حديث وعصري، لا مهرب من الإقرار بان المحاولات الأولى في جميع الميادين تبقى دائماً محاولات فجّة وبدائية.

وها هو بابوك يختلط بجمهورٍ من أوسخ وأقبح ما يمكن أن يكون لدى الجنسين من ذكرٍ وأنثى على حدٍّ سواء. وكان ذلك الجمهور يتدافع بهيئة تنم عن البلاهة والتبلّد داخل بناء مسوّر ومعتم. كانت دمدمات الجمهور متواصلة، ولاحظ الحركة التي لاتهدأ، كما لاحظ المال الذي يدفعه بعضهم لبعض للحصول على حق الجلوس، فخُيّل إليه بأنه

في سوق لبيع كراسي القش؛ لكنه سرعان ما اكتشف بأنه في معبد، برؤيته للعديد من النساء اللواتي كن يركعن، متظاهرات بتثبيت أنظارهن إلى الأمام، بينما هنّ في الحقيقة يراقبن الرجال من زاوية العين. وكانت أصوات حادة، خشنة، متوحشة، متنافرة، تدوّي أصداؤها تحت القبّة العالية مرجّعةً أنغاماً سيّئة المخارج، فكأنها أصوات نهيق الحمير الوحشية عندما تتجاوب مع صداح الأبواق المصنوعة من قرون التيوس. وها هو يسدّ أذنيه؛ لكنه أصبح جاهزاً ليسدّ أيضاً عينيه وأنفه، عندما رأى عمالاً يدخلون إلى المعبد، ومعهم ملاقط ورفوش. وراحوا يزيحون حجرة ضخمة، ويرمون يمنةً ويسرةً تراباً تفوح منه رائحة طاعونية قاتلة؛ ومن ثم وضعوا في تلك الحفرة أحد الأموات، وأعادوا الحجرة من فوقها.

هتف بابوك: «ماذا! هؤلاء الأقوام يدفنون موتاهم في الأماكن نفسها حيث يعبدون الآلهة! ماذا! معابدهم مرصوفة بالجثث! لم أعد أستغرب الأمراض الطاعونية الفتّاكة التي غالباً ما تزرع الحسرة في برسيبوليس! يبدو أن الملائكة إنما يريدون تدميرها ليعيدوا بناءها في حلّةٍ قشيبة أجمل وأبهى، وكي يجعلوها آهلة بسكان أنظف وأعذب غناء. نعم، للعناية السماوية أسبابها؛ فلندعها تفعل ما تشاء.»

في غضون ذلك كانت الشمس تقترب من ذروة مجراها، وكان على بابوك أن يتوجّه لتناول العشاء في الطرف الثاني من المدينة، في بيت سيدة كان زوجها، الضابط في الجيش، قد كلّفه بتسليمها بعض الرسائل. فقام بدايةً. بجولات عديدة في برسيبوليس؛ وشاهد معابد أفضل عمراناً وأفضل زخرفة، مليئة بجمهور مهذّب، وتتجاوب في أرجائها موسيقا متناغمة؛ وشاهد سبل ماء لعامّة الناس، كانت، رغم سوء مواقعها، تلفت الأنظار بجمالها؛ وساحات تنتصب فيها تماثيل برونزية لخيرة الملوك الذين حكموا بلاد فارس، وكانت تلك التماثيل تبدو وكأنها تكاد تنطق بالحياة؛ وساحات أخرى يرتفع فيها هتاف الشعب: «متى نشاهد هنا السيّد الذي نمجّد ونحبّ؟» وأبدى إعجابه بالجسور الرائعة الممتدة فوق النهر، والشوارع المحاذية للنهر الفائقة الفتنة والمريحة كل الراحة، والقصور المبنية على اليمين واليسار، كما شاهد بإعجاب داراً هائلة حيث الآلاف من الجنود الجرحى المعمَّرين، والذين أحرزوا انتصارات، يرفعون كل يوم آيات الشكر لربّ الجيوش. أخيراً، دخل إلى بيت السيدة التي كانت تنتظره

لتناول العشاء مع مجموعة من أشراف الناس. كان البيت نظيفاً ومزخرفاً، والعشاء لذيذاً، كما كانت السيدة الشابة، جميلة، رقيقة، لطيفة المعشر، وكان المدعوون من المستوى اللائق بها؛ وراح بابوك يقول لنفسه دون توقف: «الملاك إيتورييل يسخر من الناس إذ يريد تدمير مثل هذه المدينة الساحرة.»

لكن هذا لم يمنعه من أن يلاحظ أن السيدة، التي بدأت بالاستفهام منه بكل رقة عن أخبار زوجها، راحت تتكلم برقة أكبر، عند نهاية العشاء، مع أحد المرازبة الشبّان. ثم جاء قاضٍ لم يتورّع، بحضور زوجته، عن محاصرة إحدى الأرامل بكل حيوية، أما تلك الأرملة المتسامحة فلفّت ذراعاً حول عنق القاضي، بينما كانت ذراعها الأخرى ممدودة لمواطن شاب شديد الجمال، شديد التواضع. وكانت زوجة القاضي أول من نهض عن المائدة، لتختلي في حجرة مجاورة مع مديرها، الذي وصل بعد تأخر زائد، وكانوا قد انتظروه على العشاء إلى أن وصل؛ وذلك المدير، الشديد الفصاحة، حدثها في تلك الحجرة بكثير من الاندفاع والعذوبة حتى إن السيدة، لدى رجوعها، كانت براقة العينين، ملتهبة الوجنتين، مضطربة المشية، متهدّجة الكلام.

حينذاك عاد بابوك يتخوّف من أن يكون الجنّي إيتورييل قد أصاب كبد الحقيقة. وبالفنّ الذي كان لديه في اجتذاب الثقة، استطاع في ذلك اليوم بالذات أن يطّلع على أسرار السيدة صاحبة البيت؛ فقد أسرّت إليه بميلها إلى المرزبان الشاب، وطمأنته إلى أنه سوف يجد في جميع بيوتات برسيبوليس ما يعادل ما رآه في بيتها. فاستخلص بابوك بأن مثل هذا المجتمع لا يمكن له الاستمرار على قيد الحياة؛ فالغيرة، والشقاق، والانتقام، لا بدّ لها من أن تنكب جميع البيوت؛ وأن الدموع والدماء لا بدّ أنها تجري على مدار الأيام؛ وأن الأزواج لا غنى لهم، بالتأكيد، عن قتل عشاق زوجاتهم، أو أنهم يُقتلون على أيديهم؛ وفي النهاية، فلا بدّ وأن إيتورييل يُحسن صنعاً إذا ما دمّر بضربة قاصمة مثل هذه المدينة التي هي باستمرار رهن الخلافات المستمرّة؛ والفوضى.

وكان مستغرقاً في تلك الأفكار المشؤومة، عندما وقف على الباب رجل رصين، يرتدي معطفاً أسود اللون، وطلب بكل تواضع أن يتكلّم مع القاضي الشاب. وهذا الأخير، دون أن ينهض، دون أن ينظر إليه، أعطاه باعتزاز، وبهيئة لا مبالية، بعض أوراق، ثم صرفه. وسأل بابوك من يكون ذلك الرجل. فأجابته سيدة البيت وقد خفضت

صوتها: «هذا أحد أفضل المحامين في المدينة، وقد مضى عليه ما يقرب من خمسين عاماً في دراسة القوانين.

أما السيد القاضي الذي لا يتجاوز عمره خمسة وعشرين عاماً، والذي تسلّم منصب القضاء منذ يومين، فأعطاه الأوراق ليلخّص له دعوى يجب عليه البتّ بشأنها، ولم يدرسها بعد. قال بابوك:- هذا الشاب الطائش يتصرّف بحكمة إذ يطلب النصح من شيخ محنّك، لكن لماذا لا يكون ذلك الشيخ هو القاضي؟ - أنت تمزح، قيل له، فليس من الممكن أبداً لمن أفنوا عمرهم في الأعمال المضنية والثانوية أن يتسنّموا سدّة المناصب الرفيعة. هذا الشاب حصل على منصبه الكبير، لأن والده واسع الثراء، وأن حق القضاء هنا يُشترى تماماً كما يكون استئجار الملكيات الزراعية. - يا لها من عادات! يا للمدينة الشقيّة! هتف بابوك، هذه أقصى حالات الفوضى؛ ودون شك، فمن اشترى على هذه الصورة حقّ الجلوس في كرسي القضاء لا بدّ له من أن يبيع أحكامه؟ أنا لا أرى هنا سوى مهاوي الظلم والبعد عن الإنصاف.»

وإذ عبّر عن ألمه وشعوره بالدهشة، تصدّى للردّ عليه مقاتل شاب، كان قد عاد في ذلك اليوم بالذات من الجيش: «لماذا لا يروق لك أن تُشترى مناصب القضاء؟ أنا شخصياً، اشتريت بحرّ مالي حقّ مجابهة الموت على رأس ألفين من الرجال أنا القائد لهم؛ لقد كلفتني العملية أربعين ألف ليرة ذهبية هذه السنة، ونمتُ على الأرض ثلاثين ليلة على التوالي بثياب مضرّجة بالدم، وتلقيتُ من بعد ذلك ضربتين بالسهام لا أزال أشعر بوجعهما. فإذا أنفقتُ حتى الإفلاس لخدمة الإمبراطور الفارسي، الذي لم تقع عيني عليه أبداً، لا بدّ وأن يكون للقاضي الحقّ في دفع مبلغ ما ليتمتع بالتربّع على سدّة القضاء والاستماع إلى المترافعين.» شعر بابوك بالاستياء والإهانة، ولم يستطع أن يمنع نفسه من أن يدين في أعماق نفسه بلداً يضعون فيه بالمزاد أرفع مناصب الحرب والسلم؛ واستخلص على عجلٍ بأنهم دون شك يجهلون في تلك البلاد جهلاً تاماً شؤون الحرب والقوانين؛ وأنهم، حتى لو لم يعمل إيتوريل على تدميرهم، سوف يهلكون بسبب إدارييهم البغيضين.

وتعاظم هذا الرأي السلبي لديه لدى وصول رجل ضخم الجثة،اقترب، بعد تحية ذلك المحفل بكل ألفة، من الضابط الشاب، وقال له: «لا أستطيع إقراضك سوى

خمسين ألف ليرة ذهبية، لأن جمارك الإمبراطورية، للحق والحقيقة، لم تجلب لي إلا ثلاثمائة ألف هذه السنة.» واستفهم بابوك من يكون ذلك الرجل الذي يربح مثل ذلك المبلغ البسيط لا غير ويشتكي بسبب هذا؛ فعلم أن في برسيبوليس أربعين ملكاً من السماسرة يضعون أيديهم، استئجاراً، على إمبراطورية فارس، ويقدّمون حصّة ضئيلة إلى العاهل الملكي.

من بعد العشاء ذهب إلى أحد أفخم معابد المدينة؛ وجلس وسط رهط من النساء والرجال كانوا قد حضروا لتمضية الوقت هناك. وظهر مرزبان مجوسي فوق منصة مرفوعة عالياً، وتحدث مطوّلاً في أمور الفضيلة والرذيلة. فقسّم ذلك المرزبان إلى أقسام متعددة ما لم تكن تدعو الحاجة إلى تقسيمه؛ وبرهن بمنهجية كل ما كان جلياً بوضوح، وعلّم كل ما كان معلوماً من الجميع. وكان بارد الحماسة، لكنه خرج غارقاً في العرق، متقطّع الأنفاس. حينذاك استيقظ الحاضرون وظنّوا أنهم حضروا وعظاً إرشادياً. فقال بابوك: «هذا رجل بذل جهده ما استطاع كي يضجر مائتين أو ثلاثمائة من مواطنيه؛ لكنه كان حسن النوايا، وليس في هذا ما يستوجب تدمير برسيبوليس.»

لدى الخروج من ذلك المحفل، أخذوه ليتفرّج على العيد الرسمي الذي كان منعقداً على مدار أيام السنة؛ وكان ذلك في ما يشبه البهو الفسيح، حيث يُشاهد في نهايته قصر. هناك اصطفت أجمل مواطنات برسيبوليس، وأرفع ولاتها شأناً، بشكل منظم ومتناسق يُقدم للناظر مشهداً في آية الجمال حتى خُيّل لبابوك بادئ الأمر أن ذلك المشهد هو العيد بأكمله. لكن سرعان ما برز من شرفة القصر شخصان أو ثلاثة كما لو كانوا ملوكاً وملكات؛ كانت لغتهم مختلفة كثيراً عن لغة الشعب؛ فهي لغة متوازنة، منسجمة، رفيعة. فلم ينم أحد، بل أصغى الجميع بصمت عميق، لم يكن تقطعه سوى مظاهر التعبير عن التأثر والإعجاب بين الحاضرين. هنالك دار الحديث عن واجب الملوك، وحب الفضيلة، ومزالق الشهوات، بكلمات من البلاغة وقوة التأثير. بحيث سالت الدموع من عينيّ بابوك. ولم يخالجه أدنى شك بأن أولئك الأبطال والبطلات، أولئك الملوك والملكات الذين سمعهم لتوّه، لا يمكن أن يكونوا إلا من خيرة مبشّري الإمبراطورية؛ وأسّر حتى أن يعمل على حضور إيتورييل للاستماع إليهم، إذ كان على يقين بأن حضوره مثل ذلك المحفل سيكون كفيلاً بمصالحته مع المدينة إلى أبد الآبدين.

من بعد انتهاء ذلك العيد على الفور ، أراد رؤية الملكة الرئيسة، التي ألقت في ذلك القصر الجميل تلك الموعظة الأخلاقية الطاهرة النبيلة، بأسمى ما تكون الطهارة وما يكون النبل. فاستأذن في الدخول على جلالتها؛ وكان أن أخذوه عن طريق درج صغير، إلى الطابق الثاني، فإذا هو في شقة سيئة التجهيز بالمفروشات، أمام امرأة سيّئة الهندام، قالت له بلهجة نبيلة مؤثرة: «هذه المهنة لا تعطي ما أسدّ به رمق العيش، ومن بين الأمراء الذين رأيتهم واحد أقام معي علاقة وأنا حامل منه؛ ولن يطول وقت الولادة؛ غير أني أفتقر إلى المال، ودون مال لا يمكن إتمام الولادة.» فأعطاها بابوك مائة ليرة ذهبية، قائلاً: «إذا لم يكن في هذه المدينة سوى هذه العلّة، فلن يكون إيتوريبيل محقّاً إذا ما غضب منها غضباً كبيراً.»

ومن هناك مضى لتمضية سهرته لدى تجار تحف لا تسمن ولا تغني. وقد أخذه إليهم رجل ذكي، كان قد تعرّف إليه؛ فاشترى ما راق له، وباعوه بكل كياسة أغلى من السعر الحقيقي. ولفت صديقه، بعد العودة إلى البيت، نظره إلى أيّ حد غشّوه في الأسعار. ولذلك سجّل بابوك في دفاتره اسم التاجر ليكون على رأس القائمة عندما يأتي إيتوريبيل لمعاقبة المدينة. وبينما كان يسجّل الاسم، قُرع باب بيته: وكان الطارق التاجر المذكور ذاته وقد حضر ليعيد إلى بابوك كيس نقوده، الذي نسيه سهواً لديه. هتف بابوك متعجباً: «كيف يمكن أن تكون بمثل هذا الوفاء والكرم وأنت لم تخجل من بيعي أشياء تافهة أغلى أربع مرات من سعرها الحقيقي؟ فأجابه التاجر: - لن تجد بائعاً واحداً من المعروفين قليلاً، كان سيرفض أن يأتي ليُرجع لك كيس نقودك؛ لكنهم غشّوك عندما قالوا لك إنني بعتك ما أخذت من حانوتي أغلى أربعة أضعاف: بل أنا بعتك أغلى عشرة أضعاف، وإذا أردتَ في مدى شهر أن تبيع ما اشتريت فلن تحصل حتى على عُشر ما دفعت. لكن لا يوجد ما هو أكثر عدلاً وإنصافاً: فرغبة الناس هي التي تفرض سعر تلك الأشياء الخفيفة؛ وهذه الرغبة هي التي تساعد على تأمين رزق مائة عامل أستخدمهم، وهي التي أعطتني داراً جميلة، وعربة مريحة، وأحصنة، وهي التي تحرّك عجلة التصنيع والتي تحافظ على الذوق، وعلى دوران المال، وعلى الازدهار. أنا أبيع للأمم المجاورة الأشياء التافهة نفسها أغلى مما بعتها لك، وأنا عن هذا الطريق أقدم النفع للإمبراطورية.» وها هو بابوك، بعد استرساله قليلاً مع الأحلام، يشطب اسم التاجر من قائمته.

أصبح بابوك في حيرة من أمره، لا يعرف ما الرأي الذي يجب أن يقتنع به فيما يخص برسيبوليس، ولذلك قرر زيارة المرازبة المجوس والأدباء:

إذ هم يدرس بعضهم الحكمة، بينما يدرس الآخرون الدين؛ ودغدغ عواطفه الرجاء بان هؤلاء وأولئك سوف يوفّرون العفو والغفران لجميع السكان.

فانتقل من صباح اليوم التالي إلى مدرسة للمرازبة. فاعترف له القيّم عليها بأنه يتقاضى دخلاً سنوياً مقداره مائة ألف درهم لقاء ما نذر على نفسه من الفقر، وأنه يتمتع بسطوة واسعة الانتشار لقاء ما نذر على نفسه من اتضاع وتسامح؛ من بعد هذا، ترك بابوك بين يدي كاهن صغير، قام بواجب التكريم حياله.

وبينما راح ذلك الكاهن يطوف به ليطّلع على مباذخ مدرسة التوبة تلك، راجت شائعة بأن بابوك قادم لإصلاح شؤون جميع تلك البيوتات.

وسرعان ما انهالت عليه المذكرات من كل بيت ديني؛ وكان مضمون المذكرات جميعها لا يتغيّر: حافظ علينا، ودمّر جميع البيوت الدينية الباقية. فإذا ما تفّهم إطراءهم على أنفسهم، تكون الخلاصة أن تلك الجمعيات الدينية ضرورية بأكملها دون استثناء. أما إذا تفهم اتهاماتهم المتبادلة، فتكون الخلاصة أنهم جميعاً يجب إزالتهم ووقف نشاطهم. وأثار عجبه أنه لا توجد بينها جمعية واحدة إلا وهي تريد، من وراء ستار الوعظ، السيطرة على الدنيا بأسرها. وكان أن جاءه حينذاك رجل صغير القامة، نصف مرزبان، وقال له: «أرى بوضوح أن الوعد سوف يتحقق: لأن زرادشت رجع إلى الأرض؛ والفتيات الصغيرات بدأن ينطقن بالنبوءات، وهنّ يتلقيّن الضرب بالقضبان من أمام وبالسياط من خلف. ولذلك نطلب إليك حمايتنا من شرّ اللاما الكبير. قال بابوك: - ماذا؟ من ذلك الملك الديني المقيم في التيبت؟ - نعم، منه بالذات. - إذن انتم في حربٍ معه، وجيّشتم عليه الجيوش؟ - كلا، لكنه يقول إن الإنسان حرّ، وهذا ما لم نؤمن به أبداً؛ فكتبنا لمهاجمته كتباً صغيرة، لم يقرأها، فهو بالكاد سمع بأخبارنا؛ لكنه اكتفى بأن عمل على إدانتنا تماماً مثلما يأمر الملاّك بتشذيب أشجار بساتينه.»

أحس بابوك برجفة من جنون أولئك الناس الذين يمتهنون تعليم الحكمة، ومن دسائس ومؤامرات من تخلّوا عن الدنيا وزهدوا بها، ومن الجشع المغرور لدى أولئك الذين يعطون دروساً في التواضع والتنزّه عن الأطماع؛ واستخلص بأن إيتوريل كان محقاً عندما فكّر بإبادة هذه الذرّية الفاسدة.

وإذ انسحب إلى بيته، أرسل من يجلب له كتباً جديدة ليخفّف من أشجانه، وطلب إلى عدد من الأدباء التكرّم عليه بالعشاء عنده من أجل استكمال المسرّة والبهجة. فحضر إلى عشائه ضعف من كان قد طلب حضورهم، مثلما تهجم الزنابير على العسل. وكان أولئك الطفيليون على عجلة من أمرهم للأكل والكلام؛ وقد كالوا الثناء لصنفين من الناس، الأموات وهم بالذات، ولم يثنوا أبداً على أحدٍ من معاصريهم، باستثناء رب البيت الذي دعاهم إلى العشاء. وإذا قال أحدهم كلمة طيبة، كان الآخرون يطرقون برؤوسهم ويعضّون على شفاههم غيظاً وألماً لأنهم لم يقولوها هم عن أنفسهم. وكانوا أقل تستّراً من المرازبة، لأنهم ما كانوا يحملون تلك الطموحات الكبيرة. فكلٌّ منهم يقتنص تصيّداً موقع خادم وشهرة رجل عظيم الشأن؛ وكانوا يتجابهون بكلمات جارحة، يُخيّل إليهم أنها علامات ذكاء وألمعية. كانوا قد عرفوا إلى حدٍّ ما المهمة التي أوكل بها بابوك. فتوسّل إليه أحدهم بصوت خافت أن يُهلك مؤلفاً لم يطنب في تقريظه منذ خمسة أعوام. وطلب إليه آخر القضاء المبرم على مواطن لم يضحك قط لدى مشاهدة مسرحياته الكوميدية. وطلب منه ثالث دك الأكاديمية، لأنه لم يتمكن قط أن يكون مقبولاً للانضمام إليها ومن بعد انتهاء العشاء، انصرف كلٌّ منهم بمفرده؛ إذ لم يكن في ذلك القطيع بأكمله اثنان يستطيعان أن يصبر أحدهما على الآخر، ويتحمّل وجوده معه، ولا حتى تبادل الحديث إلا على موائد الأثرياء عندما يُدعون إليها. فكان من رأي بابوك أنه لن يكون ضررٌ كبير إذا ما هلكت تلك الحثالة يوم التدمير الشامل.

حالما تخلّص منهم، استرسل يقرأ عدداً من الكتب الجديدة. فتعرّف من خلالها على عقلية مدعويه. ورأى على الخصوص، باستهجان، تلك النشرات المطوّلة في الغيبة والنميمة، وتلك التصنيفات الخالية من كل ذوق، والتي هي من إملاء الحسد، والدناءة، والجوع؛ وتلك الهجائيات السافلة حيث يراعى جانب العُقاب بينما يُصار إلى تمزيق الحمائم؛ وتلك الروايات المجردة من الخيال، التي تُرسم فيها شخصيات نسائية عديدة لايعرفها الكاتب.

فرمى إلى النار جميع تلك الكتابات البغيضة، وخرج ليلاً يتمشّى قليلاً. فقدّموه إلى أديب متقدّم في العمر لم يحضر إلى مائدته ليزيد من عدد الطفيليين. كان ذلك الأديب يهرب دائماً من الجمهور، فهو يعرف الناس، ويتعامل معهم، إنما دون ضوضاء. وحدّثه بابوك بألم عمّا كان قد قرأ ورأى.

قال له الأديب الحكيم: «لقد قرأتَ أشياء تستحق الازدراء كلّه؛ لكن، في جميع الأزمنة، في جميع البلدان، في جميع الأجناس، يكثُر الرديء ويندُر الجيد. وأنت دعوتَ إلى بيتك حثالة التبجّح والادّعاء، إذ في جميع المهن، أقل الناس كرامة هم أولئك الذين يعرضون أنفسهم دون أدنى احتشام. أما الحكماء بحقّ فيعيشون فيما بينهم معتكفين مطمئنين؛ فهناك ما يزال بيننا رجالٌ ومؤلفات جديرة باهتمامك.» وبينما كان يقول له تلك الكلمات، انضم إليهم أديب آخر؛ فكانت أحاديثهم شيقة ومفيدة، مترفّعة فوق كل الأهواء، متوافقة مع أصول الفضيلة، حتى إن بابوك أقرّ بأنه لم يسمع أبداً شيئاً مشابهاً. وقال بصوت خافت جداً: «هؤلاء رجال، لن يتجرأ إيتورييل على مسّهم بأي أذى، وإلا فهو سيكون من الذين لا يحملون في نفوسهم أدنى شفقة.»

وإذ توافق مع الأدباء، كان لا يزال غاضباً على باقي أبناء الأمة. فقال له الرجل المنصف الذي يحادثه: «أنت غريب؛ فالتجاوزات تحضر أمام ناظريك وفيرة عديدة، بينما الخير، المتخفّي المتستّر، والناتج أحياناً من تلك التجاوزات بالذات، يغيب عنك ولا تدركه.» حينذاك علم أن من الأدباء نفراً ليسوا من الحسودين، وأن من المرازبة أيضاً نفراً من الفاضلين. وكان أن تفهّم في النهاية بأن تلك الجمعيات الكبرى، التي تبدو بمنازعاتها وكأنها تمهّد السبيل لتصير إلى الدمار جميعها، هي في أعماقها مؤسسات للخلاص؛ وأنها بالنتيجة، في تنافساتها، يكبح بعضها بعضاً؛ وأنها حتى إذا اختلفت في بعض الآراء، فهي مجتمعةً تعلّم الأخلاق، وتربّي الناس على الخضوع للقوانين في حياتهم، شأنهم في هذا شأن المربين الذين يسهرون على الأبناء في البيت، بينما الآباء يسهرون عليهم، هم أنفسهم. وقد تعرّف على عدد منهم بالتعامل معهم، ورأى لديهم نفوساً رحمانية طاهرة. وعلم حتى بأن بين المجانين الذين يسعون لمحاربة اللاما - الكبير رجالاً عظاماً.

فتراءى له بأن العادات الاجتماعية في برسيبوليس ربما كانت شبيهة بأبنيتها، فبعضها مثيرٌ للشفقة لضآلة شأنه، بينما بعضها الآخر يثير الإعجاب والافتتان.

وقال للأديب الذي يحاوره: «أعرف حقّ المعرفة أن أولئك المرازبة، الذين خيّل إليّ أنهم شديدو الخطر، هم بالفعل نافعون، خاصة عندما تمنعهم الحكومة الرشيدة من فرض أنفسهم فوق ما يجب باعتبارهم ضرورة قصوى؛ لكنك تقرّ معي بأن قضاتكم الشبان،

الذين يشترون منصب القضاء، فور تعلّمهم ركوب الخيل، لا بدّ لهم من ؟أن يعمّموا في المحاكم أسخفّ الوقاحات، وأفسد المظالم؛ وقد يكون الأجدى دون شك إسناد تلك المناصب مجاناً لأولئك المستشارين الذين أمضوا عمرهم وهم يزينون الجانب الحسن والجانب السيء.»

فأجابه الأديب: «لقد رأيتَ جيشنا قبل وصولك إلى برسيبوليس، وتعلم أن ضباطنا الشبّان يقاتلون بكفاءة عالية، رغم أنهم اشتروا مناصبهم شراءً؛ فلعلّك ترى أن قضاتنا الشبان لا يصدرون أحكاماً خاطئة، رغم أنهم دفعوا ثمن منصب القضاء.»

واصطحبه في اليوم التالي إلى المحكمة العليا، حيث كان عليها إصدار حكم له أهميته. كان الجميع على علم بموضوع القضية. وكان جميع أولئك المحامين المعمرّين الذين يتحدثون عنها يميلون إلى آراء فضفاضة غير واضحة: فراحوا يقدمون مائة قانون لا ينطبق أيٌّ منها على القضية في عمقها الحقيقي؛ وقلّبوا القضية بالنظر من مائة جانب، لا يجلوها أيٌّ منها كما يجب؛ لكن القضاة حزموا أمرهم أسرع مما توهم المحامون. ونال حكمهم الموافقة بالإجماع تقريباً؛ لقد أحسنوا البتّ بالقضية، لأنهم اهتدوا بأنوار العقل، بينما ضلّ الآخرون في آرائهم لأنهم لم يستشيروا إلا كتبهم.

وكان المغزى الذي توصل بابوك إليه هو أنه توجد غالباً أمورٌ حميدة جداً في التجاوزات. ورأى في ذلك اليوم بالذات أن ثروات رجال المال، الذين أثاروا حنقه كثيراً، يمكنها أن تكون من وراء آثار رائعة؛ إذ أن الإمبراطور احتاج للمال، فوجد خلال ساعة، عن طريقهم، ما لم يكن بإمكانه إيجاده خلال ستة شهور بالطرق الاعتيادية؛ ورأى أن تلك الغيوم المتكاثفة، المتضخمة بما تحظى به من أنداء الأرض، تعيد إلى الأرض مطراً ما سبق أن أخذته منها. ومن جانبٍ ثان، كان أبناء أولئك الرجال من حديثي الثروة، غالباً ما يتلقّون تربيةً أفضل من تربية أبناء العائلات الأعرق نسباً، ولذلك فهم يتفوّقون عليهم أحياناً تفوّقاً كبيراً؛ إذ لا شيء يمنع المرء من أن يكون قاضياً صالحاً، ومحارباً باسلاً، ورجل دولة بارعاً، إذا كان من صلب والدٍ يحسن حساب الأمور.

وبدأ بابوك دون أن يشعر يقول بالصفح عن جشع رجال المال، الذين ليسوا في أعماقهم، أكثر جشعاً من باقي البشر، والذين لا غنى عن وجودهم.

وقد أعذر الجنون الذي يدفع إلى شراء حقّ القضاء والقتال بأغلى الأثمان، لأنه جنون يخلق قضاة وأبطالاً. كما غفر للأدباء تحاسدهم، لأن بينهم رجالاً يعملون على تنوير الناس؛ وتصالح مع المرازبة ذوي المطامع والدسائس، إذ كان فيهم من الفضائل الكبيرة أكثر ممّا لديهم من النقائص الصغيرة؛ لكنه كان لا يزال يحمل انتقادات كثيرة تحزّ في نفسه، خاصة حيال غراميات السيدات، وأسباب الأسى المترتّبة عليها، فتلك الأمور كانت تعمر نفسه قلقاً وهلعاً.

ونظراً لأنه كان يريد أن يتغلغل إلى أعماق جميع الحالات البشرية، طلب أن يأخذوه لمقابلة أحد الوزراء؛ لكنه كان لا يزال يرتجف خوفاً وهو في الطريق خشية أن يرى بحضوره مقتل هذه المرأة أو تلك على يدي زوجها. عند وصوله إلى الوزير، جعلوه ينتظر ساعتين قبل الإعلان عن قدومه، بالإضافة إلى انتظار ساعتين أخريين بعد ذلك الإعلان. فعاهد نفسه العهد الأكيد، خلال ذلك الفاصل، بأن يقضي على الوزير وعلى حرّاسه الوقحين معاً. كانت غرفة الانتظار ممتلئة بسيدات من جميع الأعمار والمستويات، بمرازبة من جميع الألوان، بقضاة، بتجّار بضباط، بأدعياء؛ وكان الجميع يشتكون من الوزير. فراح البخيل والمرابي يقولان: «لا شك أن ذلك الرجل ينهب المقاطعات»؛ أما صاحب النزوات فكان يعيب عليه غرابة طباعه؛ بينما رفع صاحب الشهوات صوته قائلاً: «هو لا يفكّر إلا بملذّاته»؛ أمّا المتآمر فكان يعلّل نفسه بأن يراه عن قريب وقد أودت به إحدى الدسائس وجعلته في خبر كان؛ والنساء كن يرجون أن لايطول العهد لتغييره بوزير أكثر شباباً وفتوّة.

راح بابوك يستمع لأحاديثهم؛ فلم يستطع أن يكبح نفسه وقال: «هذا رجل يحالفه التوفيق الكبير؛ فجميع أعدائه يأتون إليه ويجلسون في غرفة الانتظار؛ إنه يسحق بسلطته جميع حسّاده؛ ويرى تحت قدميه جميع من يبغضونه.» ودخل أخيراً لمقابلته: فرأى شيخاً محنيّ الظهر تحت وطأة السنين والمشاغل، لكنه لا يزال ممتلئاً بالحيوية والذكاء.

لقد أعجب ببابوك، كما تبدّى في عينيّ بابوك رجلاً جديراً بالاحترام.

وأصبح الحديث مشوّقاً. فاعترف له الوزير بأنه شديد التعاسة؛ فهم يظنونه غنيّاً، لكنه فقير؛ ويحسبونه قادراً قاهراً، لكنه دائماً يجد من يقطع عليه أعماله؛ وأنه لم

يقدّم المعروف أبداً إلاّ إلى غير أهله من العاقّين، ناكري الجميل، وأنه، على مدى أربعين سنة من العمل المتواصل، حصل بالكاد على لحظة واحدة من العزاء والسلوان. تأثر بابوك مما سمع، وخطر له أن ذلك الرجل إذا كان قد ارتكب أخطاء، وإذا كان الملاك إيتورييل يريد معاقبته، فلا ضرورة للقضاء عليه، وإنما يُكتفى بأن يُترك في منصبه.

وبينما كان يتحادث مع الوزير دخلت دخولاً مباغتاً السيدة الجميلة التي كان بابوك قد تعشى في بيتها. كانت علامات الألم والغضب واضحة في عينيها وعلى جبينها. فانفجرت تلوم رجل الدولة؛ وذرفت دموعاً غزيرة؛ وراحت تشتكي بمرارة لأنهم رفضوا أن يسندوا لزوجها منصباً من حقّه بالمنبت العريق أن يطمح إليه، مثلما أنه يستحقه بخدماته وجراحه في ساحات الحرب؛ لقد عبّرت عمّا في نفسها تعبيراً قوياً جداً، كما زينت شكاواها بلطائف كثيرة، وحطّمت الاعتراضات بمهارة كبيرة، وأثبتت وجاهة أسبابها بفصاحة لا يُشقّ لها غبار، بحيث لم تخرج من مكتب الوزير إلا بعد أن حقّقت لزوجها النعيم المرجوّ.

وصافحها بابوك وهو يقول: «هل من الممكن، يا مدام، أنكِ بذلت كل هذه المشقة في سبيل رجل لا تحبينه، ويجب عليك التخوّف من انتقامه في كل لحظة؟ فهتفت: - رجلٌ لا أحبه! ليكن معلوماً لديك أن زوجي هو أفضل صديق لي في هذه الدنيا، وأنني على استعداد لأضحّي في سبيله بكل شيء، باستثناء عشيقي، وأنه على استعداد للقيام بكل شيء من أجلي، باستثناء التخلّي عن عشيقته. وأنا أريد أن أعرّفك عليها؛ إنها سيدة فاتنة، كلّها ذكاء وشخصيتها من أفضل ما في الدنيا؛ نحن هذا المساء سوف نتعشّى معاً برفقة زوجي ومرزباني الشاب: فتعال وشاركنا بهجتنا.»

واصطحبت السيدة بابوك معها. وعندما وصل الزوج أخيراً غارقاً في الألم، قابل زوجته مجدداً بفورات من الفرح الغامر والعرفان بالجميل. وراح يقبّل على التوالي زوجته، وعشيقته، والمرزبان الشاب، وبابوك. وكان أن ساد في ذلك العشاء روح الألفة، والمرح، والذكاء، والملاطفات. وقالت السيدة التي كان يتعشّى في بيتها: «ليكن معلوماً لديك، أن اللواتي يطلق عليهن أحياناً أنهن غير شريفات هنّ دائماً تقريباً سبب كرامة الرجل الشريف؛ وكي أجعلك تقتنع بهذا، تعال غداً لتتغدّى معي في بيت ذات الجمال تيون. هناك بضع راهبات فستاليات يمزّقنها بألسنة السوء؛ غير أنها

تفعل من الخير أكثر مما يفعلن جميعهن. فهي لا يمكن أن تقترف أبسط ظلم يمس بالمصالح العامة الكبرى؛ ولا تقدم لعشيقها إلا نصائح السخاء والكرم؛ ولا همّ لها سوى تحقيق المجد والفخار له؛ وتراه يحمرّ خجلاً أمامها لو تخلّف يوماً عن فعل الخير والعمل الصالح؛ إذ من أكبر عوامل التشجيع على الأعمال الفاضلة أن تكون الشاهدة والحكم على سلوكك عشيقةٌ تريد لك أن تكون جديراً بتقديرها واحترامها.»

ولم يتخلّف بابوك عن ذلك الموعد. فشاهد داراً تسود فيه جميع الملذّات؛ وكانت تيون السيدة المهيمنة على الجميع؛ فهي تحسن مخاطبة كل فرد باللغة التي يفهمها. وكان فكرها المنطلق على سجيته يبعث الراحة في أفكار الآخرين؛ كانت محطّ الإعجاب، تقريباً دون أن تسعى إلى ذلك؛ وكانت في اللطف والإحسان على حدٍّ سواء؛ ثم، من فوق هذا، وتتويجاً لخصالها الحميدة جميعاً، كانت لها هبة الجمال.

أما بابوك، رغم أنه من أهل ياجوج وماجوج، ورغم أنه مبعوث من أحد الجان، فتنبّه إلى أنه لو أطال المكوث في برسيبوليس لفترة أطول، سوف تُنسيه تيون إيتورييل، وقد بدأ فؤاده يتعلق بحب المدينة، التي كان أهلها يتحلّون بالتهذيب، والنعومة، والإحسان، رغم ما فيهم من خفةٍ، ونميمة، وغرور. وبات يخشى أن تقع الإدانة على برسيبوليس؛ بل لقد بات يخشى من التقرير الذي يجب عليه تقديمه. وهاكم كيف أحسن التخلّص لرفع تقريره. فقد طلب من أفضل صانع سبائك في المدينة أن يسبك له تمثالاً صغيراً مصنوعاً من جميع المعادن، والأتربة والحجارة الكريمة وغير الكريمة؛ ثم حمل التمثال وقدّمه لإيتورييل، وهو يقول: «هل تحطم هذا التمثال الجميل لأنه ليس بأكمله من الذهب والماس؟» وقد فهم إيتورييل ذلك التلميح إيماءً، فقرّر حتى ألاّ يفكر بإصلاح برسيبوليس، وأن يترك «الدنيا على ما هي عليه.»

إذ، على ما قال، «إذا لم يكن كل شيء جيداً، فكل شيء يظلّ مقبولاً». إذن، تُركت برسيبوليس باقية على الأيام؛ ولم يكن لدى بابوك أية شكوى حيال هذا، ولم يفعل كيونس الذي غضب لعدم تدمير نينوى. لكن، بعد أن يقضي الإنسان ثلاثة أيام في بطن حوت، لا بدّ أن يتعكّر مزاجه، وليس كمن توجّه لحضور الأوبرا، والمسرح الكوميدي، ولتناول العشاء مع خيرة الأصحاب.

أميرة بابل

كان بيلوس، ملك بابل، طاعناً في السن، وكان يعتبر نفسه الأول أهميةً على سطح الكرة الأرضية: لأن جميع أفراد حاشيته يقولون له ذلك، ومعهم المؤرخون الذين يبرهنون له على ذلك. وكان العذر له في مثل هذا الاعتقاد السخيف، أن من سبقوه بنوا مدينة بابل قبل ثلاثين ألف عام قبل تسلُّمه للملك، ثم جاء من بعدهم فأحسن تجميل تلك المدينة. ومن المعلوم أن قصره والحدائق الملحقة به، على بعد فراسخ قليلة من بابل، تمتد بين الفرات ودجلة، اللذين يرويان تلك الضفاف الساحرة. أما داره الفسيحة، بواجهتها التي يبلغ طولها ثلاثة آلاف قدم، فترتفع إلى عنان السماء، حتى السحاب. وكان السطح مؤطراً بإفريز من المرمر الأبيض بارتفاع خمسين قدماً، تستقر من فوقه تماثيل ضخمة لجميع ملوك الإمبراطورية وكبار رجالاتها. ذلك السطح ذو الطبقتين من القرميد المغطى بسطح سميك من الرصاص من طرف لطرف، كان مزوّداً بتربة عمقها إثنا عشر قدماً، وفي تلك التربة غرسوا غابات من الزيتون، والبرتقال، والحامض، والنخيل، والقرفة، وجوز الهند، وكبش القرنفل، وتشكل في مجموعها ممّرات لاتخترقها أشعة الشمس.

وتصل مياه الفرات إلى تلك الحدائق المعلقة، مرفوعة بمضخات عبر مائة من الأعمدة المجوفة، فتملأ أحواضاً كبيرة من المرمر، وتعود لتتساقط عبر قنوات أخرى، مشكّلة في حدائق القصر شلالات على امتداد ستة آلاف قدم، مع مائة نافورة يكاد النظر لا يلمح نهايتها في الأعالي: ثم ترجع المياه من بعد هذه الدورة إلى الفرات، حيث كان انطلاقها في البداية. أما حدائق سميراميس التي أثارت دهشة آسيا بعد قرون عديدة، فلم تكن غير نسخة ضعيفة الشأن عن تلك الأعاجيب الغابرة: إذ، في أيام سميراميس، بدأ كل شيء يميل للانحلال والتقهقر بين الرجال والنساء على حد سواء.

على أن أروع ما كان موجوداً في بابل، وما كان يكسف بجماله كل ما سواه، الابنة الوحيدة للملك، واسمها فورموزنت. وانطلاقاً من اللوحات عنها ومن تماثيلها، نحت براكستيل، في الحقب اللاحقة، تمثال أفروديت، والتمثال الذي أطلق عليه اسم: «فينوس الجميلة الردفين». ولكن، بحق السماء، ما أشدّ الاختلاف، بين الأصل والتقليد! وهذا ما جعل بيلوس معتزاً بابنته أكثر من اعتزازه بمملكته. كان عمرها ثمانية عشر عاماً:

ولا بدّ لها من زوج يكون جديراً بها؛ لكن أين يمكن إيجاده؟ وكان أحدُ المتنبئين قد أفاد بأن فورموزنت لن يمكنها أن تكون زوجة إلاّ لمن يستطيع أن يشد قوس نمرود ويرمي به. فذلك النمرود، الصياد القوي أمام مولاه، كان قد خلّف قوساً ارتفاعه سبعة أقدام بابلية، من خشب الأبنوس الأصلب من حديد جبل القوقاز، الذي يشتغلونه في مشاغل الحديد في دير بان؛ ولم يُمكن لأحدٍ من الفانين، بعد نمرود، شدّ ذلك القوس الرائع والرمي به.

وقالت النبوءة أيضاً بأن الذراع التي يُقدّر لها أن تشدّ ذلك القوس، سوف تقتل أرهب وأخطر أسد، يجري إطلاقه في ساحة سيرك بابل. وفوق هذا وذاك: يجب على الرامي بالقوس، وقاتل الأسد، التغلب على جميع منافسيه؛ لكنه يجب أن يتحلّى خاصة بذكاء كبير، وأن يكون من أجمل بني آدم، وأكثرهم فضيلة، وأن يمتلك أندر ما يمكن أن يوجد في الكون قاطبة.

تقدّم ثلاثة ملوك واتتهم الجرأة للتنافس على فورموزنت: فرعون مصر، وشاه الهند، والخان الأعظم لياجوج وماجوج. فحدّد بيلوس يوم ومكان المعركة في أقصى حديقته، في المدى الفسيح المؤطر بملتقى نهري دجلة والفرات. ورفعوا من حول الحلبة مدرّجاً من المرمر يمكنه استيعاب خمسمائة ألف متفرّج. ويرتفع مقابل المدرّج عرش الملك، الذي عليه أن يحضر مع فورموزنت، برفقة جميع رجال البلاط؛ وعلى اليمين واليسار بين العرش والمدرّج، أقيمت ثلاثة عروش ومقاعد للملوك الثلاثة ولباقي الملوك الذين قد يدفعهم الفضول لمشاهدة ذلك الاحتفال العظيم.

كان أول من وصل ملك مصر؛ ممتطياً ظهر الثور آبيس، وممسكاً بيده جنك إيزيس. وجاء من خلفه ألفا كاهن يرتدون ثياباً كتانية أشدّ بياضاً من الثلج، وألفا مخصيّ، وألفا ساحر، وألفا مقاتل.

وسرعان ما وصل ملك الهند في عربة يجرها اثنا عشر فيلاً. وكان أتباعه القادمون معه أكثر عدداً، وأشدّ تألقاً، من رهط فرعون مصر.

أما آخر من أطلّ فكان ملك ياجوج وماجوج. ولم يكن برفقته سوى نخبة من المقاتلين، المسلّحين بالأقواس والسهام. وكانت مطيته صهوة نمرٍ يفوق الوصف كان قد روّضه، وهو بارتفاع أجمل خيول فارس. وكان أن طمست قامة ذلك العاهل، بضخامتها وهيبتها، قامة كلٍّ من منافسيه؛ وتراءى ذراعاه، ببياضهما وعضلاتهما المفتولة معاً، كما لو أنهما بدأتا منذ وصوله بشدّ قوس نمرود.

ركع الملوك الثلاثة بادئ الأمر أمام بيلوس وفورموزنت.

وقدّم ملك مصر للأميرة أجمل تمساحَيْن في النيل، وفرسَيْ نهر، وحمارين وحشيّين، وجرذَيْن من مصر، ومومياءَيْن، بالإضافة إلى كتب هرمز العظيم، وهو ما كان يؤمن بأنها أندر ما هو موجود على سطح الأرض.

أما ملك الهند فقدّم إليها مائة فيل يحمل كلٌّ منها برجاً من الخشب المذهّب، ووضع عند قدميها كتاب «الفيدا»، مكتوباً بخط يد إكزاكا بالذات.

وأما ملك ياجوج وماجوج، الذي لم يكن يحسن لا القراءة ولا الكتابة، فقدم إليها مائة من الخيول الأصيلة، مغطاة بمفارش من فراء ثعالب سوداء.

خفضت الأميرة نظرها أمام عاشقيها، وانحنت برشاقة تساوى فيها النبل والتواضع.

وأمر بيلوس بمرافقة أولئك الملوك، كلٌّ إلى العرش الذي أُعدّ له. وقال لهم: «ليت عندي ثلاث بنات! إذن لكنت حققت اليوم سعادة ستة أشخاص.» من بعد هذا أمر بسحب القرعة لمعرفة أوّل من يتوجّب عليه تجريب عضلاته بقوس نمرود. فوضعوا في خوذة من الذهب أسماء المتقدمين الثلاثة. وكان اسم ملك مصر هو الأول، ثم ظهر اسم ملك الهند وإذ ألقى ملك ياجوج وماجوج نظرة على القوس ثم على غريميه، لم يكن مستاءً بالمرة لكونه الثالث في الترتيب.

وبينما بدأت تحضيرات تلك الامتحانات الباهرة، توزّع عشرون ألف وصيف، وعشرون ألف صبيّة يقدّمون، دون أي خطأ، المرطبات على المتفرجين، مارّين بين صفوف المقاعد. وأقرّ الناس جميعاً بأن الآلهة لم توجد الملوك إلا لتنظيم أيام الأعياد، شرط أن تكون متنوّعة؛ وأن الحياة أقصر من أن تضيع في غير ذلك؛ وأن الدعاوى في المحاكم،

والمؤتمرات، والحرب، وخصومات الكهنة، التي تسمّم الحياة البشرية، هي أمور رهيبة وخارجة عن العقل؛ وأن الإنسان وُلد للفرح؛ وأنه ما كان ليحبّ الملذّات بشغف واستمرار، لو لم يكن وُجد من أجلها؛ وأن جوهر الفطرة البشرية هو الاستمتاع، وأن كل ما سوى ذلك محض جنون. وهذه الأخلاق الرائعة لم يكن لها أبداً من مكذِّب، اللهمّ سوى الوقائع.

وبينما كانوا على وشك البدء بإجراء المحاولات، التي سوف تحسم مصير فورموزنت، حضر شاب مجهول يمتطي حصاناً وحيد القرن، ويرافقه خادم له يمتطي مثله حصاناً بقرنٍ وحيد في منتصف رأسه، وكان الشاب يحمل على قبضة يده طائراً ضخماً، فتقدم أمام منصّة الملك بيلوس. وقد ذهل الحرّاس من رؤية مثل ذلك الشاب بمحيّاه الإلهي، على رأس ذلك الموكب البسيط. فهو، مثلما راحوا يتحدثون عنه فيما بعد، بوجه أدونيس فوق جسم هرقل، إنّه العظمة المهيبة برفقة جميع الألطاف، أما حاجباه الأسودان وشعره الطويل الأشقر، المزيج الغريب الجمال في بابل، فجعلت جميع الحاضرين يفتتنون به: فهبّ جميع الجالسين في المدرّجات وقوفاً لرؤيته بصورة أفضل؛ وحدّقت به جميع نساء البلاط بنظرات مندهشة.

حتى فورموزنت نفسها، والتي كانت مواظبةً على خفض نظرها، رفعت عينيها واحمرّت خجلاً؛ بينما شحب لون وجوه الملوك الثلاثة. وراح جميع المتفرجين يهتفون، بعد المقارنة بين فورموزنت والشاب المجهول: «ليس في الدنيا من يضاهي الأميرة في جمالها سوى هذا الشاب.»

وإذ تملّكت الدهشة حجّاب الملك، سألوه إن كان ملكاً. فأجاب الغريب بأنه لايحمل ذلك الشرف، لكنه جاء من مكانٍ قصيّ جداً على سبيل الفضول ليرى إذا كان هناك من الملوك من هو جدير بفورموزنت. وأدخلوه إلى الصف الأول في المدرّج، وأدخلوا حصانيه، وخادمه، وطائره. فحيّا بيلوس بانحناءة عميقة الاحترام، وابنته، والملوك الثلاثة، وجميع الحفل، ثم جلس في موضعه وقد احمرّ وجهه حياء. واضطجع الحصانان الغريبان عند قدميه، بينما حطّ طائره على كتفه، أما خادمه، الذي كان يحمل حقيبة صغيرة، فجلس إلى جانبه.

وبدأت الاختبارات. هنالك سُحب قوس نمرود من غمده الذهبي.

وتقدم المشرف العام على الاحتفال، يتبعه خمسون وصيفاً ويسبقه عشرون نافخ بوق، وسلّم القوس إلى ملك مصر، الذي أمر كهنته بمباركته، ومن بعد أن وضعه على رأس الثور آبيس، لم يعد لديه شك بانه سوف يحرز النصر الأول.

فنزل وسط الحلبة، وجرّب عضلاته، واستنفد قواه، وراح يتشنج ويتقلّص بحيث أثار ضحك الجمهور في المدرج، وجعل حتى فورموزنت تبتسم.

هنالك، تقدّم منه كبير كهنته، وقال له: «فلتترك جلالتكم هذا الشرف الذي لاقيمة له، والذي لا يعدو أن يكون شرف العضلات والأعصاب؛ بالمقابل، أنتم سوف تفوزون في جميع الاختبارات الباقية. سوف تفوزون على الأسد مادام لديكم سيف أوزيريس. ثم إن أميرة بابل يجب أن تكون للأمير الأذكى، وأنتم حللتم الكثير من الأحاجي. كما يجب عليها أن تتزوج الأكثر فضيلة، وأنتم كذلك، ما دمتم قد تربّيتم على أيدي كهنة مصر. ويجب أن يفوز الأكثر جوداً وسخاءً، وأنتم قدّمتم أجمل تمساحَينْ وأجمل جرذَيْن في الدلتا. وأنتم تملكون الثور أبيس وكتب هرمز، أندر ما في الكون. لاأحد يمكنه أن ينافسكم على فورموزنت.

- «الحق معك»، قال ملك مصر، وعاد يجلس على عرشه. فتوجّهوا ووضعوا القوس بين يدَيْ ملك الهند. لكنه حصد من محاولته فقاقيع لا يمكن أن يشفى منها قبل خمسة عشر يوماً، لكن عزاءه كان افتراضه بأن ملك ياجوج وماجوج لن يكون أوفر حظاً منه.

- وراح الياجوجي بدوره يبذل محاولاته مع القوس. فجمع المهارة إلى القوة: وظهر كما لو أن القوس بدأ يلين قليلاً في يديه؛ وحناه قليلاً، لكنه لم ينجح أبداً في شدّه حتى مداه. كان الجمهور في المدرّج متعاطفاً مع ذلك الأمير لمظهره الخارجي المهيب، فندب قلّة حظّه، وأصبح رأي الجمهور أن الأميرة قد لا يمكنها أبداً أن تتزوج.

حينذاك نزل الشاب المجهول بقفزة واحدة إلى الحلبة، وتوجه بالكلام إلى ملك ياجوج وماجوج قائلاً: «أستميح جلالتكم العذر، فليس لكم أن تستغربوا لأنكم لم تنجحوا النجاح الكامل. فهذه الأقواس الأبنوسية يتمّ صنعها في بلدي؛ وليس إلا أن تحسن التحايل بمهارة عليها. أنتم قد حصلتم على الشرف الرفيع بأنكم جعلتم القوس ينحني، وليس لي أن أزعم لنفسي مثل ذلك الشرف إذا ما استطعت أن أشدّه.» وسرعان ما تناول سهماً، وضبط موقعه على وتر القوس، ثم شدّ قوس نمرود، وأطلق

السهم طائراً في الفضاء إلى أبعد بكثير من أسوار الحلبة. فالتهبت مليون كفّ بالتصفيق لتلك المعجزة. ودوّت الهتافات في أرجاء بابل، وقالت جميع النساء: «ياللتوفيق أن يكون لمثل هذا الشاب الفائق الجمال هذه القوة الفائقة!»

وأخرج بعد هذا من جيبه رقاقة صغيرة من العاج، وكتب على تلك الرقاقة بإبرة من الذهب، ثم علّق رقاقة العاج على القوس، وقدّم الاثنتين إلى الأميرة بكياسة أخذت على الحاضرين ألبابهم. ثم توجّه بتواضع ليعود فيجلس في مقعده بين طائره وخادمه. فخيّم الذهول على أهل بابل أجمعين، وشعر الملوك الثلاثة بالحرج الكبير، أما الشاب المجهول فكان وكأنّ شيئاً لم يكن.

وزادت دهشة فورموزنت عندما قرأت رقاقة العاج المربوطة بالقوس فوجدت أنها تضم باللغة الكلدانية الجميلة هذه الأبيات السريعة:

قوسُ نمرود لساحات الوغى
والهوى قد شاء قوساً للسعادة
فاحمليهِ اليوم ذكرى من إلهٍ
شئتِهِ في الأرضِ موفورَ السيادة
يا لثالوث الملوك الصيد جاؤوا
حلمُهم من محتدِ الأمجادِ غادة
لهف نفسي فلمن يهفو فؤادُ الـ
ـغادةِ البكر وقد عزَّ اصطياده ؟

لم تغضب تلك القصيدة الغزلية القصيرة الأميرة. ولكن تعرّض لها بالنقد بعض النبلاء في البلاط القديم، إذا كانت الأصول تقضي، كما هو متعارف عليه في الأزمنة الغابرة، تشبيه بيلوس بالشمس، وفورموزنت بالقمر، وجيدها بالبرج، ونهدها بمكيال القمح. وقالوا إن الغريب كان يفتقر إلى الخيال، وإنه قد ابتعد عن قواعد الشعر الحقيقي؛ غير أن جميع النساء وجدن تلك الأبيات رقيقة الغزل. وبهرهن أن يكون مثل هذا الذكاء لدى رجلٍ يتقن كل الإتقان الرمي بالقوس. وقالت وصيفة الشرف للأميرة: «يا سيدتي، ولكنها مواهب إلى خسارةٍ محققة. فماذا سيستفيد ذلك الشاب من ذكائه ومن قوس بيلوس؟ فأجابتها فورموزنت: - يستفيد أنه محطّ الإعجاب. فقالت وصيفة الشرف وهي تتحرّق غيظاً: - آه! قصيدة غزلٍ ثانية، فيصبح لا محال محبوباً.»

في غضون ذلك، كان الملك بيلوس قد استشار مرازبته، فأعلن أن عجز الملوك الثلاثة عن الرمي بقوس نمرود لا يمكن أن يعطّل تزويج ابنته، وعلى هذا فهي ستكون لمن يقهر الأسد الضخم الذي كانوا يجهّزونه في حظيرة الوحوش لديه، انتظاراً لذلك اليوم الموعود. لكن ملك مصر، الذي نشأ على الحكمة والتعقّل، وجد أن من أسخف الأمور تعريض ملك من الملوك للخطر أمام الوحوش كي يتمكن من الزواج. وأقرّ بأن فورموزنت تستحق كلّ غالٍ ونفيس؛ لكنه وضحّ أن الأسد إذا ما قضى عليه، فلن يكون بإمكانه أبداً الزواج من تلك الأميرة البابلية الجميلة؛ وكان أن عبّر ملك الهند عن الأفكار والمشاعر نفسها؛ فاستخلص الاثنان بأن ملك بابل يسخر منهما؛ وأن عليهما استقدام الجيوش للاقتصاص منه؛ وأن لديهما ما يكفي من الأتباع والرعايا الجاهزين للموت في سبيلهما، دون أن تُمسّ شعرةٌ واحدة بسوء في رأسيهما؛ وأنهما يمكنهما بكل يسر وسهولة الإطاحة بملك بابل عن عرشه، ومن ثم يقترعان على من تكون فورموزنت من نصيبه.

من بعد عقد هذا الاتفاق، أوفد كلٌّ من الملكين إلى بلده أوامر صريحة بتجييش ثلاثمائة ألف رجل لاختطاف فورموزنت.

غير أن ملك ياجوج وماجوج نزل وحيداً إلى الحلبة، والسيف البتّار بيده. لم يكن شديد الولع بمفاتن فورموزنت؛ ولم يكن من دافع له حتى تلك اللحظة سوى المجد، فهو الذي جاء به إلى بابل. وكان يريد أن يُظهر للجميع أنه، على عكس ملكي الهند ومصر اللذين توخيّا الحذر ورفضا المخاطرة بمواجهة مع الأسود، سوف يغسل شرف التاج الملكي. وقد أبت عليه كرامته حتى أن يستعين بمساعدة نمره. فتقدم بمفرده، مسلّحاً تسليحاً خفيفاً، وقد اعتمر خوذة من الفولاذ مزيّنة بالذهب، ومظلّلة بثلاثة أذيال خيول بيضاء كبياض الثلج.

وأطلقوا عليه أضخم أسد نشأ وترعرع في جبال لبنان الشرقية. كانت مخالبه الرهيبة تبدو قادرة على تمزيق الملوك الثلاثة معاً، أما شدقه فقادر على التهامهم دفعة واحدة. راحت أصوات زئيره تدوّي فيرتجّ معها المدرّج. وتواجه البطلان الفخوران باندفاع سريع من كلٍّ منهما نحو الآخر. وكان أن غرس الياجوجي المقدام سيفه في حلق الأسد، لكن رأس السيف اصطدم بأحد أضراس الأسد الضخمة التي لا يمكن لشيء أن

يخترقها وتحطم قطعاً مصدراً ضجة عالية، وإذ أصبح سيد الوحوش مسعوراً بسبب جرحه، فقد غرز مخالبه الدامية في خاصرة العاهل الملكي.

تأثر الشاب المجهول من الهلاك الذي أحاق بمثل ذلك الأمير الباسل، فاندفع إلى داخل الحلبة أسرع من ومض البرق، وقطع رأس الأسد بمهارة لا تضاهيها إلا مهارة فرساننا فيما بعد، حيث برعوا أيما براعة في الحفلات بالإطاحة برؤوس المغاربة أو بالحلقات المنصوبة في الميدان.

ثم إنه سحب علبة صغيرة، وقدّمها إلى الملك الياجوجي قائلاً: «جلالتكم سوف تجدون في هذه العلبة البلسم الشافي من نبتة الفوتنج الحقيقية التي تنمو في بلدي. باستعمالها سوف تشفى جروحك المجيدة على الفور. والمصادفة وحدها هي التي أعاقتك عن القضاء على الأسد؛ وليس ما ينتقص من روعة جدارتك.» لقد تأثر الملك الياجوجي بالعرفان بالجميل أكثر من تأثره بالحسد والغيرة، فشكر منقذه، وبعد أن عانقه برقة، رجع إلى حاشيته ليمسح جراحه بالبلسم.

وأعطى الشاب المجهول رأس الأسد لخادمه؛ وهذا الأخير، بعدما غسله بماء السبيل الدافق الموجود أسفل المدرّج، وبعدما نظّفه من كل ما فيه من دم، استلّ قطعة حديد من حقيبته الصغيرة، وانتزع أضراس الأسد الأربعين، ووضع بدلاً عنها أربعين ألماسة بحجم الأضراس تماماً.

كان معلمه قد رجع وجلس في مقعده، بتواضعه المألوف؛ فأعطى رأس الأسد لطائره، قائلاً: «أيها الطائر الجميل، هيّا ضع عند قدميّ فورموزنت هذا التكريم الطفيف.» وانطلق الطائر ممسكاً بمخلب من مخالبه تلك الغنيمة الرهيبة؛ وقدّمها إلى الأميرة، خافضاً عنقه باتضاع، ومنبطحاً على الأرض أمامها. فبهرت البوارق الأربعون المتوهّجة جميع العيون. إذ ما كانوا قد عرفوا قبل ذلك في بابل المجيدة مثل تلك الروعة المذهلة: فالزمرّد، والزبرجد، والياقوت، والعقيق، كان يُنظر إليها على أنها أنفس الحليّ والزينة. وكان أن ملك الإعجاب على بيلوس وجميع رجالات بلاطه جوارحهم.

وازدادوا ذهولاً على ذهول بمرأى الطائر الذي قدّم تلك الهدية. كان بحجم النسر لكن عينيه كانتا بالوداعة والرقة تضاهيان ما لعينيّ النسر من اعتزاز وتهديد. أما

منقاره فورديّ اللون، ويبدو كأنما يستمد شيئاً ما من ثغر فورموزنت الجميل. واجتمعت في عنقه جميع ألوان قوس قزح، لكن ببريق وحيوية أشد. ويلتمع لون الذهب بجميع أطيافه البرّاقة في ريشه. أما ساقاه فكأنهما مزيج فضة وأرجوان؛ وأما الذيل المأخوذ من أجمل الطيور والمشدود إلى عربة الربة جونون فما كان ليضاهي ذيله الجميل.

وهكذا فقد اجتذبت الماسات الأربعون والطير معاً انتباه، وفضول، واستغراب، ونشوة رجالات البلاط جميعاً. كان الطير قد حطّ على إفريز المنصة بين بيلوس وابنته فورموزنت، التي راحت تلاطفه، وتمسح بيدها عليه، وتقبله. وكان يبدو عليه وكأنه يتقبّل مداعباتها بلذة مختلطة بالاحترام. فعندما تقبّله الأميرة، يقبّلها هو أيضاً بالمقابل، ثم يمعن فيها النظر بعينين حانيتين. وأخذ منها البسكويت والفول السوداني، حيث يمسكها بساقه الأرجوانية الفضية ويحملها إلى منقاره بلطف لا يوصف.

وإذ أمعن بيلوس نظراته الفاحصة في الماسات، تبيّن له بأن أيّاً من أقاليمه لم يكن يكاد يستطيع تقديم مثل هذه الهدية النفيسة.

فأمر بتحضير هدايا أروع وأروع، لذلك الشاب المجهول، مما كان مقرّراً للملوك الثلاثة. وكان مما قاله: «هذا الشاب هو لا ريب ابن ملك الصين، أو ابن ملك ذلك الجزء من العالم الذي يقال له «أوروبا» والذي سمعت بعض الأخبار عنه، أو من افريقيا، التي، على ما يقال، تقع على مقربة من مملكة مصر.»

وأرسل على الفور كبير ضباط الحرس لتهنئة الشاب المجهول ، وليسأله إن كان حاكماً على إحدى تلك الإمبراطوريات، ولماذا حضر وليس برفقته سوى خادم وحيد يحمل حقيبة صغيرة، وهو الذي يملك مثل هذه الكنوز.

وبينما كان كبير ضباط الحرس يتقدّم باتجاه المدرّج لتأدية مهمته، وصل خادم آخر ممتطياً حصاناً وحيد القرن. وخاطب الخادم الشابّ قائلاً:

«أورمار» والدك يلفظ أنفاسه الأخيرة، وأنا جئت لأنقل إليك الخبر.» فرفع الشاب المجهول عينيه إلى السماء، وذرف الدموع، ولم يكن لديه من جواب سوى هذه الكلمة: «هيا بنا.»

أما كبير ضباط الحرس فقام بتقديم التهاني من طرف بيلوس، إلى غالب الأسد، وواهب الماسات الأربعين، صاحب الطائر الجميل، ثم سأل الخادم ما هي المملكة التي يحوز والد الشاب زمام الحكم ملكاً عليها.

وكان ردّ الخادم أن: «والده راعٍ شيخ يحبونه كثيراً في مقاطعته.»
أثناء تبادل الحديث، كان الشاب المجهول قد أصبح على صهوة جواده وحيد القرن. فقال لكبير ضباط الحرس: «يا سيدي، تكرّم وانقل خضوعي عند قدمي بيلوس وابنته. وسوف أتجرّأ وأرجوها أن تعتني عناية كبيرة بالطائر الذي أتركه في عهدتها؛ فهو فريدٌ من نوعه مثلها سواء بسواء.» وبعد إتمام هذه الكلمات انطلق كما يلمع البرق، وتبعه الخادمان، فغابوا عن الأنظار.

لم تستطع فورموزنت تمالك نفسها عن إطلاق صرخة قوية. والطائر، الذي استدار باتجاه المدرّج حيث كان سيّده جالساً، بدا عليه التأثر العميق لأنه لم يعد يراه في موضعه. ثم نظر إلى الأميرة نظرة ثابتة، وراح يمسح يدها الجميلة مسحاً لطيفاً رقيقاً بمنقاره، فكأنما كان يعلن بذلك أنه سيقوم على خدمتها.

وأصيب بيلوس بدهشة لم يعرف مثيلاً لها في يومٍ من الأيام، وعندما نُقل إليه أن ذلك الشاب الخارق فوق العادة ما هو سوى ابن راعٍ، لم يُصدّق ما قيل له. وأرسل من يلحق به؛ لكنهم سرعان ما نقلوا إليه أن الجياد وحيدة القرن التي امتطاها أولئك الرجال الثلاثة كان من المستحيل اللحاق بها، وأنها، بالسرعة التي تمضي بها، لا بدّ أن تجتاز في اليوم الواحد مائة ميل.

II

أطلق جميع الناس عنان أفكارهم حول تلك المغامرة العجيبة، دون الوصول إلى تفسيرات مقنعة. فكيف يستطيع ابن راعٍ تقديم أربعين ألماسة كبيرة؟ ولماذا يمتطي الجياد وحيدة القرن؟ عبثاً أعملوا تفكيرهم دون الوصول إلى نتيجة؛ أما فورموزنت، فكانت عندما كانت تداعب طائرها، تغرق في تهويمات عميقة حالمة.

وها هي الأميرة آلدي، ابنة ابن عمّ فورموزنت، الحسنة التكوين، والتي تكاد تماثلها جمالاً، تقول لها ذات يوم: « يا بنة عمي، لا أعلمُ إن كان نصف الإله ذاك هو بالفعل ابن راعٍ؛ لكن يبدو لي أنه استوفى جميع الشروط المرتبطة بزواجك. فهو قد رمى بقوس نمرود، وقتل الأسد، ولديه من الذكاء إذ كتب لك ارتجالاً تلك الغزلية الجميلة. ومن بعد الماسات الأربعين الضخمة التي قدمها إليك، لا يمكنك إنكار أنه من

أكثر الناس جوداً وسخاء. كما أنه بطائره يملك أندر ما هو معروف على سطح الأرض. أما فضيلته فلا مثيل لها، ما دام، مع علمه بأنه يستطيع البقاء إلى جانبك، رحل دون تردد أو نقاش حالما علم بمرض والده. لقد تحققت جميع بنود النبوءة، باستثناء البند الذي يقضي بأن يدبَّ الرعب في قلوب منافسيه؛ لكنه فعل ما هو أعظم، حين أنقذ حياة المتباري الوحيد الذي كان يمكن أن يشكل خطراً عليه؛ وأما بشأن التغلب على الاثنين الآخرين متى دعت الحاجة، فلا أظنك تشكّين بأنه سوف يحقق هذا بيسر وسهولة.

أجابت فورموزنت: «- ما تقولين صحيح تماماً؛ لكن هل يمكن أن يكون أعظمُ الرجال، وربما ألطفهم وأحبّهم، ابناً لراعٍ؟»

هنا شاركت وصيفة الشرف في الحديث، موضحةً بأن كلمة «راعي» تلك غالباً ما تطلق على الملوك؛ فهم يقال لهم «رعاة»، لأنهم يجزّون قطعانهم جزاً لا يترك أثراً لوبر؛ وأن تلك الكلمة لم تكن سوى مزحة سيئة من طرف خادمه؛ وأن ذلك البطل الشاب ما جاء مع مثل ذلك الموكب الضئيل الشأن إلا ليُظهر بوضوح إلى أيّ مدى كانت كفاءته تفوق أبّهة الملوك، وكي لا يستحق الفوز بفورمزنت إلا بجدارته. فلم تردّ الأميرة إلا بتقبيل طائرها ألف قبلة حانية.

لكنهم لم يتقاعسوا مع هذا عن تحضير وليمة عظيمة للملوك الثلاثة ولجميع الأمراء الذين حضروا الاحتفال. وكان على ابنة الملك وابنة أخيه تشريف الوليمة بحضورهما. وقُدّمت إلى الملوك هدايا تليق بروعة بابل. وبانتظار بدء توزيع الطعام، جمع بيلوس مجلسه الاستشاري لمناقشة زواج فورموزنت الحسناء، وهذا ما قاله كسياسيّ محنّك:

«لقد تقدمت في العمر، فلم أعد أعلم كيف أتصرّف، ولا لمن أزوّج ابنتي، فالذي يستحقها ليس أكثر من راعٍ وضيع المنبت، أما ملك مصر وملك الهند فهما من الجبناء؛ كان يمكن لملك يأجوج ومأجوج أن يكون لائقاً إلى حدٍّ ما، لكنه لم يستوف أيّاً من الشروط المفروضة. سوف أعود من جديد لاستشارة العرّاف. بانتظار حصول هذا، تناقشوا، وسوف نتخذ قرارنا الأخير استناداً إلى ما يكون العرّاف قد تنبّأ به: إذ لا يحق للملك أن يتصرّف إلا وفق الأمر الصريح الصادر عن الآلهة الخالدين.»

حينذاك توجّه إلى معبد القصر؛ وكان جواب العرّاف كلمات قليلة، حسب عادته: «لن تتزوّج ابنتك إلا من بعد أن تكون قد تشرّدت في جميع أرجاء الدنيا.» وكان أن عاد بيلوس إلى المجلس، مبهوتاً، ومعه هذا الجواب.

كان جميع الوزراء يحملون احتراماً عميقاً للعرّافين؛ فكانوا يسلّمون، أو يتظاهرون بالتسليم، بأنهم الأساس الذي ينهض عليه الدين؛ وأن على العقل أن يصمت متى نطقوا؛ وأن الملوك بمساندتهم يحكمون الشعوب، وبمساندتهم يحكم المرازبة الملوك؛ وأن الأرض دون عرّافين تصبح خالية من الفضيلة ومن الهدوء. وأخيراً، بعد التعبير عن أعمق آيات التبجيل حيالهم، خلُص الجميع تقريباً إلى أن ذلك العرّاف كان من السفهاء، وأن الواجب يقضي بعدم الانصياع له؛ إذ من أبعد الأمور عن الحشمة أن تتشرد فتاةٌ ما، خاصةً إذا كانت ابنة ملك بابل العظيم، على الطرقات هائمة على وجهها؛ وأن معنى ألاّ تتزوّج، أو أن تتزوّج بالسرّ زواجاً مخجلاً وتافهاً؛ مختصر القول، في رأيهم، إن ذلك العرّاف كان يفتقر إلى الحسّ السليم.

كان أصغر الوزراء سنّاً، واسمه أوناداز، أكثرهم حنكة ودراية، فقال إن العرّاف إنما كان يعني دون شك القيام برحلة حج تعبيراً عن التقوى والورع، وتطوّع ليكون مرافقاً للأميرة. وكان أن أخذ المجلس برأيه، لكنهم تنافسوا لأن كلاً منهم يريد أن يكون مرافقها. فقرّر الملك أن بإمكان الأميرة السفر مسافة ثلاثمائة فرسخ على الطريق نحو شبه الجزيرة العربية، لزيارة معبدٍ وليُّه المقدّس ذائع الصيت بتدبير الزيجات الموفقة للفتيات، وأن رئيس المجلس الاستشاري هو الذي سيكلّف بمرافقة الأميرة. من بعد هذا القرار توجهوا لتناول العشاء.

III

في وسط الرياض الغنّاء، بين شلاّلَيْ ماء، كان هناك قاعة بيضوية الشكل قطرها ثلاثمائة قدم، قُبّتها اللازوردية مزروعة بنجوم من الذهب تمثل المجموعات النجمية وكواكبها، وكل مجموعة نجمية في موقعها الصحيح، وكانت القبّة دوّارة، شأنها شأن السماء، وتعمل على تدويرها آلات غير منظورة مثلما هي غير منظورة الآلات التي ترعى حركات النجوم والكواكب في السماء. وكانت مشاعل بالآلاف، محجوزة داخل اسطوانات

من البلور الصافي، تضيء خارج وداخل قاعة الطعام. كانت طاولات الطعام مرتبة في مدرجات وتجمل عشرة آلاف إبريق أو صحن من الذهب؛ ومقابل بوفيه الطعام ذاك، تنهض مدرجات يشغلها موسيقيون. كما كان مدرّجان آخران عامرَيْن، الأول بثمار جميع الفصول؛ أما الثاني فصُفّت فيه قوارير بلّورية تشفّ برأقة عن جميع ما في الأرض من أصناف الخمور.

احتل المدعون مواقعهم من حول منضدة مقطّعة الأجزاء بحواجز تمثّل زهوراً وثماراً، وجميعها مصنوعة من الأحجار الكريمة. وجلست الحسناء فورموزنت بين ملك الهند وملك مصر، أما الحسناء آلدي فجلست إلى جانب ملك ياجوج وماجوج. وكان من بين الحضور قرابة ثلاثين أميراً، وكلٌّ منهم اتخذ مجلسه إلى جانب حسناء من أجمل حسناوات القصر. أما الملك الذي جلس مقابل ابنته، وسط ذلك المحفل، فكان يبدو موزّعاً بين شعورين يتجاذبانه الأسى لعدم تمكنّه من تزويجها والسرور لأنه لا يزال يحتفظ بها. وقد طلبت منه فورموزنت السماح لها بوضع طائرها على الطاولة، إلى جانبها. وقد استحسن الملك هذا الأمر استحساناً كبيراً.

عندما بدأت الموسيقا تصدح، أصبح بإمكان كلّ أمير أن ينطلق بكلّ حرّية في التحادث مع جارته. وقدّموا أمام فورموزنت طبقاً من المقبّلات المنوّعة التي كان والدها مغرماً بها. فقالت الأميرة يجب وضع ذلك الطبق أمام جلالته؛ فأسرع الطائر يمسك بالطبق برشاقة رائعة ومضى ليضعه أمام الملك. فكانت دهشةٌ لم يسبق لها مثيل في أي حفل عشاء. وداعبه بيلوس مداعبات كثيرة مثلما فعلت ابنته، وها هو الطائر يعود مجنّحاً من جديد ليكون إلى جانبها. وعندما طار نشر ذيله الجميل، كما أن جناحيه المفتوحين نشرا ألوان زاهية، فراح اللون الذهبي في جناحيه ينشر ألقاً باهراً، حتى إن جميع العيون تعلقت به لا تنظر سواه. وأوقف عازفو الفرقة موسيقاهم ولبثوا جامدين دون حراك. لم يعد أحدٌ يأكل، لم يعد أحدٌ يتكلّم، ولم تعد تُسمع إلا همهمات الإعجاب . واستمرت أميرة بابل تقبّله طوال فترة تناول العشاء، دون أن يخطر لها أبداً أن في الدنيا ملوكاً. وهذا ما ضاعف من غيظ ملكَيْ الهند ومصر، وعاهد كلٌّ منهما نفسه أن يستعجل استقدام الثلاثمائة ألف محارب للانتقام والثأر.

أما ما كان من شأن ملك ياجوج وماجوج، فقد انهمك بالتحادث مع الحسناء آلدي: كان قلبه المترّفع، رغم احتقاره دون غيظ لإهمال فورموزنت، قد أضمر حيالها

من اللامبالاة أكثر ممّا أضمر من الغضب. وراح يقول: «هي جميلة، لا أستطيع الإنكار؛ لكنها تبدو لي من أولئك النسوة اللواتي لا يشغلهن سوى جمالهن، واللواتي يُخيّل إليهن بأن الجنس البشري يجب أن يقرّ لهن بالفضل لمجرّد أنهن يظهرن أمام الجمهور. ألا فنحن لا نعبد الأصنام في بلدي. بل قد أفضّل المرأة القبيحة المسايرة والملاطفة، على هذا الصنم الجميل. أنت يا سيدتي، لديكِ من المفاتن ما لديها، لكنكِ على الأقل تتنازلين وتتبادلين الحديث مع الأغراب. وأعترف لكِ، بالصراحة المعروفة بيننا في ياجوج، أنني أعطي لكِ قصب السبق على ابنة عمك.» لكنه كان مخطئاً بخصوص شخصية فورموزنت: فلم تكن تلك المغرورة المتكبّرة مثلما بدا عليها؛ غير أن ملاطفته لاقت هوىً واستحساناً في نفس الأميرة آلدي. فأصبح الحديث بينهما ذا متعة وتشويق: وسُرَّ كلٌّ منهما بالآخر، وباتا على تفاهم قائم على الثقة قبل مغادرتهما لمائدة العشاء.

ومن بعد العشاء، كانت نزهة بين الأشجار. ولم يفوّت الملك الياجوجي وآلدي هذه الفرصة لإيجاد خلوة في مقصورة منعزلة. وإذا كانت آلدي هي الصراحة بعينها، فقد خاطبت ذلك الأمير كالتالي:

«أنا لا أكره ابنة عمي، رغم أنها أجمل مني، وأنها سوف ترث عرش بابل: فالشرف بأن أروق لك وأنال إعجابك يعادل كل المفاتن. وأفضّل بلاد ياجوج وماجوج معك على عرش بابل دونك؛ علماً بأن هذا العرش يعود لي، لو كان في هذه الدنيا حقوق: وذاك لأنني من الفرع البكر لنمرود، بينما فورموزنت هي من الفرع الأصغر. وكان جدُّها قد عزل جدّي عن العرش، وأورده موارد الموت.

- تلك إذن هي قوة قرابة الدم في البيت البابلي! قال الياجوجي.

وماذا كان اسم جدّك؟ - كان اسمه آلدي، مثلي. ووالدي حمل الاسم نفسه: وقد أُبعد إلى أقاصي الإمبراطورية مع والدتي؛ ومن بعد موتهما، لم يعد بيلوس يخشى شيئاً، فأراد تربيتي جنباً إلى جنب مع ابنته؛ لكنه قرّر ألاّ أتزوّج أبداً.

- انا أود الثأر لوالدك، ولجدّك، ولكِ، قال ملك ياجوج وماجوج. وأقول لك إنك سوف تتزوجين؛ سوف أخطفك بعد غد، من الصباح الباكر، إذ يجب تناول الغداء غداً مع ملك بابل، وسوف أعود لدعم حقوقك على رأس جيش من ثلاثمائة ألف محارب.

فقالت الحسناء آلدي: «أودّ ذلك من كل قلبي». ومن بعد أن تعاهدا بكلمة الشرف، افترقا على ذلك العهد.

أما فورموزنت التي لم يكن لها نظير في الجمال فكانت قد توجّهت إلى مضجعها منذ فترة طويلة. وكانت قد أمرت بوضع شجيرة برتقال، مزروعة في حوض من الفضة، ليستريح الطائر فوقها. كانت الستائر مغلقةً؛ لكنها لم تكن راغبة على الإطلاق بأن تنام. كان قلبها وخيالها في أقصى درجات اليقظة والتحفّز. فالغريب المجهول، ذلك الشاب الفاتن، ماثلٌ أمام عينيها؛ فهي تراه يرمي السهم بقوس نمرود؛ وتتأمله بإمعان وهو يجزّ رأس الأسد؛ وكانت تستظهر قصيدته الغزلية؛ وأخيراً، كانت تراه ينطلق بعيداً عن الجمهور الحاشد، ممتطياً جواده وحيد القرن؛ وكان أن انفجرت بالبكاء، وراحت تهتف ودموعها تنهمر: «إذن لن أراه بعد اليوم؛ هو لن يعود.»

– سوف يعود، يا مدام، أجابها الطائر من قمة شجرة البرتقال التي يقف فوقها؛ وهل يمكن لمن رآكِ، ألاّ يراكِ من جديد؟

– يا للسماء! يا للقوى الخالدة! طائري يتكلم الكلدانية الخالصة!

وأثناء قول هذه الكلمات، سحبت ستائرها، ومدّت له ذراعيها، وركعت على ركبتيها في سريرها: «هل أنت إله نزلت إلى الرض. هل أنت أوروزماد العظيم مستتراً خلف هذه الأرياش. إن كنتَ إلهاً، أرجعْ إليّ ذلك الشاب الجميل المحيّا.

فردّ عليها الطائر: «ما أنا إلاّ من معشر الطيور؛ لكني وُلدتُ في الزمان الذي كانت فيه جميع الوحوش لا تزال تتكلم، والذي كانت فيه الطيور والأفاعي، وأُتُن الحمير، والخيول، والعنقاوات، تتبادل الأحاديث المألوفة؟ مع بني البشر. أنا لم أشأ التكلّم أمام الناس، خوفاً من أن تعتبرني وصيفات الشرف عندك ساحراً: أنا لا أريد أن أكشف عن حقيقتي إلا أمامك.»

شعرت فورموزنت بالحيرة، والضياع، وأنها سكرى بفعل تلك الأعاجيب الكثيرة، وأصبحت في لهفة لتطرح مائة سؤال سويّاً، فكان أول ما سألته عن عمره. «سبعة وعشرون ألفاً وتسعمائة عام وستة أشهر، يا مدام؛ عمري من عمر الانقلاب الصغير في السماء الذي يسمّيه المرازبة عندكم الاعتدال الاستوائي، والذي يكتمل كل ما يقرب من ثمانية وعشرين ألفاً مما تعدّون من السنين. وهناك انقلابات أطول مدى بما لا يُقدّر:

وهكذا فعندنا كائنات أعمر مني بكثير. أنا تعلّمت الكلدانية منذ عشرين ألف عام؛ وحدث هذا في إحدى رحلاتي. وقد تذوّقت ذلك اللسان الكلداني وملتُ إليه ميلاً شديداً، وحافظت على هذا الميل وهذا التذوّق؛ غير أن أبناء جنسي من الحيوان عَدَلوا عن التكلّم في أقاليمكم.- ولماذا إذن، يا طائري الإلهي؟ - واأسفاه! حصل هذا لأن البشر استقرت عوائدهم أخيراً على أكلنا، بدلاً من الحفاظ علينا والمشاركة في التعلّم والفهم. يا لهم من برابرة! ألم يكن عليهم الاقتناع أننا بامتلاكنا للأجهزة العضوية نفسها، والمشاعر نفسها، والحاجات نفسها، والرغبات نفسها، لا بدّ أن يكون لنا ما يُطلق عليه اسم الروح، مثلهم سواء بسواء، وأننا أخوة لهم، وأنه ما كان يجوز طبخ وأكل إلا الأشقياء الشرّيرين؟ نحن أخوة لكم بعمق، حتى إن الكائن العليّ، الكائن الخالد الباقي الذي خلق وصوّر، والذي عقد معكم ميثاقاً، ضمّنا بكل صراحة ووضوح إلى صك الميثاق ذاك[1]. لقد حرّم عليكم في ذلك الصك التغذي بدمائنا، كما حرّم علينا امتصاص دمائكم.

وحكايا لقمانكم القديم، المترجمة إلى الكثير من اللغات، سوف تظل باقيةً على الأيام لتشهد على التواصل الذي كان قائماً في غابر الأزمان بينكم وبيننا. فجميع تلك الحكايات مطلعها: «في غابر الأزمان حين كانت الوحوش تتكلم.»

نعم، كثيرات هنّ النساء بينكم اللواتي مازلن يتحدثن مع كلابهن؛ لكن الكلاب مصرّة على ألا تردّ منذ أن أجبروها بجلد السياط على المشاركة في الصيد، وبذلك تكون متواطئة في قتل أصدقائنا القدامى المشتركين، من وعول، وأيائل، وأرانب، وحجلان.

«ولا يزال لديكم قصائد قديمة تتكلّم فيها الخيول، كما أن سائقي عربات الخيل لديكم لا يزالون يوجّهون إليها الكلام على مرّ الأيام؛ لكنهم يفعلون هذا بمنتهى الفظاظة، وبالتلفّظ بكلمات شائنة جداً، حتى إن الخيول التي كانت تحبكم كثيراً في الماضي، باتت تكرهكم في هذه الأيام.

«أما البلد التي يقطن فيه حبيبك الفاتن المجهول، أكمل خلق الله، فقد ظلت البلد الوحيدة التي يعرف فيها جنسكم الآدمي حتى الآن كيف يحب جنسنا ويتخاطب معه؛ وذلك هو الإقليم الوحيد الذي يلتزم فيه البشر بالصلاح والعدل.

١ . انظر الفصل التاسع من "سفر التكوين" ، والفصول ٣ ، ١٨ ، ١٩ ، من "الجامعة" .

- وأين هي تلك البلاد التي يقطن فيها حبيبي المجهول؟ وما هو اسم هذا البطل؟ وما اسم إمبراطوريته؟ فلن أصدق بأنه راعٍ إلا إن كنت سأصدق بأنك خفاش.

- بلاده، يا مدام، هي بلاد الغانجيين، الشعب الفاضل القاهر الساكن على الضفة الشرقية لنهر الغانج. أما صديقي فاسمه همذان. وليس ملكاً ولا أدري إن كان يقبل بالنزول إلى ذلك الدَرَك؛ فهو يحبّ مواطنيه حباً فائقاً: لأنه راعٍ مثلهم. لكن إياكِ أن تتخيّلي بأن أولئك الرعاة يشبهون رعاتكم الذين لا تستر أجسامهم سوى أسمال ممزّقة ويحرسون قطعان خرفانكم التي تلبس أفضل بما لا يقاس ممّا يلبسون؛ والذين يرزحون تحت وطأة الفقر، والذين يدفعون لبعض المتسلّطين نصف الأجر الهزيل الذي يتقاضونه من أسيادهم. أما الرعاة الغانجيون، الذين ولدوا جميعاً سواسية، فهم أصحاب قطعان لا تعدّ ولا تحصى تغطّي مروجهم المزهرة على مدار السنة. ولا أحد يتعرّض لها بالقتل أبداً: إذ من أفظع الجرائم، قرب الغانج، قتل المرء لمن يشبهه ومن ثم التهامه. غير أن أصوافها الأشد وهجاً ولمعاناً من أجمل الأقمشة الحريرية، هي من أكبر التجارات في الشرق. ناهيك عن أن أرض الغانجيين تنتج كل ما يمكن أن يرضي رغبات الإنسان. فتلك الماسات الضخمة التي تشرّف همذان بإهدائها إليك مأخوذة من منجم يمتلكه. والجواد وحيد القرن الذي رأيته ممتطياً صهوته هو المطيّة المألوفة لدى الغانجيين. إنه أجمل حيوانات الأرض، وأعزّها، وأرهبها، وأرقّها.

ويكفي وجود مائة غانجي على صهوات مائة حصان وحيد القرن لتبديد جحافل جيوش غفيرة لا تُعدّ ولا تحصى. وقد حصل منذ قرنين من الزمان أن طاش صواب أحد ملوك الهند فزُيّن له أن يتغلب على تلك الأمة: فحضر ومعه عشرة آلاف فيل ومليون محارب. فقامت الخيول ببقر بطون الفيلة بقرونها، مثلما رأيتُ على مائدتكم القبّرات في أسياخ الشواء الذهبية. وراح المحاربون يتساقطون تحت ضربات سيوف الغانجيين مثلما يكون حصاد الأرز على أيدي شعوب المشرق. ووقع الملك أسيراً مع ستمائة ألف رجل. وعمّدوه في مياه الغانج المقدسة المخلّصة، وعوّدوه على النظام الغذائي لبلادهم، بحيث لا يأكل سوى الخضار التي تجود بها الطبيعة لإطعام كلّ ذي روح، فالبشر الذين يأكلون من المجازر ويشربون السوائل المسكرة تصبح دماؤهم جميعاً فوّارة لاهبة، فهم بسببها مجانين، ويتجلّى جنونهم بمائة طريقة مختلفة. والخلل العقلي الأكبر لديهم

يتجلّى في اندفاعهم الأهوج لسفك دماء إخوتهم، ولتخريب السهول الخصيبة كي يصبحوا أسياداً على مقابر ميتة. لقد استغرق شفاء ملك الهند من مرضه ستة شهور كاملة. وعندما ارتأى الأطباء في النهاية أن نبضه أصبح أهدأ وأن عقله أصبح أرجح، قدموا الوثيقة التي تشهد بذلك إلى مجلس الغانجيين. وبعد أن أخذ المجلس رأي الخيول وحيدة القرن، أطلق سراح ملك الهند بصورة إنسانية لائقة وصُرف إلى بلده مع بلاطه الأحمق ومقاتليه البلداء. وقد جعلهم هذا الدرس حكماء ومن ذوي الرشاد، منذ تلك الحقبة، تعامل الهنود باحترام مع الغانجيين تماماً كما يحترم الجهال الذين يسعون إلى التعلم بينكم الفلاسفة الكلدان، لأنهم لا يمكن لهم أن يرتفعوا إلى مستواهم.

فقالت له الأميرة: - على فكرة، يا طائري الغالي، هل يوجد دين لدى الغانجيين؟

- تسألين إن كان يوجد دين؟ يا مدام، نحن نعقد المجالس لنرفع الشكر إلى الله، عند اكتمال القمر بدر التمام، حيث يجتمع الرجال في معبد كبير من خشب الأرز، والنساء في معبد آخر، تجنّباً لشرود الذهن والخيال؛ وتجتمع الطيور كلّها في روضة وارفة، وجميع ذوات الأربع فوق مرج جميل. فنشكر الله ونمجّده لكلّ الخيرات التي أنعم بها علينا. ولدينا على وجه الخصوص ببغاوات للوعظ لا أروع ولا أعظم.

«تلك هي ديار همذان، صديقي الغالي؛ وهناك مقرّي ومعاشي؛ أنا أحمل له من المودة والصداقة مثل ما حرّك في أعماقك من محبة. وإذا أردتِ رأيي، فلنرحل سويّاً، وتمضين لتردّي له زيارته.

- بالفعل، يا طائري، أنت بهذا تقوم بأجمل مهمة، أجابته مبتسمةً.

الأميرة التي كانت تتحرّق شوقاً للقيام بتلك الرحلة، ولا تتجرأ على البوح بذلك.

قال الطائر: - أنا أقوم على خدمة صديقي؛ ومن بعد أن فاز بنعيم حبك، فالنعيم الأكبر هو تيسير أمور هذا العشق المتبادل.»

لم تعد فورموزنت تعلم إلى أين مضت بها الأمور، وباتت تشعر بأنها تطير خارج أجواء الأرض. فجميع ما رأت خلال ذلك النهار، وجميع ما تراه الآن، جميع ما تسمع، ثم على الخصوص جميع ما تشعر به في أعماق فؤادها، جعلها تغرق في انبهارٍ يفوق بمراحل الانبهار الذي يشعر به اليوم المسلمون المؤمنون الذين، بعد فكاكهم من القيود الأرضية في الحياة الدنيا، يرون أنفسهم في السماء التاسعة بين أحضان حوريّاتهم، تحيط بهم وتتغلغل إلى أعماقهم المسرات السماوية مجداً ونعيماً.

IV

وأمضت الليل بطوله لا حديث لها إلا عن همذان. لم تعد تدعوه إلا «راعيها»؛ ولهذا، منذ تلك الأزمنة، أصبحت كلمتا «راعي» و«حبيب» مترادفتين، وتستخدم إحداهما محل الأخرى لدى بعض الأقوام.

كانت تسأل الطائر تارةً إن كان لهمذان عشيقات، فيجيبها بكلاً، وهذا يجعلها في أقصى حالات البهجة. وطوراً تريد أن تعلم كيف يشغل نفسه على مدى الأيام؛ ويأتيها الجواب المبهج بأنه يقضي وقته في فعل الخير، وتطوير معلوماته الفنية، والتغلغل إلى أسرار الطبيعة، وبناء ذاته للوصول بها إلى الأكمل. ثم ها هي تريد أن تعلم إن كانت نفس طائرها من طبيعة نفس حبيبها؛ ولماذا عاش ما يقرب منه ثمانية وعشرين ألف عام، بينما حبيبها لم يعش أكثر من ثمانية عشر أو تسعة عشر عاماً. سألت مائة سؤال على هذا النحو، فكان الطائر يجيبها بمواربة تلهب فضولها. وفي الختام، أطبق الرقادُ أجفانها، وسلّم فورموزنت للوهم الرقيق الذي تجود به الأحلام القادمة من لدن الآلهة، والتي تتفوّق أحياناً على الواقع نفسه، والتي ظلّت فلسفة الكلدانيين تلاقي العناء في تفسيرها.

لم تستيقظ فورموزنت إلا في وقت متأخر جداً. كان النهار قد بدأ يبزغ عندما دخل والدها الملك إلى غرفة نومها. وقد استقبل الطائر جلالته بتهذيب وتوقير، فمضى مرفرفاً بجناحيه أمامه، ماداً عنقه، ثم عاد إلى موضعه فوق شجرة البرتقال الخاصة به. جلس الملك على سرير ابنته، التي كانت الأحلام قد زادتها جمالاً على جمال. واقتربت لحيته الكبيرة من ذلك الوجه الجميل، وبعد أن أعطاها قبلتين، كلّمها قائلاً:

«يا بنتي الغالية، لم يمكنك بالأمس إيجاد زوج، كما كنتُ أرجو؛ لكنكِ بحاجة إلى زوج مهما يكن: لأنّ نجاة إمبراطورتي رهنٌ بذلك. وقد استشرتُ العرّافَ الذي لا يكذب أبداً، كما تعرفين، وهو المتحكم في جميع تصرّفاتي. فأمرني أن أجعلك تطوفين الدنيا. لذا يجب أن تسافري. - آه! وعند الغانجيّين دون شك»، قالت الأميرة؛ وإذ نطقت هذه الكلمات، التي أفلتت منها، شعرت بأنها ارتكبت حماقة. أما الملك، الذي لم يكن ملمّاً بكلمة واحدة من جغرافية الأرض، فسألها ما الذي تعنيه بالغانجيّين. فأوجدت بسهولة لنفسها مخرجاً على التيسير. وأعلمها الملك أن عليها القيام بالحج؛ وأنه عيّن البطانة المرافقة لها، كبير مستشاري الدولة، وكبير الكهنة، ووصيفة الشرف، وطبيباً، وصيدلانياً، وطائرها، مع جميع ما يلزم من الخدم.

لم تكن فورموزنت قد خرجت في يوم من الأيام من قصر الملك والدها، وكانت حتى يوم مباراة الملوك الثلاثة وهمذان قد عاشت حياةً باهتة لا طعم لها وسط لياقات البهرجة ومظاهر الملذات، فشعرت بالنشوة لأنها سوف تقوم برحلة حج. وخاطبت نفسها سراً: «من يدري، فلعلّ الآلهة تخطط لإلهام غانجيّ الغالي بأن يذهب إلى المعبد ذاته، ولعلّ المكتوب أن أسعد فألتقي من جديد بذلك الحاج؟» وكان أن شكرت والدها برقة، قائلة له إنها حملت دائماً في أعماقها تقديساً خفيّاً حيال الوليّ الذي يريدون إرسالها لمقابلته.

وقدّم بيلوس غداءً فاخراً لضيوفه؛ لم يكن هناك سوى الرجال. وكانوا جميعاً على تنافرٍ كبير دون أدنى انسجام: فالملوك، والأمراء، والوزراء، وكبار رجال الدين، كانوا جميعهم متحاسدين، وجميعهم يتحفظون في كل كلمة يقولونها، وجميعهم محرجون من الجالسين إلى جوارهم ومن أنفسهم. فكانت المأدبة كئيبة، رغم تناول المشروبات بكثرة. أما الأميرات فمكثن في اجنحتهن، وكلٌّ منهن مهمومة بالرحيل المرتقب. وكان أن تناولن من الطعام أقلّه دون رغبة. أمّا فورموزنت فتوجهت من ثمّ إلى الرياض للنزهة مع طائرها الغالي الذي، من أجل تسليتها، راح يطير من شجرة لشجرة ناشراً ذيله البديع وريشه الإلهي الجمال.

وها هو ملك مصر، الذي التهب رأسه بالخمرة، حتى لا نقول إنه سكران، يطلب قوساً وسهاماً من أحد أتباعه. وكان ذلك الأمير، للحق والحقيقة، من أسوء الرماة في مملكته. فعندما يسدّد إلى هدف محدد، يتوجه سهمه ليصيب ما لم يكن بالحسبان، أبعد ما يكون عن الهدف المقصود. لكن الطائر الجميل، نظراً لأنه كان يطير بسرعة السهم، تقدم كما لو كان من تلقاء نفسه ليصيبه السهم المنطلق، وسقط مضرجاً بدمه بين ذراعي فورموزنت.

وقابل المصري الموقف بضحكة بليدة، ثم انسحب إلى مقرّه. فتعالت صرخات الأميرة تشق عنان السماء، وانهمرت دموعها غزيرة، وراحت تلطم وجهها وصدرها لطماً شديداً. وقال لها الطائر المحتضر بصوت خافت: «أحرقيني، ولا تنسي أن تحملي رمادي إلى شبه الجزيرة العربية، إلى ما يسمّى اليمن السعيد، إلى الشرق من مدينة عدن، وهناك عرّضي رمادي للشمس من فوق أحطاب كبش القرنفل والقرفة.» وبعدما

قال تلك الكلمات، لفظ أنفاسه. فأغمي على فورموزنت وبقيت لفترة طويلة غائبة عن الوعي ولم تفتح عينيها إلا لتعود إلى النشيج والبكاء.

لقد قاسمها والدها آلام مصابها، وأنزل اللعنات على رأس ملك مصر، ولم يمكنه إلاّ أن يرى في هذه الحادثة مستقبلاً مشؤوماً، لا يبشّر بالخير. فأسرع إلى العرّاف يستشيره في معبد القصر. وكان جواب هذا الأخير: «مزيج من كل شيء؛ ميت حيّ، خيانة وإخلاص، خسارة وربح، مصائب وسعادة.»

ولم يفلح هو ولا مجلسه في فهم أي شيء من تلك الأقوال؛ لكنه، على أي حال، شعر بالرضى لأنه قام بواجبات التقوى.

أما ابنته، الغارقة في دموعها، فأمرت، أثناء تغيّبه لاستشارة العرّاف، أن تقام جميع مراسم التكريم الجنائزية للطائر كما أوصى هو بذلك، وقرّرت أن تحمله إلى شبه الجزيرة العربية ولو كلّفها هذا بذل حياتها. فأُحرق في قماشٍ من الكتان مقاوم للنار مع شجرة البرتقال التي نام فوقها؛ وجمعت رمادهما في وعاء ذهبي صغير الحجم مزنرّ بأحجار من الياقوت الأحمر وبالماسات التي انتزعت من شدق الأسد. وكم تمّنت لو كان باستطاعتها، بدلاً من تأدية هذا الواجب الجنائزي، أن تحرق ملك مصر حيّاً! فتلك هي رغبتها الجامحة. وقد أمرت، في موجة غيظها، بقتل تمساحَيْه، وفرسي نهره، وحماريْه الوحشيَّيْن، وجُرذَيْه، كما أمرت بإلقاء مومياَئيْه في مياه نهر الفرات؛ ولو كان ثوره آبيس في متناول يدها، لما كانت غضت النظر عنه.

وإذ استشاط ملك مصر غضباً أمام تلك الإهانة العلنية، فقد رحل مباشرة لا يلوي على شيء للتعجيل بوصول الثلاثمائة ألف محارب. وملك الهند، بعد أن رأى رحيل حليفه، قفل راجعاً إلى بلده في اليوم نفسه، وقد حزم أمره بقوة أن يضمّ محاربيه الثلاثمائة ألف من الهنود إلى الجيش المصري. أما ملك ياجوج وماجوج فشدّ الرحال في الليل ومعه الأميرة آلدي، وقد قرّ قراره أن يعود ليحارب من أجلها على رأس ثلاثمائة ألف ياجوجي، وليعيد إليها إرث عرش بابل، المستحقّ لها دون سواها، إذ أنها كانت من سلالة الفرع البكر.

ومن جانبها انطلقت الحسناء فورموزنت على الطريق منذ الثالثة صباحاً مع قافلة الحجيج المرافقة لها، وقد زيّن لها الوهم أنها سوف يمكنها الذهاب إلى شبه الجزيرة

العربية تنفيذاً لآخر وصايا طائرها، وأن عدالة الآلهة الخالدين سوف تعيد إليها همذانها الغالي الذي لم يعد باستطاعتها أن تعيش من دونه.

وهكذا، فعندما استيقظ ملك بابل لم يجد نافخ نار. فقال: «يا للاحتفالات العظيمة كيف تنتهي، وما أعمق الفراغ الذي تخلّفه في النفس، بعد زوال الضجيج والصخب.» لكنه وقع تحت سيطرة غضبٍ، ملكيٍ بالفعل، حين علم باختطاف الأميرة آلدي. وأعطى أوامره بإيقاظ جميع وزرائه، وبانعقاد المجلس. بانتظار حضورهم، لم يفته استشارة عرّافه، لكنه لم ينجح مطلقاً أن يستخلص منه سوى هذه الكلمات التي أصبحت أشهر من نار على علم، منذ ذلك التاريخ، وانتشرت في الكون قاطبةً: «عندما لا يُزوّج الأهل البنات، تتزوّج البنات من تلقاء أنفسهن.»

وسرعان ما صدرت الأوامر بتسيير ثلاثمائة ألف محارب في وجه ملك ياجوج وماجوج. إذن، لقد أُضرمت نيران الحرب من جميع الجهات، وكان نشوبها بفعل مسرّات أجمل احتفالٍ حدث حتى تاريخه على سطح الأرض. وبات مقدّراً على آسيا أن تُنكب بأربعة جيوش، تعداد كل جيش ثلاثمائة ألف محارب. فلا بدّ وأن حرب طروادة، التي أدهشت الدنيا بعد قرون قليلة من ذلك التاريخ، لم تكن لتعدو أن تكون لعب أطفال بالمقارنة مع تلك الحرب؛ لكننا أيضاً يجب أن نأخذ بعين الاعتبار بأن نزاع الطرواديين لم ينشأ في أساسه إلا بسبب امرأة عجوز كثيرة التهتك سمحت بأن تُخطف مرتين، بينما الأمر هذه المرّة يتعلّق بصبيّتين وطائر.

توجه ملك الهند ينتظر جيشه على الطريق الكبير الرائع الذي يربط آنذاك بابل بكشمير بخط مستقيم. أما ملك ياجوج وماجوج فأسرع مع آلدي على الطريق الجميل المؤدي إلى جبل إيماوس. لقد اختفت تلك الطرق جميعها فيما بعد بسبب سوء الإدارة الحكومية. بينما توجه ملك مصر غرباً، وتابع سيره بمحاذاة البحر الصغير، البحر الأبيض المتوسط، الذي أطلق عليه العبرانيون الجهّال اسم «البحر الكبير».

أما بشأن ما حصل لفورموزنت، فقد سارت على طريق البصرة المزروع بالنخيل الباسق الذي كان يوفّر الظل الظليل الدائم والثمار على مدار الفصول.

كان المعبد الذي تقصده يقع في البصرة ذاتها. والوليّ المقدس الذي شُيّد هذا المعبد على اسمه كان على وجه التقريب على مبدأ الوليّ الذي عُبد بعد ذلك في مدينة

لامبساك، في الدردنيل. فلم يكن سرّه أو برهانه يقتصر على تأمين الأزواج للفتيات، بل كان في أغلب الأحيان يقوم مقام الزوج. فكان أكثر الأولياء تقديساً في جميع أرجاء آسيا.

لم تكن فورموزنت تهتم أدنى اهتمام بوليّ البصرة: فهي لم تكن تبتهل إلا لراعيها الغانجي الغالي، همذانها الجميل الوسيم. وكانت تنوي الإبحار من البصرة، والدخول إلى اليمن السعيد لتنفّذ ما أمر به الطائر الذي لقي حتفه.

في الاستراحة الثالثة من الطريق، وحالما دخلت إلى النزل، الذي كان المشرفون على المبيت قد جهّزوه بكل ما يلزم لاستقبالها، علمت أن ملك مصر دخل أيضاً إلى النزل نفسه. وتفسير ذلك أنه كان قد استعلم عن طريق جواسيسه عن خط سير الأميرة، فغيّر على الفور طريقه، برفقة بطانة غفيرة العدد. وفور وصوله، نشر الحرّاس على جميع الأبواب، وصعد إلى غرفة نوم الأميرة، وقال لها: «يا آنستي، أنتِ تحديداً من كنتُ أبحث عنها؛ لقد أبديتِ إهمالاً كبيراً حيالي عندما كنتُ في بابل؛ ومن الإنصاف والعدل الاقتصاص من المتكبّرات النزقات: سوف تتكرمين، إذا سمحتِ، بالعشاء معي هذا المساء؛ ولن يكون لكِ من سرير إلا سريري، وسوف أعاملكِ بمقدار ما أشعر بالرضى والسرور.»

تبيّن لفورموزنت بأنها لم تكن الأقوى؛ وكانت تعلم أن من الفطنة أن يتكيّف الإنسان مع الموقف الذي هو فيه؛ وحزمت أمرها على التخلّص من ملك مصر ببراعة بريئة: فنظرت إليه نظرة جانبية، هي تحديداً ما أُطلق عليه بعد مرور قرونٍ من الزمن اسم: «النظرة الجانبية»؛ وها كم كيف خاطبته بتواضع، وملاطفة، ونعومة، وارتباك، بالإضافة إلى حشدٍ من المفاتن كفيلة بأن تبعث الجنون في أكثر الرجال رشاداً، وتضليل أبعدهم نظراً: «أعترف لك، يا سيدي، بأنني كنت أخفض نظري دائماً عندما شرّفتَ والدي بالحضور إلى ديارنا. والسبب أنني كنتُ خائفة من قلبي، وكنت خائفة من بساطتي المفرطة في سذاجتها: والحقيقة، كنتُ أرتجف خوفاً من أن يلاحظ والدي وغرماؤك أنني أفضّلك على الجميع، وهذا ما أنتَ جديرٌ به كل الجدارة. أما الآن فأصبح بإمكاني الانطلاق مع مشاعري. وأقسم بالثور آبيس، الذي هو، من بعدكَ، كلّ ما أجلّ وأكرّم في الدنيا قاطبة، بأن أقوالك قد سحرتني. وسبق لي أن تعشّيتُ معك في بيت

الملك والدي؛ وسوف يطيب لي أن أتعشّى معك هنا دون حضور والدي معنا: لكن كل ما أطلب منك هو أن يشاركنا كبير كهنتك الشراب، فقد تبدّى لي في بابل أنه من خيرة الضيوف الندماء؛ أنا عندي خمر لذيذ من شيراز، وأريدكما معاً أن تتذوّقاه وتستمتعا به. أما بالنسبة لاقتراحك الثاني، فهو في غاية السخاء، لكن لا يليق بشابة حسنة التربية أن تتحدّث عنه: فليكن كافياً لك أن تعلم أنني أعتبرك أعظم الملوك وأحبَّ الرجال.»

طاش صواب ملك مصر عندما سمع تلك الكلمات؛ وقرّر دون تردد أن يكون كبير الكهنة ثالوث الحفلة. فقالت له الأميرة: «لديّ أيضاً طلب أتمنى أن تجود بقبوله؛ ألا وهو أن تسمح للصيدلانيّ الذي يرافقني أن يأتي لمقابلتي: فالفتيات يعانين دائماً من بعض الأمور غير المريحة التي تحتاج إلى بعض العلاج، مثل دوخة الرأس، وخفقان القلب، والمغص، والاختناقات، وهي ما يجب أن تُنظَّم في بعض المناسبات؛ مختصر الكلام، أنا بحاجة ماسّة للصيدلاني، وأرجو أن لا ترفض لي هذه اللفتة البسيطة تعبيراً عن المحبة.

– يا آنستي، ردّ عليها ملك مصر، رغم أن الصيادلة يحملون أفكاراً تتعارض مع أفكاري، وأن أمور علمهم على نقيض أمور علمي، فأنا أدري بأمور العيش من أن أرفض لكِ مثل هذا الطلب الذي لا غبار عليه بالمرّة: وسوف أطلب من الصيدلاني المرافق لكِ أن يأتي لمقابلتك بانتظار تحضير العشاء؛ وأتفهّم أنكِ لا بدّ أن تكوني متعبة قليلاً بسبب السفر، فأنتِ دون شك بحاجة لوصيفة، ولذا يمكنكِ استدعاء من تفضّلين أكثر؛ وأنا من جانبي سأكون لاحقاً بانتظار أوامرك وتحسّن حالتك.» ثم انسحب، ليأتي من بعده الصيدلاني والوصيفة التي اسمها إيرلا. كانت الأميرة تثق بها ثقة كاملة، فأمرتها أن تجلب ست قوارير من الخمر الشيرازي من أجل العشاء، وأن تعمل على تقديم الخمر نفسه إلى جميع الحرس الذين أوقفوا ضباطها؛ ثم أمرت الصيدلاني أن يضع في جميع القوارير بعض العقاقير الجاهزة معه دائماً لتنويم الرجال لمدة أربع وعشرين ساعة. وقد أُطيعت أوامرها بكل دقة. ورجع الملك مع كبير كهنته بعد مضيّ نصف ساعة: فكان العشاء مرحاً؛ وشرب الملك وكاهنه القوارير الستّ، واعترفا بعدم وجود مثل تلك الخمرة الفاخرة في مصر؛ ولم تفوّت وصيفة الشرف العناية

بالخدم الذين قدموا الشراب، فجعلتهم يشربون هم أيضاً من الخمرة ذاتها. أما الأميرة، فكانت حريصة كل الحرص على ألاّ تشرب شيئاً، متعلّلة بأن طبيبها فرض عليها الحمية.

وكان أن نام الجميع بسرعة.

كانت لحية كبير كهنة مصر أجمل لحية حملها في يومٍ من الأيام بشريٌّ من مرتبته ومقامه. فقصتها فورموزنت بمهارة كبيرة؛ ثم إنها من بعد خياطتها على شريطة قصيرة، عادت وعلقتها على ذقنها. ومن بعد هذا تنكرّت بارتداء ثوب الكاهن ووضعت جميع الإشارات الدالة على منصبه الرفيع، كما ألبست وصيفتها ثياب القائم على خدمة الربّة إيزيس؛ وفي النهاية، حملت قارورة رماد الطائر وجواهرها، وخرجت من النزل مجتازة الحرّاس الذين كانوا غارقين في النوم مثل سيّدهم. وكانت قد أمّنت وجود حصانين جاهزين بانتظارهما عند الباب. ولم يكن باستطاعة الأميرة أن تصطحب معها أيّاً من الضباط المرافقين لها: إذ كان الحراس في الخارج سوف يوقفونهم.

وعبرت فورموزنت وإيرلا من خلال حشود من الجنود، كانوا يظنون الأميرة كبير الكهنة، فيخاطبونها: «يا أبانا الإلهي العظيم التقديس»، ويطلبون منها منحهم بركتها. وكان أن وصلت الهاربتان بعد أربع وعشرين ساعة إلى البصرة، قبل أن يستيقظ الملك. حينذاك تخلّصتا من تنكرهما، تجنباً لإثارة الشبهات. واستأجرتا بسرعة كبيرة مركباً نقلهما، عبر مضيق هرمز، إلى شواطئ عدن الجميلة، في بلاد اليمن السعيد.

وعدن تلك التي ذاع صيتها حتى أصبحت منذ القديم مقرّ إقامة الصالحين؛ إنها نسخة عن الشانزيليزيه، وعن حدائق هيسبيريد التي تعطي أشجارها ثماراً من ذهب، وعن جزر الحظ والسعادة، الفورتينيه، جزر الكناري: إذ في تلك المناخات الحارة، لم يتخيّل البشر سعادة أكبر من نعيم الأفياء الوارفة وسقسقات المياه. فالعيش الخالد في السموات مع الربّ الأعلى، أو التجوال في الروض، في الفردوس، هما في نظر البشر أمر واحد، وهؤلاء البشر لا يزالون يتكلمون دون تفاهم، ولم ينجحوا يوماً في تكوين أفكار واضحة أو تعابير صائبة.

ما إن وجدت الأميرة نفسها في تلك الربوع، حتى أسرعت إلى تلبية ما طالب به

طائرها الغالي من تكريم جنائزي. وها هما يداها الرقيقتان تصنعان محرقة صغيرة من أحطاب كبش القرنفل والقرفة. وكم كانت دهشتها كبيرة عندما شاهدت المحرقة، بعد نشر الرماد فوقها، تشتعل فيها النار تلقائياً على الفور! وسرعان ما تلاشى كل شيء، ولم يظهر، في موضع الرماد، سوى بيضة كبيرة شاهدت طائرها يخرج منها أشدّ ألقاً من ذي قبل. فكانت أجمل لحظة عاشتها الأميرة طيلة حياتها؛ ولم يكن لديها ما هو أغلى وأعزّ إلا شيء واحد لا غير: كانت ترغب به، لكنها لم تكن ترجو لقاءه.

«أرى بوضوح، قالت للطائر، أنك الفينيق الذي طالما حدثوني عنه. أنا على وشك أن أموت دهشة وفرحاً. فلم أكن أؤمن بالانبعاث؛ ولكن سعادتي أقنعتني الآن به. - الانبعاث، يا مدام، قال لها الفينيق، هو أبسط ما في الدنيا. فكل ما في هذه الدنيا هو انبعاث؛ فاليرقات تنبعث فراشات؛ والنواة المزروعة في الأرض تنبعث شجرة؛ وجميع الحيوانات المطمورة في الأرض تنبعث عشباً، ونباتات، وتُغذي الحيوانات الأخرى لتتحول فيها على الفور إلى جزء متمم لمادتها: فجميع الجزيئات التي كانت تتألف منها الأجسام تتحول إلى كائنات مختلفة. نعم، صحيح أنني الوحيد الذي منحني أوروزماد القادر كرامة الانبعاث من داخل طبيعتي ذاتها.»

أما فورموزنت التي أمضت جميع أوقاتها تعاني الدهشة تلو الدهشة، منذ اليوم الذي شاهدت فيه همذان والفينيق، فقالت له: «يمكنني أن أتفهّم كون الكائن الأعظم قادراً على أن يصوّر من رمادك فينيقاً يكاد يكون مشابهاً لك؛ لكن أن تكون أنت تحديداً الشخص ذاته، وأن تكون لك الروح ذاتها، أعترف بأنني لا أفهم هذا بوضوح. فماذا حلّ بروحك أثناء حملي لك في جيبي من بعد موتك؟

- إيه! يا إلهي! يا مدام، أفليس من الأسهل على أوروزماد العظيم خلقي انطلاقاً من شرارة صغيرة مني بالذات وكان قد بدأ ذلك الخلق من لا شيء؟ لقد سبق له أن وهبني الشعور، والذاكرة، والتفكير: وعاد يهبني إياها من جديد؛ أمّا أن يكون قد ربط هذه الهبة بشرارة أولى من النار المختفية في ذاتي، أو بمجموع أجهزتي العضوية، فهذا لا قيمة له في العمق: فطيور الفينيق والبشر لن يفهموا أبداً كيف حصل هذا الأمر؛ أمّا النعمة الكبرى التي أنعم بها الكائن الأعلى عليّ فهو أنه بعثني مجدداً من أجلك. فليتني أستطيع قضاء الثمانية والعشرين ألف عام، التي لا تزال باقية من عمري إلى أن يكون انبعاثي المقبل، معكِ ومع همذان!

- يا فينيقي الغالي، أجابته الأميرة، تذكّر بأن الكلمات الأولى التي قلتها لي في بابل، والتي لن أنساها أبد الدهر، دغدغت مشاعري بآمال اللقاء من جديد مع ذلك الراعي الغالي الذي أصبح معبودي: فيجب دون أي تمهّل أن نذهب سويّاً إلى بلاد الغانجيّين، وأن أعود به إلى بابل.

- فقال الفينيق: - هذا تماماً هو مخططي؛ ولا يجوز أن نضيّع أية دقيقة.

لكن علينا الذهاب للعثور على همذان بأقصر الطرق، أي عن طريق الفضاء. ففي اليمن السعيد قبرّتان، صديقتان حميمتان لي، لا يبعد مسكنهما عن مكاننا هذا أكثر من مائة وخمسين ميلاً؛ سوف أكاتبها بالبريد الجوي عن طريق حمام زاجل؛ وسوف تكونان عندنا قبل حلول الليل. وهكذا سيكون لنا الوقت الكافي لنصنع من أجلك مقعداً منجداً مريحاً، مزوداً بأدراج لنضع فيها مؤونة الطعام. سوف تكونين في أحسن حال بركوب هذه العربة مع وصيفتك. فهاتان القبّرتان هما أقوى أبناء جنسهما؛ وسوف تمسك كلٌّ منهما بمسندٍ من مسندَيْ ذلك المقعد ببراثنهما؛ لكن، مجدداً أؤكد على أن لكل ثانية قيمتها.» وتوجّه برفقة فورموزنت ليطلب من أحد النسّاجين من معارفه تفصيل ذلك المقعد ذي المسندين. وكان أن أصبح جاهزاً في مدى أربع ساعات. فوضعوا في الأدراج خبزاً ملكياً، مع بسكوت أفضل من البسكوت البابلي، وليموناً، وأناناساً، وجوز هند، وفستقاً، وخمراً من عدن، يتفوّق بمراحل على خمور شيراز، مثلما يتفوق خمر شيراز على خمور سورين.

كان ذلك المقعد المنجّد خفيف الوزن، ومريحاً، ومتيناً على حدّ سواء. واستقرت فورموزنت وإيرلا في تلك العربة، فحملتهما القبرّتان كأنهما ريشة. أما الفينيق فتارة يحلّق طائراً إلى جانبهما، وطوراً يحطّ على المسند الخلفي. وشقّت القبّرتان أجواء الفضاء منطلقتين نحو الغانج بسرعة السهم المنطلق في الفضاء. وما كانوا يستريحون إلا ليلاً لثوانٍ قليلة كي يأكلوا، ولتقديم كأس إلى حاملتي العربة.

ثم وصلوا أخيراً إلى بلاد الغانجيّين. فراح قلب الأميرة يخفق عامراً بالرجاء، والحب، والغبطة. وأوقف الفينيق العربة أمام بيت همذان: واستأذن في التكلّم معه؛ لكنه كان قد رحل منذ ثلاث ساعات، دون أن يدري أحدٌ وجهته.

لا توجد مفردات حتى في لغة الغانجيّين يمكنها التعبير عن اليأس الذي هدّ قوى

فورموزنت. «وا أسفاه! هذا ما كنت أخشاه. قال الفينيق؛ فالساعات الثلاث التي قضيتها في نزلك مع ملك مصر ربما انتزعت منكِ فرحة عمرك: أخشى ما أخشاه أن يكون قد ضاع منا همذان إلى غير رجعة.»

حينذاك استأذن من الخدم لإلقاء التحية والسلام على السيدة والدته. فأجابوه بان زوجها توفي قبل يومين وهي لا تقابل أحداً. لكن الفينيق الذي كان ذا حظوة في ذلك البيت، عمل على إدخال أميرة بابل إلى صالون جدرانه مكسوّة بخشب أشجار البرتقال المزين بشبكٍ من العاج؛ وأقبل الخدم الرعاة والخادمات الراعيات، بثياب بيضاء حتى الأرض مع أحزمة بلون الفجر الوردي، يحملون مائة طبق من البورسلان عامرة بأطايب الطعام، دون أن يكون فيها أية جثّة متنكرة: بل الطعام هو من الأرز، ودقيق جوز الهند، ودقيق القمح، والشعيرية، والمعكرونة، والبيض المقلي بالسمن، والبيض بالحليب، وأنواع الجبن بالقشطة، والحلويات بأنواعها، والخضراوات، والثمار ذات النكهة والرائحة الزكية مما لا يخطر على بال بشرٍ في باقي أرجاء الأرض؛ كما أغدقت المشروبات المنعشة، التي تتفوق على أفضل أنواع الخمور.

وبينما كانت الأميرة تتناول طعامها، متكئة على سرير من خشب الورد، راحت أربعة طواويس، خُرْسٌ لحسن الحظ، تبدّد حرارة الجو بتحريك أجنحتها البرّاقة قرب الأميرة؛ كما قام مائتا طائر، ومائة راعٍ، ومائة راعية، بتقديم حفل موسيقي بدورين؛ فالبلابل، والحساسين، والبراقش، تغني الجوابات الحادة مع الراعيات؛ بينما يغني الرعاة الجوابات الخشنة والقرارات: وكان ذلك في مجمله الغناء الجميل والبسيط للطبيعة. فاعترفت الأميرة بأن وجود مظاهر البذخ والروعة في بابل لا يلغي بأن الطبيعة أحلى ألف مرّة في بلاد الغانجيّين؛ لكنها، أثناء استماعها لتلك الموسيقا المواسية والتي تبعث النشوة، لم تنفك تذرف الدموع؛ وراحت تقول لرفيقتها الصبيّة إيرلا: «هؤلاء الرعاة والراعيات، وهؤلاء البلابل والحساسين يمارسون الحب، بينما أنا، ما أزال محرومة من البطل الغانجي، الذي هو مدار رغباتي الرقيقة والملهوفة.»

أثناء قيامها بإجراء هذه المقارنة، وأثناء تعبيرها عن الإعجاب واسترسالها في البكاء، كان الفينيق يتحادث مع أم همذان قائلاً: «يا مدام، لا يمكنك الامتناع عن رؤية أميرة بابل؛ فكما تعلمين...- أنا أعلم كل شيء، قالت له، وصولاً إلى مغامرتها

في النزل على طريق البصرة؛ لقد روى لي أحد الشحارير كلّ شيء هذا الصباح؛ وهذا الشحرور القاسي القلب هو السبب في أن ابني، بعد أن غرق في اليأس والقنوط، صار مجنوناً، وخرج هائماً على وجهه مخلّفاً وراءه بيت والديه. - إذن أنتِ لم تعلمي أن الأميرة أعادتني إلى الحياة؟ - كلا، يا بنيّ العزيز؛ بل كنتُ أعلم عن طريق الشحرور ذاك بأنك متٌّ، وهذا ما جعلني في غاية الحزن والأسى، وكانت فجيعتي بذلك الخبر، وبموت زوجي، وبذهاب ابني لا يلوي على شيء، هي ما جعلتني أغلق بابي وأمتنع عن مقابلة كائن من كان. لكن ما دامت أميرة بابل قد شرّفتني بالمجيء لرؤيتي، اعطهم الأوامر لإدخالها دون تأخير؛ فلديّ أمور في غاية الخطورة أقولها لها، وأريدك أن تكون حاضراً لتسمع ما أقول.» وتوجهت فوراً إلى صالونٍ آخر لاستقبال الأميرة. ولم تكن تمشي بسهولة: إذ كانت سيدةً في عمر الثلاثمائة سنة؛ لكنها لا تزال تحتفظ ببقية من جمال، مما يبيّن بوضوح أنها كانت فاتنة الجمال عندما كانت لا تزال في المائتين والثلاثين إلى الأربعين من عمرها. وكان أن تم اللقاء بينها وبين فورموزنت، فاستقبلتها بعراقة وتبجيل، مُزجتا بهيئة تشف عن الاهتمام والألم مما ترك في أعماق الأميرة انطباعاً بالغ الأثر.

قدمت فورموزنت في البداية تعازيها وعبّرت لها عن حزنها لوفاة زوجها. «يا أسفاه! قالت الأرملة، لا بدّ لكِ من أن تهتمي لفقدانه أكثر مما تظنين. - لقد تأثرتُ دون شك بهذا، قالت فورموزنت؛ فهو كان والد...» هنا شرعت بالبكاء. «كنتُ قد جئت من أجله متحمّلة العديد من الأخطار. ومن أجله تركتُ والدي وأبهى بلاط في الكون؛ وخطفني ملكٌ مصريّ، أمقته. وبعد أن هربت من ذلك الخاطف، جزتُ الفضاء لآتي وأرى من أحبه قلبي؛" وعندما وصلت، هرب من لقائي!» وراحت تبكي وتنشج فلم تستطع متابعة الكلام.

قالت لها الأم حينذاك: «أيتها السيدة المحترمة، عندما قام ملك مصر باختطافك، عندما كنتِ تتعشين معه في تلك الخمّارة على طريق البصرة، عندما يداكِ الجميلتان سكبتا له من خمر شيراز، هل تتذكرين أنكِ رأيتِ شحروراً يرفرف في الحجرة؟ - نعم والحق يقال، لقد رجعت لي تلك الذكرى، لكنني لم أكن أعيره انتباهي؛ أما الآن وأنا أستجمع أفكاري، فأذكر جيداً أن الشحرور طار من النافذة وهو يطلق صرخة عالية، ولم يعد من بعدها، حدث هذا عندما نهض ملك مصر لتقبيلي.

- يا أسفاه، أيتها السيدة، تابعت أم همذان، فهذا بالضبط هو سبب مصائبنا؛ إذ كان ابني قد أوفد ذلك الشحرور ليستطلع أخبار صحتك وكل ما يجري في بابل؛ وكان يعتزم العودة سريعاً ليركع عند قدميك ويكرّس باقي عمره لك. فأنتِ لا تعلمين مدى عشقه الكبير لك. كل الغانجيّين عشاقٌ وأوفياء؛ لكن ابني أكثرهم ولهاً وأشدهم ثباتاً على عشقه. لقد وجدكِ الشحرور في خمّارة؛ وكنت تشربين بمرح مع ملك مصر ومع كاهن خسيس؛ ورآكِ أخيراً تقدمين قبلة رقيقة لذلك الملك، الذي كان قد قتل الفينيق، والذي كان ابني يشعر تجاهه بكراهية لا يمكن قهرها. فالشحرور، لدى رؤيته هذا، شعر باستنكار كبير في محلّه؛ وحلّق طائراً وهو يلعن غرامكما المشؤوم؛ وقد وصل اليوم، وقصّ جميع ما رأى؛ لكن متى فعل هذا، أيتها السماء العادلة! في اللحظة التي كان ابني يبكي فيها معي موت والده وموت الفينيق؛ في اللحظة التي أعلمتُه فيها بأنه ابن ابن عمّك!

- أواه يا سماء! ابن عمي! يا مدام، هل هذا ممكن؟ وكيف حصل هذا الأمر العجيب؟ كيف؟ ماذا! هل يمكن أن تكون سعادتي إلى هذه الدرجة! وأكون في الوقت نفسه شقيّة لإهانتي إياه!

- ابني هو ابن ابن عمك، كما أقول لك، تابعت الأم، وسوف أبرهن لك فوراً على هذا؛ لكنك وأنت قريبتي انتزعتِ مني ابني؛ فلم يكن باستطاعته الاستمرار على قيد الحياة بعد الألم الذي سبّبته قبلتكِ التي منحتها لملك مصر.

- أواه! يا عمتي، هتفت الحسناء فورموزنت، أقسم لكِ به وبأوروزماد القادر أن تلك القبلة المشؤومة، هي أبعد ما تكون عن الذنب والخطيئة، ولم تكن سوى أقوى برهان على الحب أمكنني تقديمه لابنك. فأنا من أجله كنت في طريقي من الفرات إلى الغانج. وإذ وقعتُ بين يديّ فرعون مصر الوضيع، لم يعد بإمكاني الفرار منه إلا بخداعه. وأنا أُشهد على صدقي رماد وروح الفينيق، وكان حينها في جيبي؛ ويستطيع الفينيق أن يشهد بالحق، ويحكم بالعدل؛ لكن، كيف يمكن لابنك، المولود على ضفاف الغانج، أن يكون ابن عمي، وأنا التي عائلتي تحكم على ضفاف الفرات منذ قرون عديدة؟

- تعلمين، قالت لها الغانجيّة المبجّلة، بأن شقيق جدك، آلدي، كان ملكاً على بابل، وأنه أنزله عن العرش والد بيلوس. - نعم يا سيدتي.

- وتعلمين بأن ابنه آلدي رُزق من زواجه بالأميرة آلدي، التي ترعرعت في بلاطكم. فهذا الأمير، بعد أن قاسى الاضطهاد، جاء لاجئاً إلى ديارنا السعيدة؛ وهو الذي تزوجني؛ ومنه رُزقت بالأمير آلدي- همذان، أجمل، وأقوى، وأشجع، وأعفّ بني البشر الفانين، وهو الآن في يومنا هذا أكثرهم جنوناً. لقد اجتذَبتْه إلى احتفالات بابل شهرة جمالك:

ومنذ ذلك الحين صرت معبودته، ولعلّي لن أرى من بعد اليوم ابني الغالي.»

حينذاك نشرت أمام الأميرة جميع مستندات آل آلدي؛ فلم تكد تنظر إليها فورموزنت؛ وهتفت: «آه! يا مدام، هل يدّقِق الإنسان ما يحب ويشتهي؟ فقلبي راغب في تصديقك. لكن أين يكون آلدي- همذان؟ أين هو قريبي، حبيبي، مليكي؟ أين هو حياتي؟ إلى أين توجّه وعلى أية طريق؟ سوف أذهب لأفتش عنه في جميع الكرات التي أبدعها الخالق الباقي على الدهر، فهو فيها أجمل زينة.

سوف أمضي إلى النجوم كنوب والدبران وغيرهما؛ سوف أمضي لإقناعه بحبي وبراءتي.»

وصدّق الفينيق على ما قالت الأميرة، وبرّأ ساحتها من الجرم الذي نسبه إليها الشحرور حين زعم أنها منحت قبلتها حبّاً بملك مصر؛ ولكن كان الأهم إزالة الغشاوة عن عيني همذان واسترجاعه. فأرسل طيوراً على جميع الدروب؛ وجنّد الخيول وحيدة القرن لهذه الغاية: وكان أن جاءه الخبر أخيراً بأن همذان سلك طريق الصين. هتفت الأميرة: «وليكن! هيّا بنا إلى الصين، فالرحلة إليها غير طويلة؛ وأرجو أن أُعيد إليكِ ابنك في مدى خمسة عشر يوماً على أبعد تقدير.» بعد قول هذه الكلمات، كم من الدموع الرقيقة ذرفتها الأم الغانجيّة وأميرة بابل! كم من المعانقات! كم من العواطف الدافقة من أعماق القلب!

وأمر الفينيق على الفور بإحضار عربة تجرها ستة أحصنة وحيدة القرن. وقدّمت الأم مائتي فارس، وأهدت الأميرة، قريبتها، آلافاً من أجمل ماسات البلد. أما الفينيق، الذي ساءه في الصميم ما أحدثه تسرّع الشحرور وقلة تكتّمه من ويلات، فعمل على إصدار الأوامر إلى جميع الشحارير كي تشدّ الرحال وتغادر البلاد؛ وهذا تفسير انقطاع كل أثر للشحارير منذ ذلك الحين على ضفاف الغانج.

V

أوصلت الخيول وحيدة القرن، في أقل من ثمانية أيام، فورموزنت وإيرلا، والفينيق، إلى كمبالو، عاصمة الصين. وكانت أكبر من مدينة بابل، وذات فخامة رائعة تختلف عن فخامة بابل وروعتها. كان يمكن لتلك الأشياء الجديدة، والعادات الجديدة، أن تبعث السرور في نفس فورموزنت لو كان انشغالها بغير همذان.

وحالما علم إمبراطور الصين بأن أميرة بابل هي على أحد أبواب مدينته، أوفد لاستقبالها أربعة آلاف من كبار المسؤولين بثياب الاحتفال؛ فركع الجميع أمامها، وأهدى كلٌّ منهم إليها ترحيباً كُتب بأحرف من ذهب على ورقة من الحرير الأرجواني. وقالت فورموزنت لهم معتذرة إنها، لو كان لها أربعة آلاف لسان، إذن لقدّمت الجواب على الفور لكلّ مسؤول على حده؛

لكنها، نظراً لأنها لا تملك سوى لسانٍ واحد لا غير؛ رجتهم أن يتقبلوا منها استخدامها له لتشكرهم جميعهم على وجه العموم. فرافقوها بكل إجلال لمقابلة الإمبراطور.

كان ذلك العاهل من أعدل حكام الأرض، وأكثرهم تهذيباً وأبعدهم حصافة وحكمة. فهو الذي كان السبّاق، شخصياً، لحراثة حقل صغير بيديه الإمبراطوريتين، كي يجعل الزراعة محل تكريم لدى شعبه. وكان السبّاق إلى إعطاء الجوائز للفضيلة والشرف، بينما كانت القوانين، في كل مكان آخر، تتوقف بشكل مخجل عند حدود معاقبة الجريمة. وكان ذلك الإمبراطور قد طرد من دوله فريقاً من الأدعياء المتسلّطين قدموا إليه من أعماق الغرب، يحدوهم أملٌ أحمق أن يجبروا الصين بأكملها على التفكير كما يفكرون، وكانوا، برغم التبشير بالحقائق، قد بدؤوا بكنز الثروات والأمجاد. فقال لهم، عندما طردهم، هذه الكلمات المدوّنة في سجّل حوليات تاريخ الإمبراطورية:

«يمكنكم أن تحدثوا من الأذى هنا مثلما فعلتم في كل مكان: لأنكم قدمتم للتبشير بعقائد التعصّب بين أوساط أكثر أمم الأرض تسامحاً. سوف يُصار إلى إرجاعكم بكل لياقة نحو حدود بلادي؛ وسوف تُزوّدون بكل ما يلزم لتأمين رجوعكم إلى نصف الكرة الذي جئتم منه. فاذهبوا بسلام إن كان بإمكانكم يوماً أن تكونوا بسلام، ولا تدعونا نشاهد وجوهكم بعد اليوم.»

وعلمت أميـرة بابل، بفـرح، بذلك الحكم وبذلك الحديث؛ وهذا ما زاد من يقـينها بأنها سوف تلاقي الترحيب في البلاط، لكنها كانت بعيـدة جداً عن تبنّي معتقدات قائمة على التعصّب. وإذ كان لإمبراطور الصين عشاء خاص معها، فقد أظهر تهذيباً ولياقة باستبعاد كل إحراج وجميع المجاملات المزعجة، وعرّفته بالفينيق الذي تلقّى مداعبات كثيرة من الإمبراطور، وكان قد حطّ على مقعده. ثم إن فورموزنت، مع نهاية الطعام، أسرّت إليه بكل براءة بموضوع رحلتها، ورجته أن يصدر أوامره للبحث عن همذان الجميل في كمبالو، وقصّت عليه حكايتها العجيبة، دون أن تخفي شيئاً بصدد العاطفة الطاغية التي ألهبت حنايا أضلاعها حيال ذلك البطل الشاب.

«وهل أنا جاهل بعلوّ شأنه؟ قال لها؛ إمبراطور الصين؛ لقد أمتعني بحضوره إلى بلاطي؛ حقاً بهرني، همذان اللطيف ذاك: وبالفعل فهو يعاني من شعور عميق بالفاجعة؛ لكن ألطافه أبلغ تأثيراً مع فاجعته؛ وليس بين أتباعي المقرّبين من يتحلّى بأعلى من الفكر الذي لديه؛ وليس من مثقفي المناصب من هو أوسع اطلاعاً منه؛ وليس من رجال السيف البارزين عندي من خلق للحرب والبطولة مثله؛ بالإضافة إلى أن فتوته اليافعة تضفي ألقاً جديداً على جميع تلك المواهب؛ ولو ألمّت بي الدواهي، وأردت الانتصار من بعد خذلان تيان وشانغتي لي، لرجوت همذان أن يستلم قيادة جيوشي، وأنا على يقين بأنه سوف يتغلّب على الكون بأسره. ومن المؤسف جداً أن أحزانه تشوش عليه أحياناً سلامة تفكيره.

- أواه! يا سيدي، قالت له فورموزنت بهيئة متوقّدة وبلهجة متألمة، متأثرة، لوّامة، لماذا لم تجعلني أتعشّى معه؟ أنت تقضي عليّ؛ فهلاً أرسلتَ في طلبه على الفور. - يا مدام، لقد رحل هذا الصباح، ولم يقل إلي أيّ البلدان تقوده قدماه.» هنا التفتت فورموزنت إلى الفينيق قائلة: «بالله عليك، أيها الفينيق، هل رأيتَ أبداً فتاةً أشقى مني؟ ثم تابعت مخاطبة الإمبراطور: لكن، يا سيدي، كيف، ولماذا استطاع أن يغادر بمثل هذه السرعة المباغتة بلاطكم الذي لا يضاهى في الكياسة والتهذيب، والذي يتمنى الإنسان، على ما أظن وأعتقد، أن يقضي عمره فيه؟

- هذا، يا مدام، تفسير ما حدث وجرى. فقد أغرمت إحدى ألطف الأميرات العريقات به، وضربت له موعداً في جناحها عند منتصف الليل؛ فما كان منه إلاّ أن رحل مع طلوع النهار، تاركاً هذه البطاقة، التي سبّبت لقريبتي ذرف دموع غزيرة.

«أيتها الأميرة العريقة في بلاد الصين، تستحقين أن يحبّكِ فؤادٌ ما كان في يومٍ مغرماً إلاّ بك؛ أما أنا فأقسمت للآلهة الخالدين ألاّ أحبّ أبد الدهر إلا فورموزنت، أميرة بابل، وأَن أعلّمها كيف تُكبح الرغبات في السفر؛ لقد ألمّت بها كارثة الارتماء على قدمي ملكٍ مصري وضيع: فأصبحتُ من أشقى الرجال في الأرض؛ وفقدتُ والدي، والفينيق، والأمل بأن أكون محبوب فورموزنت؛ فغادرتُ والدتي المفجوعة، ودياري، إذ لم أعد أستطيع العيش لدقيقة واحدة في الأماكن التي جاءني فيه نبأ محبّة فورموزنت لسواي؛ فعاهدت الآلهة أن أطوف الأرض دون أن أتخلى عن إخلاصي ووفائي ولا بد أنك سوف تحتقرينني، وأن الآلهة سوف تعاقبني، إذا لم ألتزم بالعهد الذي قطعته على نفسي؛ فاتخذي حبيباً لكِ، يا سيدتي، وكوني مثلي في الوفاء.»

- آه! اترك لي هذه الرسالة المذهلة قالت الحسناء فورموزنت، فهي ستكون عزائي؛ أنا سعيدة في قلب شقائي. فهمذان يحبّني؛ همذان يستنكف، حباً بي، عن الحصول على أميرات الصين؛ فليس غيره على سطح الأرض من يقدر على إحراز مثل هذا النصر؛ لقد ضرب لي أعظم قدوة؛ ويعلم الفينيق أنني لم أكن بحاجة لهذا؛ فما أقسى أن تُحرم حبيبة من حبيبها بسبب قبلة من أطهر القبلات، وما مُنحت إلا للتأكيد على الوفاء الخالص. لكن، على أي حال، إلى أين ذهب؟ وما الدرب الذي سلكها؟ تكرّم بإعلامي، فأرحل فوراً.»

قال لها إمبراطور الصين إنه يعتقد، استناداً إلى التقارير المرفوعة إليه، أن حبيبها سار على الدرب المؤدي إلى بلاد ياجوج وماجوج. فأسرجت على الفور الخيول وحيدة القرن، واستأذنت الأميرة، من بعد أرقّ التحيات، إمبراطور الصين في الرحيل مع الفينيق، ومع وصيفتها إيرلا، وجميع الموكب المرافق.

وحالما صارت في بلاد ياجوج وماجوج، رأت أوضح مما تبيّن لها في أيّ يوم مضى، كم يختلف البشر والحكومات، وكم سيظل الاختلاف والتباين إلى أن يستطيع شعب مستنير أكثر من الشعوب الأخرى نقل إشعاع الأنوار تدريجياً من بعد ألف قرن من الظلمات، وأنه لا بدّ من أن يوجد في الأوساط البدائية المتخلّفة رجالٌ شجعان النفوس تتوافر لديهم القوة والمثابرة لتغيير الأجلاف وتحويلهم إلى بشرٍ حقيقيين. فلا مدن في بلاد ياجوج وماجوج، وبالتالي فلا فنون رقيقة لطيفة. ولم تكن العين لتقع إلا

على مروج مترامية وأقوام يعيشون جميعهم تحت الخيام وفوق العربات. كان ذلك المشهد يبعث على الرعب. وسألت فورموزنت عن خيمة أو عربة الملك. فقيل لها إنه منذ ثمانية أيام سار على رأس ثلاثمائة ألف فارس متوجّهاً لملاقاة ملك بابل، بعد أن اختطف منه ابنة أخيه، الأميرة آلدي. فهتفت فورموزنت: «اختطف ابنة عمي؛ أنا لم أكن أنتظر مثل هذه المغامرة الجديدة. ماذا! ابنة عمّي التي كانت تطير فرحاً إذا قبلت ملاطفتها، أصبحت ملكة وأنا لم أتزوّج بعد.» فطلبت أن يأخذوها على الفور إلى خيام الملكة.

كان في اجتماعهما غير المنتظر في تلك الأقاليم النائية، وفي الأمور العجيبة التي كان عليهما أن تعلم كلٌّ منهما الأخرى بها، ما أضفى على ذلك اللقاء سحراً أنساهما أنهما لم يتبادلا الحب في يوم من الأيام؛ فتقابلتا من جديد بعواطف جيّاشة؛ وحلّ وهمٌ ناعم محلّ الرقة الحقيقية؛ وتعانقتا وهما تبكيان، بل سادت بينهما المودة والمصارحة، نظراً لأن اللقاء لم يتم داخل جدران قصر من القصور.

وتعرّفت آلدي على الفينيق وعلى الوصيفة إيرلا؛ وقدّمت إلى ابنة عمّها فراء السمامير، وهذه بادلتها بتقديم قطع من الماس. ودار الحديث عن الحرب التي راح الملكان يعدّان العدّة لها؛ وندبا حظ البشر، الذين يرسلهم الملوك، ترفاً وأبّهةً، ليتذابحوا بسبب خلافات يستطيع أي رجلين فاضلين التصالح عليها خلال ساعة من الزمن؛ لكن الحديث دار خصوصاً عن الغريب الجميل الذي تغلّب على الأسود، وأهدى أكبر الماسات في العالم، مؤلف الشعر الغزلي، صاحب الفينيق، والذي صار من أشقى بني آدم بسبب تقرير رفعه إليه شحرور من الشحارير. فراحت آلدي تقول: «إنه أخي الغالي، فهتفت فورموزنت: -إنه حبيبي! أنتِ لا بد أن تكوني قد رأيته، وربما كان لا يزال هنا، لأنه، يابنة عمّي يعلم بأنه أخوك، ولا يمكن أن يكون قد غادركِ فجأة مثلما غادر ملك الصين.

- تسألين إن كنتُ رأيتهُ، آه، يا للآلهة! تابعتَ آلدي؛ لقد أمضى أربعة أيام كاملة عندي. آه! يابنة عمّي، ما أجدر أخي بالشفقة والعطف! فقد جعله تقريرٌ غير صحيح فاقد العقل كلّياً؟ فهو يمضي في أرجاء الدنيا على غير هدى. تصوري أنه وصل في اختلاله العقلي إلى حدّ رفض ملاطفات أجمل ياجوجية في بلاد ياجوج وماجوج. وكان أن رحل بالأمس بعد أن كتب إليها رسالة أغرقتها في أعماق اليأس. أما هو، فيمّم شطر بلاد السيمريّين. - الحمد لله! هتفت فورموزنت؛ وهذا رفض جديد حبّاً بي! إن

سعادتي أكبر مما كنت أرجو، مثلما أن شقائي قد تجاوز جميع الحدود. أرجو أن تأمري بإعطائي تلك الرسالة الرائعة، لأرحل، وأتبعه، وقد امتلأت يداي بتضحياته. وداعاً يابنة عمّي؛ فهمذان في بلاد السيمريين: وأنا سوف أطير للقائه.»

تبيّن لآلدي بأن الأميرة ابنة عمها كانت حتى أكثر جنوناً من أخيها همذان. لكن نظراً لأنها عاشت هي نفسها حالات ذلك الوباء الجنوني، حين تخلّت عن مسرّات وروائع بابل جرياً وراء ملك ياجوج وماجوج، ونظراً لأن النساء تشغلهن دائماً أبواب الجنون التي يفتحها الحب، فقد تأثرت تأثراً حقيقياً وتعاطفت مع فورموزنت، متمنيّة لها سفراً سعيداً، ووعدتها أن تقف في صفّ عاطفتها إذا شاء حسن الحظ والتوفيق لها ذات يوم أن ترى أخاها من جديد.

VI

لم تتأخر أميرة بابل والفينيق في الوصول إلى إمبراطورية السيمريين، التي هي في الحقيقة أقل سكاناً بكثير من الصين، لكنها بامتداد الصين مرّتين؛ وكانت في الماضي شبيهة ببلاد ياجوج وماجوج، لكنها أصبحت منذ بعض الوقت بازدهار الممالك التي تتباهى بتعليم غيرها من الدول.

وبعد مسيرة أيام دخلوا إلى مدينة كبيرة كانت الإمبراطورة الحاكمة تعمل على تجميلها؛ لكنها لم تكن موجودة فيها آنذاك: إذ كانت مسافرة من حدود أوروبا إلى حدود آسيا لتشاهد دولها بأمّ عينها، ولتنظر في أمر المساوئ وتقدّم العلاج، ولتزيد من المزايا والمحاسن، ولتنشر بذرة التعليم.

وفور وصول خبر قدوم البابلية والفينيق، أسرع أحد كبار ضباط تلك العاصمة العريقة للقيام بواجبات التكريم حيال الأميرة، وعاملها بمراسيم الشرف في بلده، ليقينه الراسخ بأن سيدته، التي كانت أروع الملكات وأكثرهن تهذيباً، سوف تكون ممتنّة لاستقباله مثل تلك السيدة العظيمة الشأن بالمراسيم نفسها التي كان يمكن لها بالذات أن تفرضها بكل سخاء.

وأنزلوا فورموزنت في القصر، الذي أُبعد عنه حشد فضولي من أبناء الشعب؛ وقدّموا أمامها احتفالات في غاية البراعة والمهارة. أما الحاكم السيمريّ، الذي كان من

كبار علماء التاريخ الطبيعي، فتحاور طويلاً مع الفينيق في الوقت الذي انسحبت فيه الأميرة إلى جناحها واعترف له الفينيق بأنه سبق أن سافر في الماضي إلى بلاد السيمريين، وأنه الآن لم يعد يستطيع التعرّف على البلد. فقال: «كيف أمكن لمثل هذه التغيرات المذهلة أن تُنفّذ في هذا الزمن القصير جداً؟ فمنذ ثلاثمائة عام لا غير رأيت هنا الطبيعة البدائية بكل ما فيها من فظاعة؛ أما الآن فأجد الفنون، والبهاء، والمجد، والكياسة والتهذيب. وأجابه السيمريّ: - رجلٌ واحدٌ هو الذي بدأ هذا العمل العظيم؛ وجاءت امرأة استكملت ما بدأه؛ امرأة كانت في التشريع أفضل من إيزيس المصريين ومن سيريس الإغريق. فمعظم المشرّعين كانت عبقريتهم ضيّقة الحدود واستبدادية، بحيث حصروا تطلّعاتهم داخل البلدان التي حكموها؛ وكلٌّ منهم نظر إلى شعبه على أنه الشعب الوحيد على سطح الأرض، أو أنه يجب أن يكون عدواً لباقي أركان الأرض. فرفعوا مؤسساتهم من أجل ذلك الشعب الوحيد، وأدخلوا عادات له وحده، وفرضوا ديناً له وحده. وهكذا، فالمصريون الذين ذاع صيتهم بسبب أكوام الحجارة المرفوعة عالياً، أصابهم الخبل ولحق بهم العار نتيجة لمعتقداتهم الغيبية البدائية. فهم يظنون باقي الأمم دون دين، ولا يتصلون معها؛ وباستثناء البلاط، الذي يرتفع أحياناً فوق مستوى التفاهات الغوغائية، لن تجد مصرياً واحداً يقبل بتناول الطعام متى وضع في وعاءٍ استخدمه أحد الغرباء، من الأجانب. كما أن كهنتهم قساة وخارجون عن كل منطق. ألا فمن الأوْلى عدم وجود قوانين، وألاّ يصغي الإنسان إلا لصوت الفطرة، التي حفرت في أعماق قلوبنا مقومّات الرشاد والضلال، فهذا أجدى من إخضاع المجتمع لقوانين غير صالحة إطلاقاً للاجتماع الإنساني.

«أما إمبراطورتنا فتقوم بمشاريع هي على نقيض هذا تماماً: فهي تعتبر أن دولتها المترامية الأطراف، التي تتجمّع فيها جميع خطوط الطول، يجب أن تلبّي احتياجات جميع الشعوب القاطنة ضمن حدود خطوط الطول تلك. وكان أول القوانين لديها قانون التسامح حيال جميع الأديان وغض النظر عن جميع الهفوات. لقد أتاحت لها عبقريتها الفذّة أن تعرف بأن الأخلاق، رغم اختلاف العبادات، هي ذاتها في كل مكان؛ وعن طريق هذا المبدأ، ربطت أمتها مع جميع أمم الدنيا، فكان أن راح السيمريون ينظرون إلى الاسكندينافيين والصينيين على أنهم أخوة لهم. وذهبت إلى أبعد من هذا: فقد

أرادت لهذا التسامح السامي، الذي هو أول رباط يشد الناس بعضهم إلى بعض، أن يترسّخ لدى جيرانها؛ وهكذا فقد نالت بجدارة لقب أم الوطن، وسوف تنال لقب المحسنة للجنس البشري، إذا ما ثابرت على ما هي فيه.

«قبل أن تستّلم الحكم، كان بعض الرجال من ذوي السطوة يرسلون لسوء الحظ فرقاً من المجرمين لنهب أقوام مجهولين وليسقوا من دمائهم ما يرثونه عن آبائهم: وكانوا يسمّون أولئك القتلة أبطالاً؛ أما أعمال النهب وقطع الطرق فيسمّونها مجداً. غير أن مليكتنا ذات مجدٍ مختلف: فقد سيّرت الجيوش لنشر السلام، لمنع الناس من إلحاق الأذى والضرر بعضهم ببعض، لإجبارهم على أن يصبر بعضهم على بعض؛ فكانت بيارقها بيارق الوفاق الشعبي العام.»

وإذ انبهر الفينيق بكلّ ما علمه من ذلك المسؤول الرفيع، قال له: «يا سيدي، أنا في هذه الدنيا منذ سبعة وعشرين ألف وتسعمائة سنة وسبعة أشهر؛ ولم أشاهد حتى هذا اليوم شبيهاً أو نظيراً لما أسمعتني إياه.» وسأله إن كانت لديه أخبار عن صديقه همذان؛ فروى له السيمريّ الأشياء ذاتها التي سبق أن قيلت للأميرة لدى الصينيّين ولدى ياجوج وماجوج. فهمذان يفرّ هارباً من كل بلاطٍ زاره حالما تضرب له سيدة ما موعداً يخشى أن لايستطيع التماسك أمامه. فأسرع الفينيق ينقل إلى فورموزنت خبر تلك العلاقة الجديدة التي يبرهن من خلالها همذان على وفائه، وهو وفاء يبعث على الدهشة لأن همذان لم يكن يعلم إطلاقاً بأن أميرته سوف تصلها في يومٍ من الأيام أخبار ما يقوم به.

وكان قد رحل نحو اسكندنافيا. وفي تلك المنطقة تحديداً رأت عيناها مناظر جديدة سبّبت لها الصدمة. فهنا يتعايش النظام الملكي والحرية بتوافق يبدو مستحيل التحقيق في الدول الأخرى؛ فالمزارعون يساهمون في التشريع، شأنهم في ذلك شأن الرجالات الكبار في البلاط الملكي؛ وكان ثمّة أمير يحمل جميع الآمال الواعدة العظيمة بأنه سوف يكون أهلاً لتوجيه دفّة الحكم في أمةٍ حرّة. وهنا كان الأمر في غاية الغرابة: فالملك الوحيد المتمتع بحق الاستبداد على الأرض بناءً على اتفاق إجرائي بالتراضي مع شعبه كان في الوقت نفسه أصغر الملوك سنّاً وأكثرهم عدلاً وصلاحاً.

ورأى همذان لدى السرمط على العرش ملكاً فيلسوفاً: كان بالإمكان أن يُطلق

عليه اسم «ملك الفوضى»، لأنه كان رئيساً على مائة ألف ملك صغير يستطيع أيٌّ منهم بكلمةٍ منه إلغاء قرارات جميع الآخرين. ولم يكن إيول، ربّ الرياح، ليعاني في حجز الرياح والتحكّم بها وهي تتلاطم دون توقف، أكثر مما يعاني ذلك العاهل في التوفيق بين العقليات المتنافرة: فهو بّحار تحيط به عاصفة خالدة لا تهدأ أبداً؛ ومع ذلك لم يكن المركب يتحطم، لأن الأمير هو من خيرة الملاّحين.

واستمر همذان، أثناء طوافه في جميع البلدان المغايرة تماماً لبلده، يرفض بإصرار جميع مصادفات الحظ السعيد التي تعترض طريقه، ليأسه العميق والراسخ إلى الأبد بسبب تلك القبلة التي قدمتها فورموزنت لملك مصر، ولإصراره الدائم على قراره المستعصي على الأفهام بأن يضرب لفورموزنت المثل والقدوة في الوفاء الفريد الذي لا يتزعزع أبداً.

وراحت أميرة بابل تتعقّب آثاره برفقة الفينيق، ولم تكن لتتأخر عن اللحاق به إلّا يوماً أو يومين، دون أن يكف عن المضيّ قدماً من بلدٍ لبلدٍ، ودون أن تضيّع هي دقيقة واحدة في ملاحقته.

وعَبَرا على هذه الصورة جميع أرجاء جرمانيا؛ وشاهدا بإعجاب التقدم المتحقق للعقل والفلسفة في الشمال: فالأمراء هناك جميعهم متعلّمون، وجميعهم يسمحون بحرية التفكير؛ ولم يُكلَّف بتعليمهم وتربيتهم رجالٌ لهم مصلحة في خداعهم، أو أنهم هم أنفسهم من المخدوعين: بل تربّوا على معرفة الأخلاق الإنسانية المشتركة، وعلى احتقار الغيبيّات؛ وكانوا قد تخلّصوا في جميع تلك الدويلات من عادة مأفونة، كانت تثير الحنق وتفرغ البلاد الجنوبية من سكانها: وتقوم تلك العادة على دفن الأحياء في زنزانات، فهم فيها بأعداد غفيرة، بعد الحكم القطعي بالفصل بين الجنسين ومنع أي اتصال بينهما. فذلك الخبل الذي فاق كل حدّ، والذي كانت له الحظوة طيلة قرون مديدة، خرّب ودمّر الديار مثلما خرّبتها أفظع الحروب.

وكان أن فهم أمراء الشمال في النهاية أنهم إذا ما أرادوا إيجاد مراكز لتحسين نسل الخيول، فلا يجوز فصل فحول الأحصنة عن أفراسها.

كما حطموا ضلالاتٍ أخرى لا تقلّ غرابة أو أذى. وبدأ الناس أخيراً يتجرّؤون على

سلوك جادة العقل والرشاد في تلك الفيافي الشاسعة، بينما استمر الاعتقاد في أمكنة أخرى بأن من غير الممكن التحكّم بهم إلا بمقدار ما هم عليه من بلادة.

VII

ووصل همذان إلى بلاد البتاف؛ فأحس فؤاده بسرور ورضى رغم أحزانه لأنه وجد فيها شبهاً قليلاً مع بلاد الغانجيّين السعداء: من حرية، ومساواة، ونظافة، ووفرة، وتسامح؛ لكن نساء تلك البلاد كنّ من البرودة بحيث لم تبذل له أيٌّ منهن ما بُذل له في جميع البلدان الأخرى؛ فلم يكن عليه بالتالي أن يتعذّب بمقاومته للنساء. بل لو أراد أن ينقضّ عليهن جميعاً، لجعلهن رهن رغبته الواحدة تلو الأخرى، دون أن تشعر أيٌّ منهن بالحب حياله؛ لكنه كان أبعد ما يكون عن التفكير بالقيام بفتوحات غرامية.

وكادت فورموزنت أن تمسك به لدى ذلك الشعب الباهت العواطف: فلم يكن الفارق بين وصولها ورحيله سوى دقيقة واحدة لا غير.

وتفسير هذا أن همذان سمع البتافيين يطنبون في امتداح جزيرة من الجزر، يقال لها ألبيون، فحزم أمره وقرّر الإبحار إليها، هو وخيوله الوحيدة القرن، على مركب، هبّت ريحٌ شرقية مواتية فنقلته في مدى أربع ساعات إلى شاطئ تلك الأرض الأشهر من صور ومن جزيرة أتلنتيد.

كانت الحسناء فورموزنت قد لاحقته على ضفاف الدونيا، وفيستول، وإيلب، وفيزر، وصولاً إلى مصب الراين، الذي كان ينقل حينذاك مياهه الدافقة ويصبّها في البحر الجرماني.

وجاءها الخبر بأن حبيبها الغالي أبحر إلى شواطئ ألبيون، بل خُيّل لها بأنها رأت مركبه عن بعد؛ فأطلقت صيحات فرح وابتهاج مما أذهل جميع السيدات البتافيات، اللواتي لم يخطر لهن يوماً بأن شاباً ما يمكن أن يبعث مثل تلك البهجة؛ أما الفينيق، فلم يلقين إليه بالاً، لأنهن ارتأين بأن ريشه يرجّح ألا يباع بالسعر الجيّد الذي يباع به ريش البط وفراخ الأوز في المستنقعات لديهن. وقد استأجرت أو استكرت أميرة بابل مركبين لنقلها مع جميع من معها إلى تلك الجزيرة الهانئة، جزيرة النعيم التي سوف تحتضن الشيء الوحيد الذي تعلّقت به رغباتها، فهو روحها وحياتها وهو الربّ الحاكم على فؤادها.

لكن ريحاً غريبة مشؤومة هبّت فجأة في اللحظة نفسها التي كان خلالها همذان قد بدأ بالنزول إلى برّ ألبيون: وهكذا تعطّل انطلاق مركبَيْ الأميرة البابلية. هنالك كان انقباض القلب، والألم الممض، والكآبة العميقة، لدى فورموزنت: فأصبحت طريحة الفراش، مع أوجاعها، بانتظار تغيّر اتجاه الرياح؛ لكن الريح الغريبة استمرت تعصف لمدة ثمانية أيام مخلّفة اليأس والإحباط. فكان دهرٌ من الانتظار، طلبت الأميرة خلاله أن تقرأ لها إيرلا روايات: دون أن يعني هذا أن البتافيّين يحسنون كتابة الروايات؛ لكن، بما أنهم كانوا سعاة بريد العالم، كانوا يبيعون نتاج عقول غيرهم من الأمم، مثلما يبيعون منتوجاتهم. فعملت الأميرة على أن يشتروا لها جميع ما لدى مارك ميشيل ري من حكايات كتبها فرنجة وإسبان، وكان تداولها محظوراً على سبيل الحكمة والرشاد لدى هذين الشعبين مما صبّ في مصلحة البتافيّين؛ وداعبها الرجاء بأن تجد ما يشبه مغامرتها في تلك الحكايات والأقاصيص، لتسكين أوجاعها. كانت إيرلا تقرأ، بينما الفينيق يقول رأيه، أما الأميرة فلم تجد شيئاً يستحق الذكر في «الفلاحة السعيدة»، ولا في «سوفا»، ولا في «الفكارديّين الأربعة» مما يمكن أن تكون له أدنى صلة بمغامراتها؛ فكانت تقاطع القراءة في كل لحظة لتستفهم عن اتجاه الريح.

VIII

في غضون ذلك كان همذان قد انطلق ميّمماً شطر عاصمة ألبيون، راكباً عربته التي تجرها ستة أحصنة وحيدة القرن، ومسترسلاً مع أشواقه، حالماً بأميرته. ولمح عربة نقل مقلوبة في حفرة؛ كان الخدم قد ابتعدوا بحثاً عن المساعدة؛ أما صاحب العربة فجلس هادئاً في عربته، دون أن تظهر على ملامحه أدنى لهفة أو استعجال، ومتسلّياً بالتدخين، إذ كانوا قد بدؤوا بالتدخين في تلك الأزمنة: وكان اسمه الميلورد What- then وهو ما معناه تقريباً باللغة التي أترجم إليها هذه المذكرات: «معليش».

واندفع همذان يمد إليه يد العون؛ فرفع العربة بمفرده، لأن قوته كانت تتفوق كثيراً على قوة باقي البشر. واكتفى الميلورد معليش بأن علّق قائلاً: «هذا رجلٌ متين البنيان حقاً.» ووصل بعض الأجلاف من الجوار، وإذ كانوا قد عجّلوا بالمجيء، تملّكهم الغضب لأنهم استقدموا دون أن يقدموا أدنى فائدة، فتحرّشوا بالغريب: وهدّدوه مطلقين عليه اسم «الأجنبي الكلب» وأرادوا ضربه.

هنا أمسك همذان إثنين منهم بكل يد، ورماهم على بعد عشرين قدماً؛ فعبّر له الباقون عن الاحترام، وحيّوه، وطلبوا منه ما يشربون به: فأعطاهم من المال أكثر مما رأوا طيلة حياتهم. وقال له الميلورد معليش: «أنا أقدّرك؛ تعال لتناول العشاء معي في بيتي الريفي الذي لا يبعد سوى ثلاثة أميال»؛ وصعد إلى عربة همذان لأن عربته تضرّرت بفعل السقطة.

من بعد مرور ربع ساعة صمت، نظر برهة إلى همذان وقال له: How dye do؛ وتعني حرفياً: كيف تفعل لنفسك؟ أما بلغة المترجم فتعني: كيف هي حالك؟ وهو ما ليس له أي معنى في أية لغة أخرى؛ ثم أضاف: «عندك هنا ستة أحصنة وحيدة القرن جميلة جداً»؛ ثم عاد إلى التدخين.

وقال له الرحّالة إنّ أحصنته طوع بنانه؛ وإنه قدم معها من بلاد الغانجيّين؛ ثم استأذنه بأن يحدثه عن أميرة بابل، وعن قبلة الشؤم القدرية التي وهبتها لملك مصر؛ وهو ما لم يردّ عليه الآخر بالمرّة، لقلّة اهتمامه بوجود أو عدم وجود ملك لمصر وأميرة لبابل. وكانت من جديد فترة صمت لمدة ربع ساعة؛ وها هو يسأل صاحبه من جديد «كيف يفعل لنفسه، إن كانوا يأكلون الـroastbeef الطيب في بلاد الغانجيّين. فشرح له المسافر بتهذيبه المعهود أنهم على ضفاف الغانج لا يأكلون إخوةً لهم. وشرح له ذلك النظام الذي أصبح بعد قرونٍ عديدة، النظام الذي أخذ به فيثاغورث، وبورفير، ويامبليك. وكان أن غرق الميلورد في النوم، ولم يستيقظ من غفوته إلا حين الوصول إلى البيت.

كانت زوجته شابة ساحرة الجمال، وهبتها الطبيعة نفساً لها من الحيوية والحساسية ما لنفس زوجها من البرودة واللامبالاة.

وكان عدد من الأعيان الألبيونيّين قد حضروا ذلك اليوم للعشاء في بيتها.

كانت السحنات تمثّل جميع الأجناس والأعراق: إذ أن البلد لم يحكمها تقريباً سوى أجانب، ولذلك فالعائلات التي جاءت مع أولئك الأمراء حملت معها عادات وتقاليد متنوعة. وكان بين جمع الحاضرين رجال لطيفون، وآخرون من ذوي الفكر السامي، ومنهم من كانوا متعمّقين في العلوم.

ولم تكن سيدة البيت لتحمل أي أثر من تلك الهيئة المتكلّفة الفجّة، ومن ذلك

الجمود، وذلك الاحتشام الفاسد، ممّا كانت سيّدات ألبيون ملومات عليه؛ فلم تتعمّد، بهيئة الازدراء وبالصمت المصطنع، إخفاء عقم أفكارها والحرج المخزي لأنها ليس لديها ما تقوله: كلا، فما من سيدة أخرى تفوقها عفوية ومسايرة. فاستقبلت همذان بما كان لديها من تهذيب ولطف دون أدنى تكلّف. وأول ما حرّك حساسيتها بقوة الجمال الفائق لذلك الشاب، والمقارنة التي عقدتها مباشرة بينه وبين زوجها.

وقُدّم الطعام. فأجلست همذان إلى جانبها، وجعلته يأكل معجنات من جميع الأصناف، بعد أن علمت أن الغانجيّين لم يكونوا يأكلون أي شيء وهبته العناية السماوية منحة الحياة. أما الحديث فدار حول قوته، وجمال، وعادات الغانجيّين، وتقدم الفنون، والدين، والحكم، واستمرّ ذلك الحديث ممتعاً وغنياً بالمعلومات على حدٍّ سواء طيلة فترة تناول الطعام، التي استمرت حتى حلول الليل، والتي لم يقل خلالها الميلورد معليش أية كلمة، لكنه شرب كثيراً.

بعد العشاء، وأثناء انشغال الميليدي بصبّ الشاي وبالتهام الشاب بنظراتها، تبادل الحديث مع عضو في البرلمان: إذ، كما يعلم الجميع، كان ثمة برلمان منذ ذلك الوقت، وكان اسمه Wittenag moth، وهو ما معناه: «مجلس رجال الفكر». وطرح همذان أسئلة حول الدستور، والأعراف، والقوانين، وتوزّع القوى، والعادات، والفنون، التي تجعل تلك البلاد من المرغوب فيها، والتي يُضرب بها المثل؛ وقد حدثه ذلك الوجيه بهذه الكلمات:

«لقد مشينا عراة بالكامل لفترة طويلة، رغم أن المناخ لم يكن حاراً. وعوملنا أمداً طويلاً كعبيد أرقاء من طرف رجال جاؤوا من أرض سارتون القديمة، التي ترويها مياه نهر التيبر؛ غير أننا ألحقنا الأذى بأنفسنا أكثر مما وقع بنا على أيدي أوائل الداخلين إلى ديارنا. بل إن أحد ملوكنا ذهب في الخسّة إلى المدى الذي سمح لنفسه بموجبه أن يعلن بأنه أحد رعايا رجل دين كان ما يزال مقيماً على ضفاف التيبر، وكانوا يطلقون عليه اسم «شيخ الجبال السبعة»: لان طموح تلك الجبال السبعة كان لفترة طويلة يتلخّص بالهيمنة على قسم كبير من أوروبا التي كان يقطن فيها آنذاك بعض الأجلاف البدائيين!

«من بعد تلك الحقب القائمة على الإذلال والمهانة جاءت قرون من الوحشية والفوضى. وأرضنا، الحافلة بالأعاصير الأشدّ من أعاصير البحار المحيطة بها، تعرضت

للتخريب وسفك الدماء بسبب خلافاتنا. وتهاوت رؤوس ملكية عديدة بأحكام الإعدام. كما انتهت حياة أكثر من مائة أمير من صُلب الملوك على أعواد المشانق؛ واقتلعت القلوب من صدور جميع أتباعهم، ولُطمت بها خدودهم المضرّجة.

كان الجلاد هو المسؤول عن كتابة تاريخ جزيرتنا، لأنه هو الذي كان يضع نقطة الختام في جميع قضايانا الكبرى.

ومنذ فترة غير بعيدة، وكي تصل الفظاظة إلى ذروتها، قام بعض الأشخاص من لابسي المعاطف السوداء، وبعضٌ آخرين لابسي القمصان البيضاء الطويلة من فوق ستراتهم، بنقل مرضى الكلب إلى الأمة بأكملها بعد أن عضّتهم كلابٌ مسعورة. وهذا ما قسم المواطنين إلى معسكرين، فإمّا قتلة وإمّا مقتولون، إمّا جلادون وإمّا ضحايا الإعدام، إمّا نهّابون قطاع طرق وإمّا عبيدٌ مسترقّون، وتمّ هذا باسم السماء وباسم الجهاد في المولى.

«فمن يمكن أن يصدّق بأن تنهض من اعماق هذه الهاوية المرعبة، من سديم الانشقاقات ذاك؛ سديم العنف الوحشي، والجهل، والتعصب الأعمى، أكثر الحكومات كمالاً في يومنا هذا في العالم قاطبةً؟ لقد نهض ملك مجيد وغنيّ، مطلق القوة في فعل الخير، عاجزٌ عن فعل الشر، على رأس أمةٍ حرّة، محاربة، تعيش على التجارة والعلم المستنير. وها هم الأعيان الكبار من جانب، وممثّلو المدن من الجانب الآخر، يتشاركون في وضع التشريعات مع العاهل الملكي.

وكنا قد رأينا كيف تُنكب البلاد، نتيجة لقدر فريد الشؤم، بالفوضى، والحروب الأهلية، واضطراب حبل الأمن، والفقر، كلّما تشبّث الملوك بالسلطة المطلقة. أما الطمأنينة، والثروات، والنعيم الاجتماعي الشامل، فلا تسود إلا عندما يعترف الملوك بأنهم لا يملكون السلطة المطلقة. لقد لحق الخراب والفساد بكل شيء عندما كان الجدل يحتدم حول أمور يستعصي على الذكاء فهمها؛ ثم ساد النظام والتوافق عندما نحّيت تلك الأمور جانباً بازدراء. وها هي أساطيلنا المنتصرة تحمل مجدنا في جميع البحار؛ بينما القوانين تضع ثرواتنا في أمان: فلا يستطيع أي قاضٍ تأويلها اعتباطياً وقسراً؛ ولا يمكن إصدار أي حكم دون تعليل قانوني. بل إننا نعاقب القضاة على أنهم قتلة إذا ما تجرؤوا على الحكم بإعدام مواطن دون إشهار الشهادات التي تثبت التهمة عليه والقانون الذي يجيز إدانته.

نعم، صحيح أن في ربوعنا دائماً فريقين يتحاربان بالقلم والدسائس؛ لكنهما يتكاتفان أيضاً على الدوام عندما تدعو الحاجة لحمل السلاح دفاعاً عن الوطن والحرية. هذان الفريقان يرصد كلٌّ منهما الآخر؛ ويمنع كلٌّ منهما الآخر من خرق الوديعة المقدّسة للقوانين؛ هما يتبادلان الكراهية، لكنهما يحبان (الدولة): فهما عاشقان غيوران يتباريان في خدمة المعشوقة ذاتها.

«ومن أعماق هذا الإرث الفكري الذي جعلنا نعرف وندعم حقوق الطبيعة الإنسانية ارتقينا بالعلوم إلى أعلى المراتب التي يمكن أن ترتقي إليها لدى بني البشر. فمصريّوكم، الذين يعتبرون من عظماء الصنّاع المهرة في ميدان الحسابات الميكانيكية؛ وهنودكم، الذين يُظنّ بأنهم من عظماء الفلاسفة؛ وبابليّوكم الذين يتفاخرون بأنهم رصدوا النجوم طيلة أربعمائة وثلاثين ألف سنة؛ والإغريق، الذين كتبوا كلاماً كثيراً وأموراً قليلة، لا يعلمون تحديداً أي شيء إذا ما قورنوا بأقلّ طلاّبنا شأناً، من الدارسين لاكتشافات أساتذتنا الكبار. وقد استخلصنا من الطبيعة عنوةً من الأسرار والخفايا في مدى مائة سنة أكثر مما استخلصه الجنس البشري من الاكتشافات على مرّ القرون العديدة.

«فتلك هي بحق وصدق الحالة التي صرنا عليها. أنا لم أكتم عنك لا الخير ولا الشر، ولا مخازينا ولا مجدنا؛ كلا، ولم أبالغ في شيء».

لدى سماع همذان لهذا الحديث، سيطرت عليه رغبة الارتقاء في معرفة تلك العلوم السامية التي كلموه عنها؛ ولولا عاطفته المشبوبة حيال أميرة بابل، واحترامه لأمه التي غادرها، ومحبته لوطنه، لكان تغلّب على قلبه الممزّق، ولكان عبّر عن إرادته في قضاء حياته في جزيرة ألبيون؛ غير أن تلك القبلة المشؤومة التي وهبتها أميرته لملك مصر لم تترك له ما يكفي من حرية التفكير كي ينصرف إلى دراسة العلوم العليا. فقال:

«أعترف لك بأن القانون الذي فرضته على نفسي، بالطواف في أرجاء الدنيا، وبتجنّب وسوسات نفسي، يجعلني متعطشاً لرؤية أرض ساتورن الغابرة تلك، وذلك الشعب على ضفاف التيبر، في الجبال السبعة، والذي خضعتم له في غابر الأزمان؛ فهو، دون شك، يجب أن يكون الشعب الأول على سطح الأرض. -أنصحك أن تقوم بهذه الرحلة، ردّ عليه الألبيوني، اللهمّ شرط أن تحمل ولو القليل من محبة الموسيقا

والتصوير. فنحن أيضاً نحمل أحياناً ضجرنا ونمضي إلى تلك الجبال السبعة. لكنك سوف تفاجأ كثيراً عندما ترى أحفاد من انتصروا علينا في الماضي.»

ودام ذلك الحديث طويلاً. ورغم أن همذان الجميل كان مصاباً إلى حدٍّ ما في مركز دماغه، فقد تكلّم بكثير من الطلاوة، وكان صوته مؤثراً، وهيئته نبيلة ولطيفة، إلى الدرجة التي جعلت سيدة البيت لا تستطيع منع نفسها من محادثته بدورها في خلوة بينهما معاً. وكانت تشدّ على يده برقة وهي تكلّمه، موجّهة إليه نظراتها بعينين مبلّلتين وبرّاقتين تحملان جميع ما في مكامن الحياة من رغبات. فاحتجزته لتناول وجبة آخر الليل وللنوم. هنالك فعلت فعلها كل لحظة، كل كلمة، كل نظرة، بما ألهب عواطفه. وفور انسحاب جميع الحاضرين، كتبت إليه بطاقة صغيرة، ولم يخالجها أدنى شك بأنه لن يتوانى عن الحضور لمغازلتها في سريرها، بينما يكون الميلورد معليش نائماً في سريره. لكن همذان استجمع من جديد شجاعته ليقاوم: لشدة ما يمكن للقليل من الجنون أن يحدث من آثار عجيبة في النفس القوية والمجروحة في أعماقها.

وردّ همذان، كعادته، على السيدة رداً ينمّ عن الاحترام، وشرح فيه قدسية العهد الذي قطعه على نفسه، والضرورة القاهرة التي تلزمه بتلقين أميرة بابل درساً في كبح المرء لجماح عواطفه؛ ومن بعد هذا، أمر بتحضير عربته وأحصنته وحيدة القرن، وقفل راجعاً إلى بلاد البتافيين، تاركاً جميع أولئك الأصحاب متعجبين من أحواله، أما سيدة الدار فخلّف لها اليأس والقنوط. ومن فرط ألمها، سمحت بتداول رسالة همذان؛ وإذ قرأها الميلورد معليش في صبيحة اليوم التالي، هزّ كتفيه قائلاً:

«ألا فهذه بلاهات بليدة لا معنى لها»؛ ثم ذهب إلى صيد الثعالب مع نفرٍ من السكارى الساكنين إلى جواره.

كان همذان قد صار في عرض البحر، مزوّداً بخارطة جغرافية قدمها هدية إليه العالم الألبيوني الذي تحادث معه في بيت الميلورد معليش.

وراح يتطلع مذهولاً إلى قسمٍ كبير من الأرض مصور على ورقة.

وضاعت نظراته مع خياله في هذا الحيّز الصغير المساحة؛ فتابع بنظره الرين، والدانوب، وجبال الألب في التيرول، وهي مدوّنة آنذاك بأسماء أخرى، كما راقب جميع البلدان التي يجب عليه اجتيازها قبل الوصول إلى مدينة الجبال السبعة؛ لكنه ركّز

أنظاره خاصة على إقليم الغانجيّين، على بابل، حيث كان قد رأى أميرته الغالية، وعلى بلاد البصرة المشؤومة، التي قدمت فيها قبلةً لملك مصر. وراح يتنهّد، ويذرف الدموع؛ لكنه وافق بأن الألبيوني الذي أهداه الدنيا مجسّدة في شكل مختصر، لم يجانب الصواب عندما قال إن الناس على ضفاف التايمز أعلم ألف مرّة من المقيمين على ضفاف النيل، والفرات، والغانج.

وأثناء عودته إلى بتافيا، كانت فورموزنت تسرع نحو ألبيون على متن مركبيها، اللذين انطلقا منشوريَ الأشرعة؛ وقد تقاطع مركب همذان مع مركب الأميرة، وتلامسا تقريباً: فكان العاشقان جنباً إلى جنب، دون أن يعلما ذلك. أواه! ليتهما علما! ولكن القدر الطاغي لم يسمح بهذا.

IX

حالما نزل همذان على الأرض المستوية والموحلة في بتافيا، انطلق بسرعة البرق إلى مدينة الجبال السبعة. وتوجّب عليه اجتياز القسم الجنوبي من جرمانيا، حيث كان يعثر كلما قطع مسافة أربعة أميال على أمير أو أميرة، وعلى وصيفات الشرف، وعلى صعاليك.وقد أثار استغرابه الدلال الذي كانت تلك السيدات ووصيفات الشرف يعاملنه به في كل مكان بكل صدق الإيمان الجرماني، ولم يكن له من ردّ سوى الرفض المتواضع. وبعد اجتيازه لجبال الألب، أبحر على بحر دلمانيا، ووصل إلى مدينة لا تشبه إطلاقاً ما سبق أن رآه حتى ذلك الحين. فالبحر في الشوارع، والمنازل مبنية في الماء. والعدد القليل من الساحات العامة المزينة لتلك المدينة كانت محتشدة بغطاء من نساء ورجال مزدوجي الوجوه، الوجه الذي وهبته الطبيعة لكلٍّ منهم، ووجه من الكرتون السيئ التزويق، وهو الوجه الذي يلبسونه فوق الوجه الطبيعي: بحيث كانت تلك الأمة تبدو وكأنها أمة من الأشباح. وأول ما يقوم به الغرباء الوافدون إلى ذلك الإقليم هو شراء وجه، تماماً مثلما يؤمّن الناس في الأماكن الأخرى من الدنيا طاقياتهم وأحذيتهم. وقد ازدرى همذان ذلك الزيّ المخالف للطبيعة؛ وظهر بين الناس بوجهه الحقيقي. وكان في قيود السجل المدني للمدينة اثنا عشر ألف فتاة: وهنّ فتيات يجلبن الخير للدولة، إذ يقمن بأكثر أنواع التجارة ربحاً ومتعة وهذا يحقق الثروة للأمة كما لم يُعرف له مثيل

أبداً. فالتجار العاديون يتكبّدون النفقات الكبيرة والمخاطر الكبيرة لإرسال الأقمشة إلى المشرق؛ أما هؤلاء التاجرات فيقمن دون أدنى مجازفة بتجارة متجدّدة باستمرار قوامها بيع مفاتنهن. وتهافتن جميعهن على همذان، وطلبن إليه الاختيار بينهن. فأسرع هارباً وهو يهتف باسم أميرة بابل التي لا مثيل لها، ومُقسِماً بالآلهة الخالدين أنها هي أجمل منهن جميعاً، الاثني عشر ألفاً من بنات فينيسيا. وكان يهتف عندما تشتد لواعج الشوق «أيتها اللعوب، سوف أعلّمك كيف تكونين وفيّة مخلصة!»

ثم راحت أنظاره تتنقّل على مياه التيبر الصفراء، وعلى مستنقعات موبوءة، وسكان شاحبي الوجوه هزيلي الأجسام، متناثرين بأعداد قليلة، تغطي أجسامهم معاطف تكشف ثقوبها على الجلد الجاف والمتسّخ، فتبيّن له من تلك المشاهد بأنه على أبواب مدينة الجبال السبعة، تلك التي كانت مدينة الأبطال والمشرّعين الذين فتحوا ومدّنوا قسماً كبيراً من الكرة الأرضية.

وخُيّل إليه بأنه سوف يشاهد عند الأبواب المجيدة خمسمائة كتيبة على رأسها أبطال ميامين، وأنه سوف يشاهد في مجلس الشيوخ أنصاف آلهة، يسنّون القوانين على الأرض؛ فلم يجد من جيش سوى زهاء ثلاثين من الأشقياء يقومون بالحراسة وسلاحهم المظلات، وقايةً لهم من الشمس. وإذ تغلغل إلى داخل معبد تراءى له شديد الجمال، لكنه أقل شأناً من معبد بابل، اعترته دهشة كبيرة عندما سمع في المعبد موسيقا يغنّيها رجال لهم أصوات ناعمة كالنساء. فقال:

«كم هي مضحكة بلاد ساترين العريقة هذه! فقد سبق أن رأيتُ مدينة لا وجه لأحد فيها؛ وها هي مدينة ثانية ليس للرجال فيها لحية ولا صوت.»

وأخبروه بأن أولئك المغنين ما عادوا رجالاً، لأنهم جُرّدوا من ذكوريتهم كي يجود غناؤهم عندما يمجّدون عدداً كبيراً من الرجال المرموقين ذوي الشأن.

ولم يفهم همذان شيئاً من تلك الأقوال. فرجاه أولئك السادة أن يغني؛ فغنّى لحناً غانجيّاً باللطف المألوف طبيعياً.

كان صوته من أصوات الجوابات الخشنة الجميلة إلى أبعد حد.

فقالوا له: «آه، يا مونسينيور، ما أجمل صوتك السوبرانو! آه! ليت...

- كيف، ليت؟ إلى ماذا تلمحّون بقولكم يا ليت؟ - آه! يا مونسينيور!...

- أي نعم، قولوا إذن؟ - ليتك كنت دون لحية!» وشرحوا له حينذاك المقصود بمرح شديد، مستخدمين إشارات مضحكة جداً، حسب عادتهم، لإفهامه المعنى المطلوب. فوقع همذان في حيرة شديدة، وقال: «سافرت كثيراً، لكني لم أسمع أبداً من يتحدث بهذه المفاهيم العجيبة.»

وبعد أن مضوا في الغناء، توجّه «شيخ الجبال السبعة» في موكب عظيم نحو باب المعبد، ثم أوقف الغناء بأربع أصابع، مع الإبهام المرفوع، فإصبعان ممدودتان، وإصبعان مطويّتان، وقال هذه الكلمات بلغة لم يعد يتكلّمها أحد: «على المدينة وعلى الكون». ولم يستطع همذان أن يستوعب كيف يمكن لإصبعين الوصول إلى ذلك المدى البعيد.

وسرعان ما شاهد استعراض موكب بلاط سيّد الدنيا: كان مؤلّفاً من شخصيات وقورة، بعضهم يرتدي الأثواب الحمراء، والآخرون باللون البنفسجي؛ وكانوا جميعهم تقريباً ينظرون إلى همذان الجميل الطلعة بأعين حانية؛ وينحنون أمامه باحترام، وهم يقولون بعضهم لبعض San Martino Che bel ragazzo! San Pancratio, Che bel fanciullo!. أما السعاة الأدلاّء، الذين يقومون بمرافقة الغرباء وإطلاعهم على فرائد المدينة، فأسرعوا به لمشاهدة خرائب لن يقبل أيّ بغّال قضاء ليله فيها، لكنها كانت في غابر الأزمان عمائر جديرة بعظمة شعبٍ سيّدٍ على العالم. كما شاهد لوحات عمرها مائتا عام، وتماثيل تعود إلى أكثر من عشرين قرناً، رأى فيها آثاراً رائعة. «هل ما زلتم تصنعون مثل هذه الآثار الرائعة؟»

- كلا، يا صاحب السعادة، أجابه أحد الأدلاّء؛ لكننا نحتقر باقي سكان الأرض، لاننا نحتفظ من الماضي بهذه التحف النادرة. فنحن كباعة التحف القديمة، نستمدّ أمجادنا من الثياب العتيقة الباقية في مستودعات مخازننا.»

ورغب همذان في رؤية قصر الأمير: فاصطحبوه إلى حيث طلب.

وهناك رأى رجالاً بثياب بنفسجية يعدّون أموال عائدات الدولة: فأكداس واردة من أراضٍ على الدانوب، وأكداس من مناطق أخرى على اللوار، أو على الغواد لكيفير- الوادي الكبير-، أو على الفيستول. «آه! آه! قال همذان بعد الرجوع إلى خارطته الجغرافية، سيّدكم يملك إذن أوروبا بأكملها مثل أولئك الميامين الغابرين أبطال الجبال السبعة؟ - المفروض أن يملك الأرض قاطبةً، فهذا حقّه الإلهي، أجابه أحد البنفسجيّين؛

بل كانت حقبةٌ اقترب فيها سابقوه من أن يمتلكوا عرش الدنيا قاطبةً؛ غير أن خلفاءهم هم من الطيبة بحيث اكتفوا اليوم بدريهمات قليلة يجبيها لهم الملوك من رعاياهم تحت اسم: ضريبة.

سيّدكم إذن هو في واقع الحال ملك الملوك؟ فهل هذا هو لقبه؟ قال همذان. - كلا ، يا صاحب السعادة؛ بل لقبه هو «خادم الخدم»؛ وهو بالأصل سمّاك وبوّاب، وهذا ما يفسّر بأن الشعار الرفيع له يحمل صورة المفاتيح والشباك؛ لكنه ما ينفكّ يصدر الأوامر إلى جميع الملوك. ومنذ فترة غير بعيدة أرسل مائة أمر وأمر إلى ملك في بلاد السلت، وأطاع الملك أوامره.

- سمّاككم هذا ، قال همذان، لا بدّ إذن أنه أرسل خمسمائة أو ستمائة ألف محارب لتنفيذ المائة أمر وأمر، الصادرة عنه؟

- أبداً، يا صاحب السعادة؛ لأن سيّدنا المقدّس ليس من الغنى بما يكفي لاستئجار عشرة آلاف جندي؛ لكن لديه ما بين أربعمائة إلى خمسمائة ألف نبي إلهيّ الوحي موزّعين في البلدان الأخرى. فهؤلاء الأنبياء من جميع الألوان والمشارب، وهم، بجدارة واستحقاق، يأكلون ويشربون على حساب الشعوب؛ ويعلنون نقلاً عن السماء أن سيّدي يستطيع بمفاتيحه فتح وإغلاق جميع الأقفال، وخاصة أقفال صناديق المال. وهناك كاهن نورماندي، كان نجيّ أسرار الملك الذي حدثتك عنه، وهو متلّقي اعترافاته وأفكاره، فأقنعه بأن عليه الطاعة دون نقاش والالتزام بتنفيذ المائة أمر وأمر الصادرة عن سيّدي: إذ يجب أن تعلم أن أول امتيازات «شيخ الجبال السبعة» هو أنه لا يحيد أبداً عن الصراط المستقيم، كلّما تنازل وتكرّم بأن يقول شيئاً أو بأن يكتب شيئاً.

- يا للروعة، قال همذان، فهذا رجل فريد من نوعه! كم أنا متشوّق للعشاء معه.

- يا صاحب السعادة، حتى لو كنت ملكاً، فلن يمكنك أن تأكل على مائدته؛ كل ما قد يمكنه أن يقدّمه إليك، هو أن يأمرهم فيقدّم إليك الطعام على طاولة أصغر وأقل ارتفاعاً من طاولته. لكن، إذا كنت تريد التشرّف بالكلام معه، سوف أطلب منه التكرّم بمقابلتك، لكن من بعد دفع ما نسمّيه buona manica الذي سوف يجود به طيب معدنك. - بكل طيب خاطر»، قال الغانجي. فانحنى الرجل البنفسجي أمامه باحترام.

«سوف أدخلك غداً، قال؛ عليك أن تركع ثلاث ركعات، ثم تقبّل قدميّ شيخ

الجبال السبعة.» لدى سماع هذه الكلمات، انفجر همذان بقهقهات عالية متواصلة حتى كان على وشك أن يختنق؛ وخرج وهو يمسك بخاصرتيه، مواصلاً الضحك حتى سالت دموعه طيلة الطريق، إلى أن وصل إلى الفندق الذي ينزل، حيث استمر يضحك لفترة طويلة.

إلى حفل العشاء، حضر عشرون رجلاً دون لحية مع عشرين كمنجة وعزفوا له ألحاناًموسيقية. وقد تقرب منه طيلة النهار أهم أعيان المدينة: وعرضوا عليه اقتراحات أغرب حتى من تقبيل قدمي «شيخ الجبال السبعة». ونظراً لتهذيبه الكبير، فقد حسب بادئ الأمر بأن أولئك الوجهاء يظنونه امرأة، ونبّههم إلى خطئهم بكل مستلزمات النزاهة والشرف. لكنه، بعد أن حوصر بإلحاح اثنين أو ثلاثة من البنفسجيّين المتحمسين، رماهم من النوافذ، دون أن يعتبر بأنه قام بتضحية كبيرة من أجل الحسناء فورموزنت. وعجّل بمغادرة تلك المدينة، مدينة أسياد العالم، حيث كان الواجب يقضي بتقبيل إبهام قدم شيخ طاعن في السن، كما لو كان خدّه قد انتقل إلى قدمه، وحيث كانوا يباشرون مع الشباب احتفالات أشدّ غرابة من ذلك.

X

ومن إقليم إلى إقليم، رافضاً باستمرار جميع المنغصات على اختلافها، مقيماً باستمرار على عهد الوفاء للأميرة البابلية، حانقاً باستمرار على ملك مصر، مضى ذلك الفذّ في الثبات والتماسك في طريقه حتى وصل إلى العاصمة الجديدة للغاليين. وهذه المدينة، مثل كثير غيرها من المدن، مرّت بجميع مراحل البربرية، والجهل، والحماقة، والبؤس. فكان الاسم الأول الذي حملته هو «الوحل والطين»؛ ثم حملت اسم «إيزيس»، المأخوذ من عبادة إيزيس التي وصلت إليها وحلّت في ربوعها. أما أول مجلس شيوخ فيها فكان قوامه جمعاً من أصحاب الزوارق. وكانت لفترة مديدة مستعبدة من أبطال النهب والسلب التابعين للجبال السبعة؛ وبعد قرون قليلة، قدم أبطال آخرون من قطاع الطرق من الضفة الأخرى للرين واستولوا على أرضها الصغيرة.

لكن الزمن الذي يغيرّ كل شيء جعل منها مدينة نصفها في منتهى النبل واللطف، ونصفها الآخر فظّ وسخيف إلى حد ما: فذاك هو شعار سكانها. وكان داخل أسوارها

تقريباً زهاء مائة ألف على أقل تقدير لا عمل يقومون به، اللهمّ إلا ما كان لهواً ولعباً. فهؤلاء اللاهون يصدرون أحكامهم على الفنون التي يرعاها ويطورها الآخرون. ولم يكونوا يعلمون ما يدور في البلاط؛ ورغم أنه لا يبعد أكثر من أربعة أميال عنهم، كان يبدو كما لو كان على بعد ستمائة ألف ميل على أقل تقدير. فكانت دعة الحياة الاجتماعية، والمرح، واللهو العابث، شغلهم الوحيد والأهم لديهم؛ وهم ينصاعون لحكامهم انصياع الأطفال الذين تقدم إليهم الألعاب بسخاء لمنعهم من رفع أصواتهم والصراخ. وإذا جاء من يحدّثهم عن الفظائع التي عصفت، منذ قرنين، بوطنهم، وعن الأزمنة الرهيبة التي قام خلالها نصف أبناء الأمة بتذبيح النصف الآخر في سبيل محض سفسطات، يقولون: بالفعل هذا شيء مستقبح، ثم يعودون إلى ضحكهم وإلى غناء التفاهات. وكلّما ازداد اللاهون تهذيباً، وظرفاً، وكياسة، ازداد بروز التعارض بينهم وبين جمعيات من المشغولين.

وكان بين أولئك المشغولين الجادين، أو من يزعمون أنهم كذلك، فرقة من المتعصبين المتجهمين، نصفهم من المحتالين الذين لا همّ لهم إلا نشر الأحزان في الأرض، ولو كان بإمكانهم تحطيمها لما ترددوا عن هذا، ليحصلوا على شيء من المصداقية؛ غير أن جماعة اللاهين، بالرقص والغناء، يجعلونهم ينحشرون في جحورهم، تماماً كما تجبر الطيور البوم على الانكفاء داخل جحور الخرائب.

ومن المتجهمين الجادين رهطٌ آخر، أقل عدداً، دأبوا على الحفاظ على عادات همجية عتيقة ندّدت بها الطبيعة بصوت مرتفع وقد أصابها الهلع؛ هم لا يرجعون سوى إلى مجلّداتهم التي نخرتها الديدان.

فإذا وجدوا فيها عادة خرقاء، نظروا إليها على أنها تشريع مقدس.فتلك العادة الخسيسة في كونهم لا يجرؤون على التفكير بعقولهم، وأنهم يستقون أفكارهم من أطلال الماضي الغابر الذي لم يكن للتفكير فيه شأن يذكر، هي التي أبقت على قيد الحياة، في مدينة المسرّات والمباهج، عادات فظيعة. وهذا هو السبب في عدم التناسب بين الجنح المرتكبة والعقوبات المفروضة عليها.

فتراهم أحياناً يميتون البريء ألف مرّة كي يعترف بجناية لا يدَله فيها. ويعاقبون طيش هذا الشاب أو ذاك كما يمكن أن تعاقب عملية دسّ السمّ أو قتل الأب. ويطلق

اللاهون حيال هذا صرخات استنكار حادة، لكنهم في اليوم التالي يكفّون عن التفكير بالأمر، ولا يتكلّمون سوى عن الأزياء الجديدة.

ومرّ قرن من الزمان بأكمله على أهالي هذه المدينة حيث حضروا ارتقاء الفنون الجميلة إلى درجة من الكمال ما كان أحدٌ ليتجاسر على أن يرجو سابقاً الوصول إليها؛ فكان الأجانب يتوافدون آنذاك، كتوافدهم إلى بابل، للإعجاب بالصروح العمرانية العظيمة، وبأعاجيب تنظيم الحدائق، والجهود السامية في النحت والتصوير. كما كانوا ينتشون بموسيقا تلامس شغاف القلب وتدخل إلى أعماق النفس دون أن تزعج الآذان.

والشعر الحقّ، أعني بذلك الشعر الطبيعي والمتناغم، ذاك الذي يخاطب العاطفة والعقل على حدّ سواء، لم يعرفه ذلك الشعب إلا خلال هذا القرن السعيد الزاهي. فطوّرت أجناسٌ جديدة من البلاغة وجوه الجمال إلى أسمى مراتبها. والمسارح على وجه الخصوص تجاوبت بين جدرانها روائع لم يصل إلى مثل مستواها أبداً أي شعب آخر. وفي النهاية، انتشر الذوق الرفيع في جميع الصنائع، بحيث وُجد كتّابٌ ممتازون حتى ما بين الكهنة.

لكن أشجار الغار العديدة، التي شالت برؤوسها حتى السحاب، سرعان ما صارت إلى يباس في تربةٍ اعتراها الإنهاك. فلم يبق من تلك الأشجار سوى عدد قليل، أوراقها تميل إلى شحوب الموت.

وكان الانحطاط بسبب تبنّي السهولة في العمل والتراخي في الإتقان، بسبب الإشباع من الجمال وتحوّل الذوق إلى الغريب الشاذ. وعمل الغرور على تضليل فنانين أعادوا هيمنة أحقاب التخلّف والهمجية؛ وهذا الغرور المدّعي مارس الاضطهاد بحق المواهب الحقيقة، فأجبرها على مغادرة أراضي الوطن؛ فكان أن برزت الزنابير وأجبرت النحل على الاختفاء.

فكادت الفنون الحقيقية تنقرض، وكادت العبقرية تتلاشى؛ وأصبحت الجدارة والكفاءة عمادهما مناقشة روعة القرن المنصرم تشريقاً وتغريباً: حتى إن المخربش على جدران الملاهي بات يسمح لنفسه أن ينتقد بأستاذية لوحات كبار المصوّرين؛ أما «المخربشون» على الورق فيعملون على تشويه مؤلفات كبار الكتاب. ووظّف الجهل والذوق الفاسد «مخربشين» آخرين كأجراء؛ وها هم يكرّرون الأشياء ذاتها في مائة

تأليف يحمل كلٌّ منها عنواناً مختلفاً. ولم يعد من شيء آخر سوى المعاجم والنشرات. وهاك صاحب صحيفة من الكهنة يكتب مرتين كل أسبوع الحوليات الغامضة عن نفر من مجانين الأمة والذين لم يسمع بهم أحد، وعن أعاجيب خارقة قام بها في بيوت قميئة صعاليك وصعلوكات؛ ومن الكهنة السابقين نفرٌ آخر، يلبسون الأسود، ومستعدون للموت غضباً وجوعاً، يدبجون الشكاوى في مئات المنشورات لأنهم مُنعوا من خداع الناس، بينما سُمح بهذا لتيوس يلبسون الرمادي. ومن رؤساء الكهنة متخصّصون في نشر هجائيات التشهير.

لم يكن همذان يعلم عن ذلك أي شيء؛ وحتى لو علم، فما كان ليشكّل له كبير إحراج، إذ لم يكن ذهنه منشغلاً إلا بأميرة بابل، وبملك مصر، وبالعهد الراسخ الذي عاهد به نفسه حين قرر ازدراء جميع فنون الدلال النسائية، في جميع البلدان التي قد تقوده قدماه إليها.

وتجمّع رهط من الناس اللاهين، الجهلة، الذين استولى عليهم فضول كبير تجاه غرابة لم يألفوها من قبل، وعاينوها بوجودهم هناك بمحض المصادفة، فراحوا يتدافعون طويلاً من حول الخيول وحيدة القرن؛ أما النساء، الأسلم عقلاً، ففتحن عنوة أبواب الفندق كي يشبعن أنظارهن من تأمّله هو بالذات.

وقد عبّر بادئ الأمر لمضيفه عن رغبته بالذهاب إلى البلاط؛ لكن جماعة المنادمة من أهل اللهو واللعب، الذين تصادف أن كانوا موجودين، قالوا له إنها موضة انقضى زمانها، إذ تغيّرت الأحوال تغيّراً كبيراً، حتى لم يعد من وجود للمسرّات إلا في المدينة. فوجّهت إليه الدعوة في ذلك المساء بالذات للعشاء من طرف سيدة كانت مواهبها وأفكارها النيّرة معروفة خارج وطنها، وكانت قد سافرت إلى عدد من البلدان التي عبر فيها همذان. ولاقت هذه السيدة ارتياحاً في نفسه، هي ومجموع الأصحاب من حولها. فالحرية لديهم محتشمة، والمرح ما بينهم ليس ضجيجاً وصخباً، والعلم الذي يتداولون به لا يصدم إطلاقاً، والفكر الذي يطرحونه خالٍ تماماً من التصنّع. ورأى بأن تعبير: المعشر الحسن، لم يوجد عبثاً في اللغة رغم أنه غالباً ما يعتدي عليه من ليسوا من أهله. في اليوم التالي كان عشاؤه مع صحبة لا تقل أنساً ولطفاً، لكنهم أكثر شهوانية بكثير. ومع ازدياد سروره مع أولئك المدعوين، ازداد سرورهم به. فشعر أن نفسه بدأت

تلين وتتفكك مثلما تذوب الأطياب والأفاويه في بلده متى وضعت على نارٍ هادئة، فتنتشر عبقاً زكيّاً.

من بعد العشاء، أخذوه إلى عرضٍ ساحر، مدانٍ من طرف الكهنة لأنه ينتزع منهم جمهورهم الذي يغارون منه كل الغيرة. وكان ذلك العرض مؤلفاً من أشعارٍ لطيفة مستساغة، ومن أناشيد ممتعة، ورقصات تعبّر عن خلجات النفس، ومناظر تسحر العيون بما فيها من خداعٍ للبصر. فهذا الجنس من أجناس المتعة، الذي يضمّ مجموعة من الأجناس، لم يكن معروفاً إلا تحت اسم أجنبي، هو اسم «الأوبرا»، وهو ما كان يعني في ماضي الأزمان بلغة الجبال السبعة: الشغل، العناية، الانشغال، الصنعة، المشروع، الجهد، والأعمال. فهذه الأعمال فتنته وسحرته. وسحرته على وجه التخصيص إحدى الفتيات المشاركات، بصوتها المتموج. كما سحرته بالحركات اللطيفة المرافقة: وفتاة «الأعمال» تلك، بعد انتهاء العرض، عرّفه بها أصدقاؤه الجدد.

فأهداها حفنة من الماس. وبلغ بها العرفان بالجميل أنها لم تستطع أن تفارقه. وكان أن تناول معها في بيتها وجبة آخر السهرة، وأثناء الوجبة، نسي التقشف الذي تقيّد به؛ كما أنه من بعد الوجبة، نسي العهد الذي قطعه على نفسه بأن يُعرض دائماً عن الجمال غير مبالٍ به، وأن يكون صلباً لا يلين أمام كل دلال وإغراء. فياله من مثلٍ بارز على الضعف البشري.

حينذاك وصلت أميرة بابل برفقة الفينيق، ووصيفتها إيرلا، والمائتي فارس من الغانجيين المرافقين لها على صهوات خيولهم وحيدة القرن. وتوجّب عليها الانتظار طويلاً قبل أن يفتحوا الأبواب. فبادرت تسألهم إن كان أجمل الرجال، وأشجعهم، وأوفاهم، وأكثرهم روحانية، لا يزال في المدينة: فتبيّن للمسؤولين دون التباس بأنها إنّما تعني الإشارة إلى همذان بتلك الخصال. وجعلتهم يأخذونها إلى فندقه؛ وها هي تدخل، وقلبها خافق بالغرام: كان الفرح قد تغلغل إلى أعماق نفسها، الفرح الذي تعجز الكلمات عن التعبير عنه، فرحها بأنها سوف تلتقي أخيراً بحبيبها الذي ضرب المثل الأعلى في الثبات والوفاء. ومن شدة فرحها، لم يستطع أي شيء أن يمنعها من الدخول إلى غرفة نومه؛ كانت الستائر مفتوحة؛ ورأت همذان الفاتن يغفو في أحضان سمراء من الملاح الجميلات. كان الاثنان منهَكيْن ويحتاجان حاجة ماسّة للراحة.

أطلقت فورموزنت صيحة ألم دوّت أصداؤها في أرجاء البيت بأكمله، لكنها لم تنجح في إيقاظ ابن عمها ولا فتاة «الأعمال».

وكان أن سقطت غائبة عن الوعي بين ذراعي إيرلا. وفور يقظتها من تلك الغيبوبة، خرجت من غرفة النوم المشؤومة تلك وقد سيطر عليها ألم شديد امتزج بغضب مسعور. واستفهمت إيرلا من تكون تلك الآنسة الشابة التي أمضت تلك الساعات الهنيئة مع همذان الجميل. فقيل لها إنها من فتيات «الأعمال» الملاطفات أجمل ما تكون الملاطفة، والتي كانت ذات مواهب متعددة، من بينها أنها تغني غناء لطيفاً.

هتفت أميرة بابل الجميلة غارقة في دموعها: «آه أيتها السماء العادلة، آه يا أوروزماد القادر! فمن يكون خائني، ومن أجل من، خانني! أهكذا، هذا الذي رفض من أجلي العديد من الأميرات يهجرني حباً بمهرّجة من مهرّجي بلاد الغال! كلا، لن أستطيع البقاء على قيد الحياة بعد هذه الإهانة.

- يا مدام، قالت لها إيرلا، هكذا هم جميع الشباب من أقصى الدنيا إلى أقصاها: فحتى لو عشقوا ذات جمالٍ نازلة من السماء، سوف يخونونها في بعض الأوقات، مع خادمة في ملهى ليلي.

- قُضي الأمر، قالت الأميرة، لن أقبل أن أراه بعد اليوم حتى آخر عمري؛ فلنشدّ الرحال الآن الآن، ولتُشدّ الخيول وحيدة القرن إلى العربات.» توسّل إليها الفينيق أن تتريّث على الأقل إلى أن يستيقظ همذان، حتى يتمكن من الكلام معه. فقالت الأميرة: «هو لا يستحق هذا؛ سوف تهينني بقسوة: لأنه سوف يعتقد بأنني رجوتك كي توبّخه، وأنني أريد التصالح معه. إذا كنتَ تحبني، لا تحمّلني هذه الإهانة بالإضافة إلى الإهانة التي ألحقها بي.» وسألتها إيرلا: «فإلى أين نذهب، يا مدام؟ - لا أعلم عن هذا أي شيء، أجابت الأميرة؛ سوف ننطلق على الدرب الذي نراه أمامنا: المهم أن أهرب من همذان إلى الأبد، فهذا وحده الآن مصدر ارتياحي.»

أما الفينيق الذي كان أحكم وأعقل من فورموزنت، لأنه لم يكن يكابد الشوق، فراح يواسيها وهما منطلقان على الطريق: وجعل يبيّن لها أنّ من المحزن أن يعاقب الإنسان نفسه على أخطاء الآخرين؛ وأن همذان سبق له أن قدّم لها براهين عديدة لا لبس فيها على الوفاء بحيث يمكنها أن تغفر له انجرافه للحظة عابرة؛ وأنه من الصالحين

الذين تخلّت عنهم رحمة أوروزماد؛ وأن تلك الزلّة سوف تجعله أكثر ثباتاً ووفاءً مذ ذاك فصاعداً في مجالي الغرام والفضيلة؛ وأن رغبته بالتكفير عن خطيئته سوف تجعله يتفوّق على نفسه؛ وأنها سوف تزداد سعادة على سعادة بذلك: وأن أميرات عظيمات قبلها سبق أن غفرن مثل تلك الانحرافات، وأنهن أصبحن بسبب هذا في أحسن حال؛ وقدّم إليها أمثلة، كما أنه كان بارعاً جداً في فن سرد الحكايات حتى أن فؤاد فورموزنت في النهاية أصبح أهدأ وأكثر اطمئناناً وسكينة؛ وتمنّت لو أنها لم تسرع بالرحيل:

وبدأت تشعر بأن خيولها وحيدة القرن تمضي بسرعة زائدة، لكنها لم تكن تجرؤ على أن تعود أدراجها؛ وإذ أصبحت بين نارين: الرغبة في الصفح والمغفرة والرغبة في إظهار غضبها، بين حبها وغرورها، أطلقت العنان لخيولها وحيدة القرن؛ وراحت تجوب الدنيا تصديقاً لنبوءة عرّاف والدها.

وقد علم همذان، بعد استيقاظه، بوصول ورحيل فورموزنت والفينيق؛ وعلم بيأس الأميرة وغضبها. وقالوا له إنها لن تغفر له أبد الدهر. فهتف: «لم يعد أمامي إلا أن أتبعها وأن أقتل نفسي عند قدميها.»

وأسرع إليه أصحابه من جماعة اللاهين ذوي المعشر الحسن لدى انتشار خبر تلك الواقعة الغريبة؛ فبيّنوا لهم جميعاً بأن الأفضل له هو أن يمكث معهم؛ وأن من الصعب إيجاد ما يشبه الحياة الهانئة التي يعيشونها بين أحضان الفنون والشهوة الهادئة الرقيقة؛ وأن العديد من الأجانب، وحتى الملوك، فضّلوا هذه الراحة، التي تحسن إيجاد المشاغل المستحبة الآسرة، على أوطانهم وعروشهم؛ وأن عربته، على أي حال، محطمة، ويقوم أحد السرّاجين بصنع عربة جديدة له حسب «الموضة»؛ وأن أفضل خيّاط في المدينة قد فصّل من أجله دزينة من ثياب السهرة حسب آخر مقتضيات الذوق؛ وأن أكثر النساء روحانية وألطفهن في المدينة، من اللواتي تُمثّل في دورهن التمثيليات الهزليّة على خير ما يرام، قد حجزت كلٌّ منها لنفسها يوماً كرّسته لاستقباله وإقامة الأعياد له. وفتاة «الأعمال»/في تلك الأثناء، كانت تضحك، وتغني، وتعاكس همذان الجميل كثيراً، بحيث تبيّن له أخيراً بأنها لم تكن تحمل حتى عقل فرخ أوز.

ونظراً لان شخصية هذا الأمير العظيم كانت قائمة على الصدق، والمودة،

والصراحة، مثلما هي قائمة أيضاً على السمّو والشجاعة، فقد حكى لأصدقائه عن مآسيه ورحلاته؛ كانوا يعلمون أنه ابن ابن عم الأميرة؛ وكانوا قد أخذوا علماً بالقبلة المشؤومة التي مُنحت لملك مصر: «يتسامح الناس فيما بينهم، قالوا له، بخصوص هذه الانحرافات بين الأهل، ولولا هذا لقضوا حياتهم في منازعات لا تنتهي.» لكن لم يمكن لأي شيء أن يزعزع مخططه في الإسراع لحاقاً بفورموزنت؛ غير أن عربته لم تكن جاهزة، فاضطر لقضاء ثلاثة أيام وسط أولئك اللاهين في الأفراح والليالي الملاح؛ بعد هذا استأذنهم معانقاً لهم، وفارضاً عليهم قبول أكثر ماسات بلده وأفضلهن صقلاً، مشيراً عليهم أن يستمروا دائماً على ما هم عليه من الخفّة والاستخفاف، لأنّ ذلك يجعلهم أوفر سعادة. «الجرمان هم شيوخ أوروبا القدماء، قال لهم؛ أما شعوب ألبيون فأولئك رجالٌ بالغون؛ أما أهالي بلاد الغال منهم الأطفال، وأنا أحب أن ألعب معهم.

XI

لم يتكبّد أدلأؤه أي عناء في تعقّب طريق الأميرة؛ فلم يكن من حديث يدور إلا عنها وعن طائرها الضخم. وكان الأهالي لا يزالون تحت تأثير الحماسة والإعجاب. أما أهالي دالماتيا وآنكون فكانوا قد شعروا قبل حين بمفاجأة أقلّ إقناعاً عندما رأوا بيتاً يطير في الأجواء؛ وقد استمرت أصداء الهتافات تدوّي على ضفاف اللوار، والداردونية، والغارون.

لدى وصول همذان إلى سفح البيرينيه، فرض عليه المسؤولون والكهنة حضور الرقص على قرع الطبول الطويلة؛ ثم اجتاز أخيراً البيرينيه، فغاب من أمام ناظريه كل مرح وفرح. وإذا ما التقطت أذناه بعض الأغاني تصله من بعيد، فهي جميعاً أغانٍ ذات نبرة حزينة: فالأهالي يمشون متجهّمين، مع سبحات خرز وخناجر في أحزمتهم. كان ذلك الشعب يرتدي الأسود كما لو كان في مأتم. وإذا ما سأل همذان المارّة، ردّوا عليه بالايماءات؛ وإذا ما دخل إلى فندق، أفهمه صاحب الدار بثلاث كلمات، أن الفندق ليس فيه أي شيء، وأن بإمكانه أن يوفد من يجلب له على بعد أميال وأميال ما قد يكون بأمسّ الحاجة إليه.

وعندما كان السؤال يوجّه إلى أولئك الصامتين للاستفهام عمّا إذا كانوا قد شاهدوا عبور أميرة بابل الجميلة، يردّون بإفاضة على غير عادتهم: «رأيناها، وهي

ليست على هذا الجمال: فلا جمال إلا في البشرة السمراء؛ هي تكشف عن صدر من العاج، الذي يُعتبر من أشد الأمور إثارةً للقرف في العالم، وما نكاد لا نجد له أثراً في مناخنا.»

استمر همذان في تقدّمه نحو الإقليم المرويّ بنهر بيتيس. ولم تكن مياهه قد جرت أكثر من اثني عشر ألف سنة منذ أن اكتشف الصوريّون هذه البلاد، في الفترة نفسها التي اكتشفوا فيها جزيرة أتلنتيد الكبيرة، والتي غرقت بعد اكتشافهم لها بقرون. وقد حرث الصوريون وزرعوا إقليم «البيتي»، الذي ترك أبناء المنطقة أراضيه بائرة، لزعمهم بأنهم ليس عليهم الاهتمام بأي شيء، وأن الغاليّين، جيرانهم، هم الذين يُفترض بهم المجيء وحراثة أراضيهم وزرعها. لقد جلب الصوريون معهم فلسطينيين، قُدّر عليهم، منذ ذلك التاريخ الطواف في جميع الأقاليم، أينما تيسّر لهم كسب بعض المال. وهؤلاء الفلسطينيون، بتقديمهم للقروض برهونات تصل إلى خمسين بالمائة، جمعوا بين أيديهم تقريباً جميع ثروات البلد.

وهذا ما جعل أهالي البيتي يظنون بأن الفلسطينيين سحرة؛ وجميع من اتُهموا بالسحر جرى إحراقهم أحياء دون رحمة على أيدي جمعية من الكهنة حملت اسم «المفتشين» أو «مصلحي البشر». فكان هؤلاء الكهنة يُلبسونهم في بادئ الأمر ثوباً بقناع، ويستولون على ممتلكاتهم، ثم يرتلون بخشوع صلوات الفلسطينيين بالذات وهم يشوونهم على نار هادئة por L'amor de Dios حباً بالله-.

كانت أميرة بابل قد حطّت رحالها في المدينة المعروفة منذ حين باسم اشبيلية. وعقدت عزمها أن تبحر على نهر البيتيس كي تعود عن طريق صور إلى بابل، فتقابل والدها، وتنسى، إذا أمكنها ذلك، حبيبها الغادر، أو تطلبه للزواج. واستقدمت لمقابلتها في مقرّها اثنين من الفلسطينيين كانا المسؤولين عن تسيير جميع الأمور المالية للبلاط. فطلبت إليهما تقديم ثلاثة مراكب. ورتّب الفينيق معهما كل الأمور الضرورية، واتفق معهما على الأجور من بعد بعض المساومات.

كانت صاحبة البيت الذي نزلت فيه الأميرة من أهل التقوى والتديّن، ولم يكن زوجها أقل ورعاً وتقوى منها، أي أنه كان من جواسيس الكهنة، جماعة التفتيش وإصلاح الجنس البشري، فلم يفته أن يعلمهم بوجود ساحرة في بيته برفقة اثنين من الفلسطينيين، وأنهم بصدد عقد حلف مع الشيطان، المتنكر هذه المرة بصورة طير ضخم

ذهبي اللون. وإذ علم المفتشون بأن السيدة تملك مقداراً كبيراً من أحجار الماس، فقد حكموا عليها فوراً بأنها ساحرة؛ لكنهم انتظروا حلول الظلام لاحتجاز المائتي فارس والخيول وحيدة القرن، الذين كانوا في خانات فسيحة مستسلمين للرقاد، وكان سبب الانتظار حتى الليل هو أن المفتشين هم من الجبناء الرعاديد.

وكان أن أوقفوا الأميرة وإيرلا، بعد أن أحكموا إغلاق الأبواب بالمتاريس؛ لكنهم لم يتمكنوا من الإمساك بالفينيق، الذي فتح جناحيه وحلّق طائراً بأسرع ما يمكن: كان لديه الأمل الكبير بلقاء همذان على الطريق بين بلاد الغال واشبيلية.

وبالفعل التقى به على حدود البيتي، فأعلمه بالمصيبة التي حلّت بالأميرة. وتعذّرعلى همذان الكلام، فلم ينطق بكلمة: فقد فاض به التأثر، كما فاض به الغضب الشديد. ولبس درعاً من الفولاذ مطعّماً بالذهب، وحمل رمحاً بطول إثني عشر قدماً، مع رمحين قصيرين، وسيف بتّار، اسمه «أبو الصواعق»، قادر على أن يقطع بضربة واحدة أشجاراً، وصخوراً، وكهنة؛ وغطى رأسه الجميل بخوذة ذهبية مزينة بأرياش اللقالق والنعام. كانت تلك عدة قتال ماجوج، التي وهبته إياها أخته آلدي لدى زيارته لأرض ياجوج وماجوج؛ أما تابعوه القليلو العدد فامتطى كلٌّ منهم مثله صهوة جواد وحيد القرن.

ومن بعد تقبيل همذان لفينيقه الغالي، لم يقل له سوى هذه الكلمات الحزينة: «أنا مذنب؛ فلو لم أضاجع فتاة «الأعمال» في مدينة اللاهين، ما كانت أميرة بابل الجميلة لتكون في هذه الحالة المخيفة؛ هيّا سريعاً لحرب المفتشين.»

وسرعان ما دخل إلى اشبيلية: كان ألف وخمسمائة شرطي يحرسون أبواب الخان الذي احتجز في داخله المائتا غانجي مع خيولهم وحيدة القرن دون أن يحصلوا على أي طعام؛ وكان كلٌّ شيء مرتّباً للقربان الذي يجري الإعداد لتقديمه والمؤلف من أميرة بابل، ووصيفتها إيرلا، والفلسطينيين الموسرين.

كان كبير المفتشين قد جلس في محكمته المقدسة، يحيط به رهطٌ من صغار المفتشين، تزوّدوا بأصابع من الفحم مدسوسة في أحزمتهم، ولبثوا مضمومي الأيدي دون أن ينطقوا بكلمة؛ ثم جيء بالأميرة الحسناء، وإيرلا، والفلسطينيين، مربوطي الأيدي إلى خلف الظهور، ومختفين تحت الأثواب ذوات القناع.

ونجح الفينيق في التسلل من فتحة إلى داخل السجن حيث كان الغانجيون قد بدؤوا بخلع الأبواب. كما راح همذان الذي لا غالب له يحطمها من الخارج. وخرجوا جميعاً بكامل العتاد، وكلٌ منهم على ظهر جواده وحيد القرن؛ وتسلّم همذان القيادة. ولم يلاقِ أي عناء بالإطاحة بالشرطة، وبالمخبرين، والكهنة المصلحين للبشر؛ إذ كان كلٌّ وحيد قرن يخترقهم بالعشرات دفعة واحدة. وراح «أبو الصواعق» في يد همذان يشق شطرين متساويين كل من اعترض طريقه؛ ففرّ الأهالي بثيابهم السوداء، وأطواقهم المتسخة حول أعناقهم، ولا تزال في أيديهم قطع الفحم المقدسة por L'amor de Dios.

وقبض همذان بيده على كبير المفتشين وجذبه من محكمته، ورماه على المحرقة التي كانت موقدة على بعد أربعين قدماً؛ كما رمى إليها أيضاً صغار المفتشين الآخرين، الواحد تلو الآخر. وانحنى من بعد هذا راكعاً عند قدمي فورموزنت.

«آه! كم أنت ظريف ومحبوب، قالت، وكم كنت سأعبدك لولا خيانتك لي مع إحدى فتيات «الأعمال»!»

وبينما راح همذان يرتب مصالحته مع الأميرة، وبينما انهمك الغانجيون بتكديس أجسام جميع المفتشين فوق المحرقة، ارتفعت ألسنة النار إلى السحاب، رأى همذان من بعيد مثل جيش قادم نحوه. وها هو ملك متقدم في العمر، وتاجه فوق رأسه، يتقدم على عربة تجرها ثماني بغلات مربوطة بحبال إلى العربة وراحت تتقدم خلفه مئة عربة أخرى. وكان برفقة ذلك الموكب رجال صارمون يرتدون السواد مع أطواق تحيط بالعنق، ويمتطون صهوات أحصنة جميلة جداً؛ كما كان عدد غفير من المشاة من خلف الجميع بشعورهم الدهنية وقد التزموا الصمت.

بادئ ذي بدء رتّب همذان الغانجيّين من حوله بترتيب القتال، وتقدّم، رافعاً رمحه. وما إن لمحه الملك حتى خلع تاجه، وترّجل من عربته، وقبّل ركاب همذان، وقال له: «أيها الرجل المبعوث من السماء، أنت الذي أخذت بثأر الجنس البشري، أنت محرّر وطني، وأنت من حميتني. أولئك المسوخ المقدّسون الذين طهّرت الأرض منهم، كانوا متسلطين عليّ باسم «شيخ الجبال السبعة»؛ وكنتُ مرغماً على تحمّل سلطتهم الإجرامية. ولو أردت مجرّد تخفيف فظائعهم البغيضة، إذن لكان شعبي قد تخلّى عنّي. منذ اليوم أصبحت أتنفس بحرية، وأحكم، وأنا مدينٌ لك بهذا.»

بعد ذلك قبّل باحترام يد فورموزنت، ورجاها أن تتكرّم بالصعود مع همذان،

وإيرلا، والفينيق إلى عربته ذات الثماني بغلات. كان الفلسطينيان، مصرفيّا البلاط، لا يزالان ساجدين على الأرض خوفاً وعرفاناً بالجميل، فنهضا من سجدتهما، وسارت فرقة الخيول وحيدة القرن خلف ملك البيتي المتوجّه إلى قصره.

بطبيعة الحال لا تسمح هيبة ملكٍ يسود شعباً من الوقورين بأن تمضي عربته مسرعة، ولذلك كانت البغلات تتقدّم متمهّلة، وهذا ما أتاح لهمذان وفورموزنت الوقت الكافي ليقصّ كلٌّ منهما على الملك ما جرى معه من مغامرات. كما تبادل الحديث مع الفينيق؛ وعبّر له عن إعجابه، وقبّله مائة مرّة. وفهم مقدار ما كانت عليه شعوب الغرب من جهل، وتخلّف، ووحشية، بسبب تناولهم للحوم الحيوانات، وعدم قدرتهم على فهم ألسنتها؛ كما فهم بأن الغانجيّين هم الوحيدون الذين حافظوا على الطبيعة، وعلى الكرامة الفطرية للإنسان؛ لكنه أكّد خاصةً بأن المفتشين المصلحين هم أشدّ بني آدم وحشية، وأن همذان قد أحسن صنعاً بتطهير الأرض منهم. واستمر يباركه ويشكره دون توقف. وكانت فورموزنت ذات الجمال والدلال قد بدأت تنسى مغامرة فتاة «الأعمال» ولم تعد حناياها لتخفق إلا بفضيلة ومزايا البطل المقدام الذي أنقذ حياتها. وإذ علم همذان براءة وطهارة القبلة الممنوحة لملك مصر، وعودة الفينيق إلى الحياة، فقد انساق مع فرحٍ خالص، وأصبح سكران بأعنف وأقوى غرام.

تناولوا طعام العشاء في القصر، ولكن الطعام كان في غاية السوء. فطبّاخو البيتي هم أسوء الطباخين في أوروبا. وهذا ما دفع همذان لينصح باستقدام الطباخين من بلاد الغاليين. وعزف موسيقيّو الملك أثناء العشاء ذلك اللحن الشهير الذي حمل في القرون التالية اسم «ضروب الجنون الإسبانية». وبعد العشاء دار الحديث عن الأعمال.

هنالك سأل الملك همذان الجميل، وفورموزنت الجميلة، والفينيق الجميل، ما الذي ينوون فعله. فقال همذان: «أما أنا، فأنوي أن أرجع إلى بابل، التي أنا الوارث الشرعي لعرشها، وأن أطلب من عمّي بيلوس يد ابنة عمي، فورموزنت التي لا يوجد مثلها في الدنيا، اللهمّ إلاّ إن كانت تفضّل العيش معي في بلاد الغانجيّين.

- أما أنا، قالت الأميرة، فأنوي بكل تأكيد ألاّ أنفصل بعد اليوم عن ابن عمّي. لكن أعتقد أن الأصول تقضي بالرجوع لأكون إلى جانب والدي الملك، خاصةً وأنه لم يسمح لي بالسفر والحجّ إلاّ إلى البصرة، بينما طفتُ في جميع أرجاء الأرض.- وبالنسبة لي، قال الفينيق، سوف أظلّ أبد الدهر مع هذين العاشقين الرقيقين، الكريمين.

- معكم حق، قال ملك البيتي، لكن العودة إلى بابل ليست بالسهولة التي تظنونها، فأنا تصلني يومياً الأخبار عن تلك البلاد وعن مراكب صور ومن الصرّافين الفلسطينيين لديَّ، لأنهم على اتصال مع جميع شعوب الأرض. فالجميع يحملون السلاح ويتحاربون على ضفاف الفرات والنيل. فملك ياجوج وماجوج يطالب بميراث زوجته، على رأس جيش تعداده ثلاثمائة ألف محارب، على ظهور الخيل جميعهم. كما أن ملك مصر وملك الهند ينكبان أيضاً ضفاف دجلة والفرات، كلٌّ منهما على رأس ثلاثمائة ألف مقاتل، انتقاماً للاستهزاء بهما. وأثناء تغيّب ملك مصر خارج بلده، راح عدوّه ملك إثيوبيا يخرب بلاده على رأس ثلاثمائة ألف رجل، أما ملك بابل فلم يجيّش بعد سوى ستمائة ألف رجل ليدافع عن نفسه.

«وأعترف لكم، قال الملك، بأنني كلّما سمعت الحديث عن تلك الجيوّش الجرّارة التي يتقيّؤها الشرق من أحشائه، وعن عظمتها المذهلة؛ وكلّما قارنتها بفيالقنا التي لا تتجاوز العشرين إلى الثلاثين ألف جندي، ويصعب علينا تأمين الكساء والغذاء لها، راودتني خواطري لأرى بأن الشرق تكوّن قبل الغرب بفترة طويلة جداً. ويبدو لي أننا في الغرب خرجنا أول أمس من السديم، وأمس من الهمجية.

- مولاي، قال همذان، إن اللاحقين أحياناً يتفوقون على السابقين الذين كانوا أول من دخل إلى الحلبة. وفي بلادي، نظنّ بأن الإنسان موطنه الأصلي في الهند، لكن لايوجد أي يقين قطعي لديّ حول هذا.

- وأنت، قال الملك مخاطباً الفينيق، ما رأيك بهذا؟ - يا مولاي، أجاب الفينيق، لا أزال أصغر من أن أكون مطلعاً على أمور التاريخ السحيق.

- فأنا لم أعش إلا زهاء سبعة وعشرين ألف عام؛ غير أن والدي الذي عاش خمسة أضعاف عمري، كان يقول لي إن والده أخبره بأن أقاليم الشرق كانت دائماً أكثر عمراناً وأكثر ثروات من باقي أقاليم الأرض. وقد نقل له أسلافه بأن ولادة جميع الحيوانات بدأت على ضفاف الغانج.

- أما أنا، فلا يدفعني الغرور لتبنّيَ هذا الرأي. إذ لا أستطيع الاعتقاد بأن ثعالب ألبيون، ومرموط الآلب، وذئاب بلاد الغال، خرجت من بلدي؛ تماماً كما لا أعتقد أن الصنوبر والسنديان في بلدانكم متحدرة من أشجار النخيل وجوز الهند في بلاد الهند.

- لكن من أين كان مصدرنا إذن؟ قال الملك. - لا أعلم شيئاً عن هذا، قال الفينيق؛ أنا يكفيني أن أعلم أين سوف يستقر المقام بأميرة بابل الجميلة وبصديقي الغالي همذان.
- أشكّ بقوة، تابع الملك، أن يستطيع بمائتي حصان وحيد القرن العبور في خضمّ كل تلك الجيوش ذات الثلاثمائة ألف رجل في كل جيش. - وما المانع؟» قال همذان.
- شعر ملك البيتي بسمو وشموخ «ما المانع» تلك؛ لكنه كان يؤمن بأن الشموخ غير كافٍ لصدّ تلك الجيوش الغفيرة. فقال: «أنصحك بالتوجّه لمقابلة ملك أثيوبيا؛ أنا تربطني علاقات بذلك الأمير الأسود عن طريق الفلسطينيّين لديّ. سوف أزوّدك برسائل إليه. فما دام يعادي ملك مصر، سوف يكون سعيداً جداً إذا دعمته بالتحالف معه. وأستطيع من جانبي أن أدعمك بألفين من الأشدّاء المتقشفين؛ وليس عليك إلا أن تقوم بنفسك بتجنيد عددٍ مماثل لدى الشعوب القاطنة، أو بالأحرى التي قفزت إلى سفوح البيرنيه، ويطلقون عليهم اسم الغاسك، أو الغاسكونيّين. أوفدّ إليهم أحد مقاتليك على جواد وحيد القرن وزوّده بماسات قليلة: فلن يتردد أي غاسكوني في مغادرة كوخه الأبوي، ليكون تحت تصرفك.

إنهم لا يتعبون، ولا يهابون، ولا ينقطعون عن المرح؛ سوف تكون راضياً جداً عنهم. وبانتظار قدومهم، سوف نقيم لك الأعياد ونجهّز لك المراكب. فمهما فعلتُ، لاأستطيع أن أكافئ الخدمة التي قدمتها إليّ.»

كان همذان مسترسلاً مع سعادته بالعثور على فورموزنت، ومع الاستمتاع الهادئ بكل ما في حديثها من مفاتن الحب بعد الصلح، والتي تكاد تكون معادلة لمفاتن الحب في لحظة ولادته.

وسرعان ما وصلت فرقة ذات اعتزاز وابتهاج من الغاسكونيّين وهي ترقص على قرع الطبول الطويلة؛ وكانت الفرقة الثانية ذات الاعتزاز والوقار من البيتيّين قد أصبحت جاهزة. فعانق الملك الشيخ، المدبوغ الشعر، الحبيبين برقة؛ وجهّز مراكبهما بالأسلحة، والأسرّة، ورقع الشطرنج، والثياب السوداء، وكمية كبيرة من الثوم، متمنياً لهما رحلة بحرية موفقة، وحبّاً ثابتاً، وانتصارات.

ووصل الأسطول إلى الشاطئ الذي يُزعم أن الفينيقية ديدون، أخت بيجماليون، زوجة سيشي، التي غادرت مدينة صور تلك، بعد قرون عديدة من ذلك التاريخ، جاءت

وأسّست مدينة قرطاجة الفخ بتقديد جلد الثور، على ذمّة أشد مؤرخي التاريخ القديم وقاراً، أولئك الذين لم ـ ـوا أبداً قصصاً خرافية، وعلى ذمّة الأساتذة الذين كتبوا لتعليم الصبية الصغار؛ بغضّ النظر عن أنّ أحداً في صور لم يحمل أبداً اسم بيجماليون، أو ديدون، أو سيشي، التي هي محض أسماء إغريقية، وبغضّ النظر عن أنه لم يكن في صور ملك يحكمها في تلك الأزمنة.

لم تعد قرطاجة الفخمة ميناء بحرياً؛ فليس فيها بعدُ سوى حفنة من النورمنديين يجفّفون الأسماك في الشمس. وحاذى الأسطول بيزاسين وسيرت، والضفاف الخصبة التي قامت فيها سيرين وكرسونيز.

أخيراً كان الوصول إلى المصبّ الأول لنهر النيل المقدّس. ففي أطراف تلك الأرض الخصيبة كان ميناء كنوب يستقبل مراكب جميع الأمم المشتغلة بالتجارة، دون أن يكون معلوماً إذا كان الرب كنوب هو الذي أنشأ الميناء، أو أن الأهالي هم الذين خلقوا الرب، ولا إذا كان نجم كنوب هو الذي أعطى الميناء اسمه، أو أن الميناء أعطى النجم اسمه.

كل ما هو معلوم حول هذا الأمر، أن المدينة والنجم مغرقتان في القدم، وهذا هو كل ما يمكن أن يكون معلوماً عن أصول الأشياء، مهما كانت طبيعتها.

هنالك تحديداً شاهد ملك أثيوبيا، بعد تدميره لمصر بأكملها، رسوّ مراكب همذان ونزوله إلى البرّ مع معبودته فورموزنت. فظنّ الملكُ الأول ربّ المعارك، وظنّ الثانية ربّة الجمال. وقدّم إليه همذان رسالة التوصية من إسبانيا. فأقام ملك أثيوبيا بادئ الأمر احتفالات رائعة، حسب مستلزمات تلك الأزمنة البطولية المجيدة؛ ومن بعد هذا، دار الحديث بصدد التحرّك للقضاء على الثلاثمائة ألف رجل لدى ملك مصر، والثلاثمائة ألف لدى إمبراطور الهند، والثلاثمائة ألف لدى الخان الأعظم لياجوج وماجوج، والذين كانوا يحاصرون معاً مدينة بابل، الهائلة، المجيدة، المثيرة.

وراح الألفا إسباني الذين جاء بهم همذان معه يقولون إنهم لا يعلمون ما فائدة مساعدة ملك إثيوبيا لهم في تحرير بابل؛ وإنه يكفيهم كون ملكهم قد أصدر إليهم الأمر بتحريرها؛ وإنهم يستطيعون بمفردهم القيام بذلك.

وقال الغاسكونيون إنهم قاموا بفتوحات مجيدة كثيرة غير هذه الحرب؛ وإنهم بمفردهم قادرون على كسر المصريين، والهنود، والياجوجيين، وإنهم لا يريدون مرافقة الإسبان إلاّ بشرط أن يكونوا في المؤخرة.

هنا راح المائتا غانجي يضحكون من ادّعاءات حلفائهم، وأكّدوا أنهم بمساعدة مائة حصانٍ وحيد القرن لا غير سيمكنهم إيقاع الهزيمة بجميع ملوك الأرض. فهدّأتْهم فورموزنت بحنكتها وبأقوالها الساحرة. وكان أن قدّم همذان إلى العاهل الأسود جنوده الغانجيّين، وأحصنته وحيدة القرن، والإسبان، والغاسكونيّين، وطائره الجميل.

وسرعان ما أصبحوا جاهزين عتاداً ورجالاً للانطلاق مروراً بممفيس، وهليوبوليس، وأرسينوي، والبتراء، وآرتميت، وسورة، وأفاميا، في طريقهم لملاقاة الملوك الثلاثة، ولشن تلك الحرب الباقية الذكرى مدى الدهر، والتي لا تعدو جميع الحروب التي شنّها البشر فيما بعد أن تكون حروب ديوك وسُمانى.

ويعلم الجميع كيف وقع ملك إثيوبيا في غرام الحسناء فورموزنت، وكيف غافلها في السرير، عندما أغلق رقادٌ ناعم أهدابها الطويلة.

ويذكر الجميع كيف أن همذان، لدى مشاهدته لهذا المنظر، تراءى له بأن النهار والليل رقدا معاً جنباً إلى جنب. ولا يجهل أحد كيف أن همذان، الذي فار غضبه بسبب تلك الإهانة، استل فجأة سيفه «أبا الصواعق» وحزّ الرأس السقيم للزنجي الوقح، وطرد جميع الأثيوبيّين من مصر. أوليست هذه الأعاجيب مدوّنةً في كتاب تاريخ مصر؟ لقد نشرت الشهرة بألف لسان ولسان أخبار الانتصارات التي حققها على الملوك الثلاثة، بمساعدة الإسبان، والغاسكونيين، والخيول وحيدة القرن. وأعاد الحسناء فورموزنت إلى والدها؛ وحرّر من العبودية جميع حاشية محبوبته، وكان ملك مصر قد استرقّ تلك الحاشية. أما الخان الأعظم لياجوج وماجوج فأعلن له الولاء، وجرى التصديق على زواجه من آلدي. وها هو همذان الغالب، الكريم، يعترف به وارثاً لعرش بابل، ويدخل إلى المدينة ظافراً منصوراً، مع الفينيق، وبحضور مائة من الملوك الخاضعين له. وكان حفل زواجه أفخم بكثير من الاحتفال الذي سبق أن أقامه الملك بيلوس. وكان من المأكولات الثور آبيس بعد تحميره. أما ملك مصر وملك الهند فعملا ساقيين أمام العريسين، وقام بتمجيد تلك الأعراس خمسمائة شاعر من فحول الشعراء في بابل.

إيه يا ربّات الإلهام! يطلبون منكنّ الإلهام والوحي في بداية الحكاية، وأنا لاأتوسل إليكن إلاّ في نهايتها. وعبثاً ما يكيلون لي اللوم والتوبيخ لأنني أسعى إلى النهايات دون أن أكون قد باركتُ البدايات.

يا ربّات الإلهام! لا ترفعن عني حمايتكن لهذا السبب. واعملن على منع المتابعين الجسورين من إيراد خرافاتهم لإفساد الحقائق التي علّمتها للفانين في هذه القصة الصادقة، تماماً مثلما فعلوا عندما تجرؤوا على تزوير قصّتي: «كانديد»، و«الغرير»، والمغامرات الطاهرة للطاهرة جانا، التي شوّهها كبّوشي سابق بأشعار لا تليق إلا بكبّوشيّين، في طبعات بتافية: فليتهم لا يلحقون هذا الضرر بصاحب المطبعة الذي يطبع كتبي، فهو مسؤول عن عائلة غفيرة العدد، ولا يكاد يملك ما يمكّنه من تأمين الأحرف، والورق، والحبر.

إيه يا ربّات الإلهام! ألزمي بالصمت كوجي المقيت البغيض، أستاذ الثرثرة واللغو في معهد مازاران، الذي لم يستحسن الأحاديث الأخلاقية لدى بلزبير ولدى الامبراطور يوستنيان، فكتب نشرات تشهيرية دنيئة بحقّ هذين الرجلين العظيمين.

ضعي كمامة على فم المدّعي لارشي، الذي، دون أن يعرف كلمة واحدة من اللغة البابلية القديمة، ودون أن يكون قد سافر مثلي على ضفاف الفرات ودجلة، لم يتورّع عن مجانبة الدقة فزعم وأكّد بأن الحسناء فورموزنت، ابنة أعظم ملك في الدنيا، والأميرة آلدي، وجميع نساء ذلك البلاط المحترم، كن يذهبن لمضاجعة جميع سائسي الخيل في آسيا مقابل المال، في معبد بابل الكبير، وذلك وفاءً منهن لعقيدة دينية. فهذا المتهتك الداعر من خريجي المعاهد التعليمية، هو عدوك وعدوّ الحشمة والحياء، ويتهّم المصريات الجميلات في منديس أنهن لم يعشقن سوى فحول التيوس، وأنهن عاهدن أنفسهن سراً، لضرب المثل وإعطاء القدوة، على الطواف في جميع أرجاء مصر للقيام بالمغامرات التي تروق لهن.

وحيث إنه لا يعلم عن الحديث أكثر مما يعلم عن القديم، فهو يدسّ تلميحاً، على أمل أن تستلطفه عجوز من العجائز، بأن عزيزتنا نينون التي لم يعرف مثلها في البلاد، ضاجعت في سنّ الثمانين الأب جدوان، من الأكاديمية الفرنسية ومن أكاديمية النقوش والآداب الجميلة. فهو لم يسمع بالأب شاتونوف، بحيث خيّل إليه بأنه هوالأب جدوان.

ومعرفته بنيون ليست أفضل من معرفته ببنات بابل.

يا ربّات الإلهام، يا بنات السماء، عدوكن لا شيء اشتط أيضاً إلى ما هو أبعد: وراح يطنب في امتداح اللواط والثناء عليه؛ وله الجرأة كي يزعم أن جميع أطفال بلدي هم ضحايا لذلك الوباء المشين.

وهو يتخيّل بأنه سوف يفوز بالنجاة إذا أكثر من عدد المذنبين.

يا ربّات الإلهام النبيلات الطاهرات، يا من تبغضن من بين ما تبغضن الادّعاء واللواط، كنّ عوناً لي لحمايتي من الأستاذ لارشي!

أما أنت، يا أستاذ أليبورون، الملقّب فريرون، المعروف بزعم الزاعمين أنه من اليسوعيين، أنت يا من برناسك هو تارةً في المصحّ العقلي في بيسيتر، وطوراً في ملهى ليلي من الدرجة العاشرة؛ أنت يا من أنصفتك أوروبا أحسن إنصاف في جميع مسارحها في مجال الكوميديا المعنونة: «الاسكتلندية»؛ أنت، أيها الابن الجدير بالقسّ ديفونتين، يا من ولدت من غرامياته مع أحد الأبناء الجميلين، حاملي الحديد وعصابة الرأس مثل ابن فينوس، والذين ينطلقون مثله في الأجواء، مع أنهم لا يصلون أبداً إلى ارتفاع قمم المداخن؛ أنت يا عزيزي أليبورون، الذي شعرت دائماً حياله بالحنان، والذي جعلني أضحك شهراً كاملاً دون توقّف منذ عرض مسرحية «الاسكتلندية»، أنا أوصيك بحكايتي عن أميرة بابل؛ فأرجوك أن تندّد بها كي يقرأها الجميع.

ولن أنساك، في هذا السياق، أيها الأب صاحب الصحيفة، أيها الخطيب المفوّه أمام المصابين بالتشنجات، يا أبا الكنيسة التي أسّسها الأب بيشران وأبراهام شوميكس؛ رجاءً فلا تنسني في وريقات صحيفتك، التقيّة، والبليغة، والحمقاء على حدٍّ سواء؛ تحدّث فيها عن «أميرة بابل» إذن، وقل عنها إنها مارقة على الدين، ومؤمنة دون وحي، وملحدة، في الوقت نفسه، وابذل جهودك خاصة لتحريض حضرة السيد ريباليه ليستصدر إدانة من السوربون لـ «أميرة بابل»؛ فأنت بذلك سوف تكون مصدر سرور كبير لصاحب المكتبة الذي قدّمتُ إليه هذه الحكاية الصغيرة ليكون أول المتصرّفين بها.

الفهرس

توطئة وتوضيح	5
حكاية البراهماني الصالح	7
حوار الديك المخصيّ والدجاجة المسمّنة	11
ممنون أو الحكمة البشرية	17
استطراد قصير	23
حكاية أسفار سكرمنتادو (كتبها بخطّ يده)	25
مغامرة هندية (ترجمة الجاهل)	33
الأبيض والأسود	37
حلم أفلاطون	51
حول تجميل مدينة كشمير	55
كوزي - سانكتا "ومن السموم الناقعات دواء" حكاية أفريقية	63
محاورات بين الشاعر الأبيقوري لوكريس والفيلسوف الرواقي بوزيدونيوس	71
جانو وكولان	87
أحاديث متوحش وحامل شهادة في الفقه	97
المتواسيان	107
حوار بين براهماني ويسوعي حول ضرورة ترابط الأمور	109
الدنيا على ما هي عليه «مشاهدات بابوك كتبها بخطّ يده»	115
أميرة بابل	131

أعمال
خالدة
٨

فولتير
قصص وحكايات

لو سمحنا لأنفسنا بوضع عنوان خاص لهـــذه المجموعة، فقلنا عنها إنها: (ألف ليلة وليلة الفرنسية). ولعمري، ما كان فولتير ليعترض على مثـــل هذا العنـــوان، وهو الذي جعل من (ألف ليلة وليلة) كتابه الأثير، ونسج أسلوبه على غرارها من بعـد ,فرنسة، ساخرة لا غنى عنها لمثل هـذا الكتاب اللاذع الفكاهة.

علي مولا

ISBN:2-84305-847-X
9 782843 058479